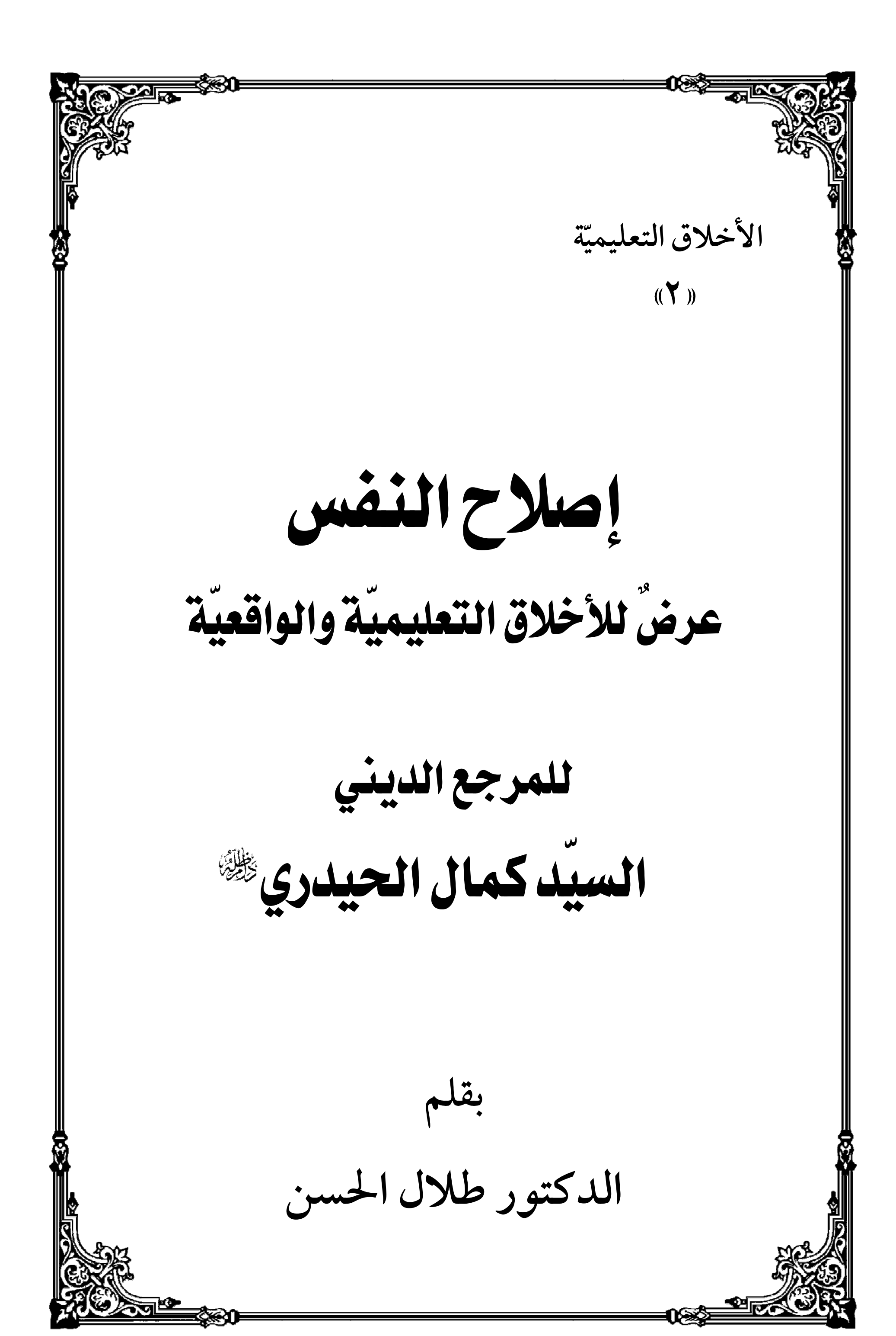


الأخلاق التعليميّة

«٢»

إصلاح النفس

عرضٌ للأخلاق التعليميّة والواقعيّة

للمرجع الديني

السيّد كمال الحيدري دام ظله

بقلم

الدكتور طلال الحسن

مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام
للفكر والثقافة

الكاظمية المقدسة ـ باب الدروازة

١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٥م

يطلب من

- مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة؛ بغداد
  ٠٠٩٦٤ـ٧٧٠٧٩٠٠٨٤٢
  ٠٠٩٦٤ـ٧٨٠٠٢٣٠٠٢٩
- مؤسسة الثقلين للثقافة والإعلام؛ كربلاء
  ٠٠٩٦٤ـ٧٨٠١٤٢١١٩٤
- معرض الكتاب الدائم؛ النجف الأشرف
  ٠٠٩٦٤ـ٧٧١١٦٤١٦٦٩
- مكتبة زين العابدين؛ البصرة ـ الطويسة
  ٠٠٩٦٤ـ٧٧٠٦٠٧٢٢٧١
- مكتبة دار الأمير؛ الناصرية ـ الحبوبي
  ٠٠٩٦٤ـ٧٨٠٣٠٩٨٤٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقفات جلاليّة

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩)، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٢).

تهذيب النفس سلوكٌ إلى الله بمحض الاختيار، فمَن لم يسلك إلى ربّه سيقبع تحت سلطان الشيطان وكان من الغاوين.

والسلوك إلى الله تعالى خير البرّ، وخير البرّ عاجلُه، ولذا توجّه موسى عليه السلام بكلّ جوامعه وقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه: ٨٤). فلتكن لنا عودةٌ وتوبةٌ؛ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

المقدّمة

هذه هي الحلقة الثانية من حلقات سلسلة الأخلاق التعليميّة، والتي سيتناول فيها السيّد الأُستاذ دام ظلّه موضوعاً مهمّاً في حياة الإنسان، بل هو موضوعٌ مصيريٌّ يرتبط بثمرة التفكّر بحركة الإنسان التكوينيّة في (من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟)، حيث تستدعي من كلّ إنسانٍ عاقلٍ عاملٍ أن يعمل للخلاص من جميع مواطن الجهالات والظلم للنفس، ومن أهمّ موارد الخلاص: العمل الدؤوب على تزكية النفس من أدران الماضي، وانتشالها من متاهات الحاضر، وعِتقها من حالات اغتصاب المستقبل بالأماني الكاذبة.

إنَّ الأخلاق التعليميّة والواقعيّة هي تجربةٌ حيويّةٌ تنطلق من النفس الإنسانيّة، فتقرأ ما فيها من ركامٍ ماضويٍّ ورغبةٍ جامحةٍ في الخلاص، وذلك بالاستعانة بالكمالات الموجودة في داخل كلّ إنسانٍ، فلا يخلو إنسانٌ البتّة من كمالٍ ما، وعلى هذا الكمال يكون رهان الأخلاق الواقعيّة في رحلة التغيير، وهي رحلةٌ استكشافيّةٌ تحاول أن تمتدّ مجسّاتها إلى أعماق النفس، ولا تخشى الظلمة وإن كانت مفرطةً، ولا تُخدع بالإشراقات السريعة وإن كانت كثيرةً؛ لأنّها تريد أن تحقّق لنفسها موضوعها المحوريّ، وهو الواقعيّة؛ الواقعيّة التي تؤمن بقاعدة (قليلٌ يقرّ، خيرٌ من كثيرٍ يفرّ)، وتؤمن بقاعدة (طريق الألف ميلٍ، يبدأ بخطوةٍ)، وبالقاعدة العرفيّة (عصفورٌ في اليد، خيرٌ من عشرةٍ على الشجرة)، لأنّ هذه القواعد الميدانيّة هي الأكثر تماسّاً مع الواقع، والأكثر دافعيّةً للانطلاق من الواقع إلى المُثُل العليا.

وقد قيل من قبل: إنّ أفلاطون رفع الفلسفة من الأرض إلى السماء، فصارت لغته مثاليّةً وأهدافه مثاليّةً ونتائجه مثاليّةً، في حين أنّ تلميذه أرسطو

طاليس أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، فصارت لغته وأهدافه ونتائجه واقعيّةً، وبهذه الواقعيّة تمكّن أرسطو من ردع تمحّلات السفسطائيّين، بعد أن منحتهم مثاليّة أفلاطون مساحاتٍ عريضةً للحركة والانتشار.

وهكذا نحن في الأخلاق الواقعيّة نريد أن نحقّق الطفرة الأرسطيّة، ولكن في مجال الأخلاق، فننزلها من مثاليّتها وسماويّتها إلى أرض الواقع، فنحن وإن كنّا سماويّين بانتمائنا وثقافتنا إلّا أنّنا نريد أن نحيا على الأرض، ونقولها بملء الفم: نعم، نريد أن نحيا على الأرض ونحن واقعيّون، فإذا ما ذهبنا إلى السماء فهنالك ستلزمنا الواقعيّة بأن نكون سماويّين.

إنّ سماويّة الأرض تخلق حالةً من الاضطراب الشديد، بل هي حالةٌ نفاقيّةٌ مهذّبةٌ، ونحن لا نريد أن نكون كذلك، فعندما نجوع نريد أن نأكل، وعندما نعطش نريد أن نشرب، وعندما نتعب نريد أن نستريح، وأكلنا وشربنا واستراحتنا ليست نقصاً فينا، كما تتوهّمها أو ما تقتضيها المثاليّة وفلسفاتٌ سماويّةٌ، وإنّما هي الواقعيّة التي نعيشها ولا يسعنا الفرار منها، ولا نريد أن نفرّ منها، وإنّما نريد أن لا نغادر إنسانيّتنا، فنفكّر بأداة التفكير، ونحسّ بأدوات الحسّ، فلا نريد أن نجني على الفكر بالحسّ، ولا على الحسّ بالفكر، فلكلٍّ واقعيّته، ولكلٍّ مقتضياته، ولعلّ كثيراً من الذين يُوهموننا بأنّهم مثاليّون وسماويّون هم الأكثر استغراقاً في عالم المادّة، فخدعوا أنفسهم بكلماتٍ وخيالاتٍ سرابيّةٍ، بل هي: ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً**﴾ (النور: ٣٩).

إذن فالواقعيّة العملانيّة التي توازن بين لغة الأرض ولغة السماء، هي محور حركة هذه السلسلة الدراسيّة في الأخلاق الواقعيّة التعليميّة. إنّها محوريّة اليقظة والدهشة من عوالم الغفلة التي طالما أكلت وشربت فينا ونحن

نظنّ بأنّنا سماويّون! ومحصّنون!! ولكنّ الواقع يقول بأنّنا مغيّبون!

هذا الكتاب

في هذه الحلقة الثانية من سلسلة (الأخلاق التعليميّة) ستكون هنالك عدّة وقفاتٍ، في ستّة عشر درساً، نتناول في معظمها محاور تتعلّق بإصلاح النفس وتهذيبها، بعد أن انتهينا في الحلقة الأولى من أصول الأخلاق.

إنَّ هذه السلسلة ـ والتي منها هذه الحلقة الثانية ـ قد جمعت بين المنهجيّة العلميّة في العرض، والعمق في الفهم والتطبيق، والوضوح وحسن البيان، انسجاماً مع استراتيجيّة السيّد الأستاذ بضرورة إفشاء الجانب التعليميّ، وهذا ما ينسجم تماماً مع مشروعه المعرفيّ الذي تبنّاه دام ظلّه وروّج له منذ أكثر من ثلاثة عقودٍ، في إلزاميّة التفقّه في الدين، عقيدةً وشريعةً، وتفسيراً وحديثاً، وأخلاقاً وعرفاناً؛ لتكتمل المنظومة الإسلاميّة في ذاكرة المكلّف.

إنّ هذه الحلقة ـ رغم حلّتها الواقعيّة في التصوير والتقريب والتمثيل ـ اشتملت على مطالب عميقةٍ ودقيقةٍ، هي بحاجةٍ إلى تدبّرٍ وتأمّلٍ ومطالعةٍ لأكثر من مرّةٍ، وهذه الدقّة ـ ضمن حدودٍ ما ـ لم تكونا مقصودين بقدر ما هما واقع حالٍ لم يمكن التنصّل عنهما؛ لأنّ طبيعة هذه الأبحاث تفرض نوعاً خاصّاً من العرض، ولعلّ في ذلك مصلحةً يُدركها جيّداً أصحاب الفنّ.

تنبيه

إنّ عنونة الدروس بالأوّل والثاني و... لا تعني أنّ لكلّ درسٍ حصّةً واحدةً؛ فقد يحتاج الدرس منها إلى حصّتين أو ثلاث، أو أكثر، وقد يُكتفى

في بعضها بحصّةٍ واحدةٍ؛ فيكون التركيز على إيصال مادّة الدرس شكلاً ومضموناً، وإعطاء البُعدين التعليميّ والمعنويّ أهميّةً متناسبةً، فلا يصحّ الإغفال عن الجانب التعليميّ طلباً للمعنويّ كما لا يصحّ العكس أيضاً.

وعلى الأساتذة الكرام ـ طبقاً لوصايا السيّد الأستاذ ـ أن يكونوا قدوةً عمليّةً في جانبهم التعليميّ وجانبهم المعنويّ، فإنّ شخصيّة الأُستاذ في الدرس الأخلاقيّ لها أثرٌ كبيرٌ جدّاً في الجذب والطرد، وليس مطلوباً من الأُستاذ في الجانب التعليميّ أكثر من معرفة المطالب المطروحة، وليس مطلوباً منه في الجانب المعنويّ أكثر من أن يكون صادقاً؛ فمعرفة الأستاذ بالمطالب والصدق في عرضها كفيلان بتحقيق جانب الجذب؛ وليستحضر الأُستاذ الكريم قوله تعالى: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلّا الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ (هود: ٨٨)، فذلك نافعٌ جدّاً.

جديرٌ بالذكر أنّ مجموعة التعليقات المذيّلة بكلمة (منه دام ظلّه) تعود للسيّد الأستاذ، وما عداها فهي للمقرّر.

الدكتور طلال الحسن

شوال/ ١٤٣٦هـ

قم المشرّفة

دروس الحلقة الثانية

الدرس الأوّل: النفس والفطرة الإنسانيّة
الدرس الثاني: ضرورة إصلاح النفس
الدرس الثالث: علاقة إصلاح النفس بالمعارف الإلهيّة
الدرس الرابع: المقدّمات العلميّة والعمليّة لإصلاح النفس
الدرس الخامس: الوسائل والمراحل العمليّة لإصلاح النفس
الدرس السادس: درر نبويّة في طريق إصلاح النفس
الدرس السابع: الاستغفار وشروطه
الدرس الثامن: التوبة وشروطها
الدرس التاسع: المشارطة والمراقبة والمحاسبة
الدرس العاشر: عناية القرآن بإصلاح النفس
الدرس الحادي عشر: أهل البيت عليهم السلام وإصلاح النفس
الدرس الثاني عشر: إصلاح النفس بين الإفراط والتفريط
الدرس الثالث عشر: علاج مفاسد الأخلاق
الدرس الرابع عشر: التخلّص من مكائد الشيطان
الدرس الخامس عشر: ذكر الموت وعلاقته بإصلاح النفس
- خاتمة وتوصيات

الدرس الأوّل

الفطرة الإنسانيّة

- أهداف الدرس
- تمهيد
- معنى الفطرة
- حقيقة الفطرة
- معاني الفطرة في القرآن والسنّة
- أنواع الفطرة
- سبب الاختلاف في تشخيص الهدف رغم وجود الفطرة
- عوامل احتجاب الفطرة
- طريق العود للجادّة
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان معنى الفطرة وحقيقتها وأنواعها.
- تحديد سبب الاختلاف في تشخيص الهدف.
- بيان عوامل احتجاب الفطرة، وطريق العود للجادّة.

تمهيد

البحث في الفطرة هو بحثٌ في أوّليّات تكوين الإنسان، فهي أُسّ تكوينه وبُنيانه، وكلّ شيءٍ إذا صلُح أُسّه صلُح ما يلي من بُنيانه، وإذا ما فسد فسد كلّ شيءٍ فيه، وهكذا هي الفطرة في الإنسان، فإذا صلحت وبقيت على نشأتها من دون تلوّثٍ وتزييفٍ فإنّ الإنسان سيصلح منه باطنه وظاهره، والعكس بالعكس.

فما هي الفطرة؟ وما هي حقيقتها؟ وكيف انعكست صورتها في القرآن والسنّة؟ وما هو سبب الاختلاف في تشخيص الهدف مع وجود الفطرة؟ وما هي عوامل احتجاب الفطرة؟ وما هي طرق العود للجادّة؟

معنى الفطرة

الفطرة في اللغة هي الخلقة والإيجاد، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (الزخرف: ٢٧)، أي: الذي خلقني وأوجدني[1]، ولكنّه ليس

(١) انظر: التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي: ج٩ ص١٩٣، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة؛ تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري: ج٢٥ ص٨٠، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل

إيجاداً مطلقاً، وإنّما هو إيجادٌ مخصوصٌ، فتكون الفطرة: هي ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به[١]، وبالتالي فهي إيجاد الإنسان على نوعٍ مخصوصٍ من الكمال[٢].

وفي الاصطلاح قيل بأنّها: مجموعة الصفات والقابليّات التي تُخلق مع المولود، سواءٌ كانت نفسيّةً أو عقليّةً، وبهذه القابليّات التي تشكّل الفطرة الإنسانيّة يهتدي الإنسان إلى تغطية نواقصه وقضاء حوائجه الأساسيّة ما استطاع لذلك سبيلاً، فتكون تلك الصفات والقابليّات تعبيراً آخر عن الإيجاد المخصوص، وإن لم تُحدّد هويّته، وهذا ما ينبغي تسليط الضوء عليه.

حقيقة الفطرة

يمكن القول بأنّ للفطرة معنيين بينهما علاقةٌ وثيقةٌ، الأوّل هو المعنى العامّ، والثاني هو المعنى الخاصّ، وقد يكون العامّ هو الأقرب للتعريف اللغوي، والخاصّ هو الأقرب للتعريف الاصطلاحي، أمّا المعنى العامّ: فالفطرة هي محض الاستعداد، دون أن تُحدّد فيه ملامح، فإن استعمل هذا الاستعداد فيما خُلق الإنسان من أجله يكن قد حقّق المعنى الإيجابي الخاصّ من الفطرة، أو قل: بأنّه حقّق الهدف والغاية المنشودة، وإن استعمله فيما لم يُخلق من أجله، كاللهو واللعب وسائر موارد الانحراف، فإنّه يكون قد ضلّ وأخطأ الطريق.

العطّار، دار الفكر، ١٤١٥هـ، بيروت.

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور الإفريقي المصري: ج٥ ص٥٦، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، بيروت.

(٢) انظر: شرح أصول الكافي، محمّد صالح المازندراني: ج٨ ص٣٤، تعليق: أبي الحسن الشعراني، نشر: مؤسّسة التاريخ العربي، الطبعة الثانية المصحّحة، ١٤٢٩هـ، بيروت.

وأمّا المعنى الخاصّ، فإنّ الفطرة تعبيرٌ آخر عن الجانب الوجداني في الإنسان، والوجدان هو العقل الباطنيّ الموجود عند عامّة الناس، المفطور على معارف أوّليّةٍ أصيلةٍ، تتعلّق بمعرفة الله تعالى، والإقرار بالعبوديّة له، فهي معرفةٌ سابقةٌ، وإقرارٌ وميثاقٌ مأخوذٌ ومطبوعٌ فيها، ولعلّ هنالك إشارةً بليغةً لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢)[١].

فهي عقلٌ باطنٌ مطبوعٌ على المعرفة والإقرار، ولكنّ القوالب الماديّة التي صُبّ فيها الإنسان نأَتْ به بعيداً، وجعلته غافلاً عن ذلك الموقف والختم الفطريّ.

وبالتالي فإنّ فعّاليّة الفطرة ـ تحرير الاستعداد المحض ـ ستكون خاضعةً إلى ما توفّر لها من مناخٍ، فإن عاش الإنسان في أجواء النبوّة والهداية التشريعيّة الموجّهة لكوامن الإنسان، والمثيرة لدفائن العقول[٢]، فإنّه سوف

---

(١) عن زرارة عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾؟ قال: «**أخرج من ظهر آدم ذرّيته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذرّ فعرفهم وأراهم نفسه، ولو لا ذلك لم يعرف أحدٌ ربّه... قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه**». أصول الكافي، للشيخ أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني: ج٢ ص١٢ ح٣، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م، قم المقدّسة.

وقريبٌ منه ما ورد في حديث جرى بين الإمام عليّ وعمر بن الخطاب حول الحجر الأسود. (انظر: المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج١ ص٤٥٨)، حيث يبيّن الإقرار والمعرفة السابقة.

(٢) قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصف وظيفة الأنبياء عليهم السلام: «**ويثيروا لهم**

يحقّق الهدف المنشود، وإن عاش في أجواء مظلمةٍ ومتمرّدةٍ فسيغلق عليه فيض ومعطيات الفطرة السليمة، ولذلك فإنّ العاصي بعصيانه يكون قد أغلق منافذ رؤية الفطرة، فلا يُستبعد منه بعد ذلك صدور الكفر بالله تعالى منه ومجانبة الحقّ، فتُشدّد ظلماته، بخلاف المنفتح على معطيات الفطرة السليمة، فإنّه بإقراره بالتوحيد، وبطاعته لله تعالى يكون بذلك قد فتح أبواب الغيب والفيض عليه، فيرى ما لا يرى غيره، وهو في حالة رقيٍّ دائمةٍ، وفيضٍ غير منقطعٍ.

إذن فأصل الفطرة هي الخلقة مع الخصوصيّة، فالخلقة هي أصل الوجود، وهي الفطرة اللغويّة، والفطرة بالمعنى العامّ، وأمّا الخصوصيّة فهي مقتضيات العقل الباطني أو الوجدان المطبوع على المعرفة الإلهيّة والإقرار بالوحدانيّة ولزوم العبوديّة لله تعالى وحده، ولذلك فإنّنا في مطلع كلّ صلاةٍ نذكّر أنفسنا بأصل خلقة الله تعالى وإيجاده لكلّ شيءٍ، فنردّد قوله تعالى: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الأنعام: ٧٩)، وهو لحاظٌ عامٌّ، وأمّا الخصوصيّة المنظورة في أصل الخلقة فقد تقدّمت الإشارة لها في قوله تعالى: ﴿**وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾ (الأعراف: ١٧٢).

دفائن العقول». (نهج البلاغة، خطب الإمام عليّ عليه السلام: ج١ ص٢٣، الخطبة الأولى، جمع الشريف الرضي، تحقيق وتعليق: الشيخ محمّد عبده، نشر: دار المعرفة، بيروت). فإنّ الأنبياء عليهم السلام من خلال عرض أدلّتهم وبراهينهم على دعواهم كانوا يثيرون ما هو كامنٌ في العقل. (انظر: معرفة الله، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري: ج٢ ص٨٠، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: فراقد، الطبعة الثانية، قم المقدّسة).

الفطرة في القرآن والسنّة

وهنا في تراثنا القرآني والروائي نجد تعرّضاً واضحاً للفطرة، ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (الروم: ٣٠)، فهي تؤكّد لنا أنّ الفطرة الإنسانيّة هي فطرة الله تعالى، وأنّ هذه الفطرة الإلهيّة في الإنسان لا تبديل لها؛ لأنّه أصل الخلقة، وما دامت الخلقة موجودةً فلازمها الذاتي موجودٌ، وهو عين الفطرة الإلهيّة.

وقد لوحظ أنّ هنالك عنايةً فائقةً لهذه الآية الكريمة في البحث الروائي، فأُعطيت لها معانٍ عديدةٌ، ولكنّها تشترك كثيراً في الاتّجاه العامّ، وهي:

المعنى الأوّل: **الفطرة هي معرفة الله**؛ روي عن زرارة عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام في معنى الآية الكريمة: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾، أنّه قال: «**فطرهم الله على المعرفة**»[(١)].

المعنى الثاني: **الفطرة هي التوحيد**؛ روي عن العلاء بن فضيل أنّه سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾، فقال: «**التوحيد**»[(٢)].

وفي خبرٍ آخر عن زرارة أنّه قال للإمام محمّد الباقر عليه السلام: «أصلحك الله، قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾؟ قال عليه السلام: **فطرهم على التوحيد عند الميثاق على معرفته أنّه ربّهم**. قلت: وما خاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه عليه السلام ثمّ قال: **لولا ذلك**

---

(١) التوحيد، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه: ص٣٣٠ ح٩، تحقيق: السيّد هاشم الحسيني، نشر: جماعة المدرّسين، قم المقدّسة.

(٢) المصدر السابق: ص٣٢٨ ح١، باب (٥٣).

لم يعلموا مَن ربّهم ولا مَن رازقهم»[١].

المعنى الثالث: الفطرة بمعنى الإسلام؛ عن عبد الله بن سنان أنّه سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾، ما تلك الفطرة؟ قال: **هي الإسلام»**[٢].

المعنى الرابع: الفطرة بمعنى الإخلاص؛ جاء في خطبةٍ للإمام عليٍّ عليه السلام: «**وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة**»[٣].

وقد ترد الفطرة بمعانٍ أخرى في البحث الروائي[٤].

جدير بالذكر: أنّ هذه المعاني المنظورة في الفطرة هي في واقعها مصاديق متعددة للفطرة، أو تجليّاتٌ لها، فلا يقع أحدها في قبال الأخرى، فالمعنى المفهوميّ واحد ولكنّ مصاديقه كثيرةٌ وتجليّاته كذلك.

أنواع الفطرة

أمّا أنواع الفطرة، فلو لاحظنا مجموعة المعاني المتقدّمة للفطرة (أصل

---

(١) التوحيد، للشيخ الصدوق، مصدر سابق: ص٣٣٠.

(٢) المصدر السابق: ص٣٢٨ ح٢، باب (٥٣). وعندئذٍ يتّضح قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، إلّا أنّ أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**». (مَن لا يحضره الفقيه، للشيخ الأقدم الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي: ج٢ ص٤٩ ح١٦٦٨، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: جماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، قم المقدّسة؛ صحيح البخاري، محمّد بن إسماعيل البخاري: ج٢ ص٩٧، دار الفكر، ١٤٠١هـ، بيروت)، من أنّ الفطرة هي الإسلام.

(٣) نهج البلاغة، خطب الإمام عليّ: ج١ ص٢١٥، رقم (١١٠)، مصدر سابق.

(٤) ورد في معاني الفطرة أنّها تأتي أيضاً بمعنى الولاية، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ (الروم: ٣٠)، قال: «**التوحيد ومحمّد رسول الله وعليّ أمير المؤمنين**». التوحيد، الشيخ الصدوق: ص٣٢٩ ح٧.

الخلقة والإيجاد؛ الاستعداد المحض؛ الخصوصيّة؛ معرفة الله بصفته خالقاً لنا؛ التوحيد؛ الإسلام؛ الإخلاص)، وغير ذلك من المعاني المحتملة، فإنّها تقدّم لنا حقيقةً معرفيّةً ومعنويّةً، أمّا المعرفيّة فهي التجلّيات المتعدّدة للفطرة، فهي في مرتبةٍ معرفةٌ تكون لصاحبها مجرّد استعدادٍ محضٍ، وأخرى تكون معرفة الخالق، وأخرى توحيد الخالق، وأخرى دينه القويم، وأخرى نفي مطلق الأغيار على مستوى العقل والقلب، وهو الإخلاص.

وأمّا المعنويّة فإنّ جميع هذه المعاني المختلفة في الصورة تستبطن حقيقةً واحدةً، وهذه الحقيقة لا تكون مرئيّةً بالحواسّ، ولا مُدرَكةً بالعقل، وإنّما متصيَّدةٌ للفطرة السليمة، حيث ذوبان حجاب العلم، واختفاء غبار المعلومات، ولا تصدر من الإنسان سوى ما انطبع إلهيّاً في قلبه، فيكون القلب حرماً واقعيّاً لله تعالى، ويكون الإنسان موحّداً وإنساناً.

سبب الاختلاف في تشخيص الهدف رغم وجود الفطرة

إنّ الفطرة موجودةٌ في كلّ إنسانٍ، فلا يخلو أحدٌ منها؛ وهي داعيةٌ للوصول إلى الكمال، فالحركة باتّجاه الكمال حركةٌ فطريّةٌ خالصةٌ.

وهنا نسأل: ما هو سرّ اختلاف الناس في تشخيص الهدف المطلوب؟

والجواب: إنّ السبب الحقيقيّ يرجع إلى اختلاف درجات الاستجابة لنداءات الفطرة، فللفطرة نداءاتٌ باطنيّةٌ تحتاج إلى سماعٍ والتفاتٍ واستجابةٍ، فالإنسان كثيراً ما يسمع نداء الفطرة، يهتف فيه بالحقّ، ويحذّره من الزلل، ولكنّه قليلاً ما يلتفت لذلك الصوت الغيبيّ، وإذا ما التفت للصوت فقليلاً ما تقع الاستجابة، وكلّ سمعٍ بأذن القلب يتبعه التفاتٌ من العقل واستجابةٌ من النفس والبدن، ولعلّ من الأمور التي لا يدرك واقعيّتها كثيرٌ من الناس: أنّ

هنالك كلماتٍ يحتاج النطقُ بها إلى لسانٍ قلبيٍّ، وحقائق متعيّنةً تحتاج إلى عينٍ قلبيّةٍ، ولذلك يصف القرآن الكريم الذين عميت عيونهم القلبيّة وخرست ألسنتهم القلبيّة وصُمّت آذانهم القلبيّة بقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٨)، فهؤلاء يرون ويسمعون وينطقون بحواسّهم المادّية، ولكنّهم مع ذلك يصفهم القرآن بأنّهم «صمٌّ بكمٌ عميٌ» وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿...لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩) أي الذين غفلوا عن صوت الفطرة ولم يلتفتوا إليه.

وهناك مَن يخلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٢)، فتضطرب فطرتهم، فيصيبون من الكمال بقدر طاعاتهم، ويُخطئون الكمال ويصيبون النقص والتسفّل بقدر عصيانهم.

وهناك من أنار قلبه بنور الإيمان، وأتبع ذلك بالعمل الصالح والمسارعة في الخيرات، فهؤلاء أصحاب القلوب المتّقدة التي ترتقي بأنفاسها ـ فضلاً عن أقوالها، فضلاً عن أفعالها ـ إلى أرفع المراتب الكماليّة، وهؤلاء هم أصحاب الفطرة السليمة والقلب السليم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلّا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٩).

إذن لا يوجد إنسانٌ لا يطلب كماله، وإنّما قد يخطئ في مصداقه، والسبب في ذلك هو أنّه لا يسمع أو لا يستمع لصوت الفطرة، فإذا استغرق في غفلته فإنّه سيكون نهباً لمتطلّبات الغرائز التي لا ينتهي نهمها عند حدٍّ، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحجّ: ٣١)، وسبب تلك الغفلة الشديدة هي تراكم الخطايا والذنوب، فكلّ ذنبٍ ـ لاسيّما مع تكراره

والإصرار عليه ـ هو جنايةٌ على نور القلب، وتنجيسٌ لعالم الفطرة؛ قال تعالى: ﴿...بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤).

عوامل احتجاب الفطرة

من هنا يتّضح: أنّ من أعظم أسباب احتجاب الفطرة السليمة: ارتكاب المعاصي والاستغراق فيها، فإنّ الإنسان المستغرق في شهواته سوف يفقد صلته بالله تعالى، وإن صلّى وصام. فصلاته حركاتٌ اعتاد عليها، والصيام انقطاعٌ اعتاده من رضوخه للسلوك الجمعي، فتفقد الصلاة معناها، ويفقد الصوم معناه، وعندئذٍ يفقد الإيمان معناه؛ قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ (مريم: ٥٩)، فهؤلاء أضاعوا حقيقة الصلاة، وصاروا عبيداً لشهواتهم، فهم ممّن تخطّفهم الطير، وهوت بهم ريح الملذّات في مكانٍ سحيقٍ، ومَن خرّ من السماء وغار في ذلك الوادي السحيق، وادي الرذيلة والخطايا، فإنّ عمله المتسفّل لا يقتصر على دفن معالم فطرته فحسب، بل سيعمل على إغواء الآخرين وإفسادهم أيضاً؛ قال تعالى: ﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ (النساء: ٢٧)؛ لأنّهم يطلبون التعويض السلبيّ عمّا فاتهم من الحقّ من خلال إسقاط الآخرين معهم في براثن الرذيلة، وهذه حالاتٌ مستعصيةٌ، يحتاج التعاطي معها لانتشالها من واقعها المرير إلى جهودٍ عظيمةٍ، وقد تخفق الجهود إذا زُيّفت صبغة الله بصبغة الرين.

ولعلّ من أسوأ المعاصي التي تحطّم أركان الفطرة: الاستخفاف بالدين، ومنه الاستخفاف بالقرآن أو الاستخفاف بالمعاد والحساب والعذاب،

وأيضاً منه الاستخفاف بأهل العلم وتحقيرُهم، فذلك من الذنوب التي تسلب التوفيق ـ والعياذ بالله تعالى ـ وإذا سُلب التوفيق من الإنسان حلّت به كارثةٌ عظيمةٌ وطامّةٌ كُبرى.

علماً بأنّ هذا الانحراف والانجراف مهما بلغ فإنّه سيكون عاجزاً عن قتل الفطرة الإلهيّة، لأنّها أصل الخلقة، ولا تبديل لخلق الله، وإنّما هو تزييفٌ لصوت الفطرة بصوت الغواية، وحجابٌ مؤقّتٌ، وسيزول عمّا قريب؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢)، أي: لقد كنت في غفلةٍ ممّا تعاينه اليوم، يوم انتفاء الحُجُب بالموت، فكشفنا عنك غطاءك الذي طالما غطّى فطرتك وقلبك، فزالت الحُجُب والغفلة عنك، فبصرك اليوم قويٌّ شديدٌ كالحديد.

إذن فالانحراف لا يُميت الفطرة ولكن يحجبها؛ يقول السيّد الطباطبائي: «وأمّا الانحراف المشهود عن أحكام الفطرة فليس إبطالاً لحكمها، بل استعمالٌ لها في غير ما ينبغي من نحو الاستعمال، نظير ما ربّما يتّفق أنّ الرامي لا يُصيب الهدف في رميته، فإنّ آلة الرمي وسائر شرائطه موضوعةٌ بالطبع للإصابة إلّا أنّ الاستعمال يوقعها في الغلط»[1].

والخلاصة: الفطرة باقيةٌ على أصلها وفصلها في حبّ الكمال والسعي لبلوغه، ولكنّ الإشكاليّة تكمن في تحديد المصداق. فالخطأ في تعيين المصداق المطلوب حقّاً يؤدّي إلى الانحراف، فيتصوّر البعض أنّ كماله المطلوب هو المال أو الجاه أو السلطان أو الملذّات أو... فيغترف من ذلك الماء الأجاج ظنّاً منه بأنّه عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابه، فلا يزيده الشرب إلّا

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٥ ص٣٣٨.

عطشاً وقرباً من هلاكه[١]؛ قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَثَل الدُّنيا كماء البحر كلّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتّى يقتله**»[٢]، وهكذا تفعل الدنيا بعشّاقها، فتُغيّب الفطرة في بئر الشهوات والخطايا، فتعطّل دواعي الفضيلة، وتنشّط دواعي الرذيلة.

طريق العود للجادّة

لا ينتظر أحدٌ أن تمتدّ له يدٌ لتنتشله من بئر الخطايا إذا لم ينتفض هو على نفسه، وتلك الانتفاضة القدسيّة هي في الأصل صحوةٌ من صحوات الفطرة، وهي صحوٌ بعد ذلك المحو في الظلمة، فتطلق صراخاتها مستغيثةً بما بقي من خيرٍ، فإن حصلت الاستجابة كان لذلك الصراخ وتلك الاستغاثة معنىً وفائدةٌ، وإلّا فإنّه سوف يزداد تسفّلاً، فإنّ عدم الاستجابة لا يعني فوت كمالٍ وحسب، وإنّما هو انكفاءٌ جديدٌ وكبوةٌ جديدةٌ تُلقي به في مساحاتٍ جديدةٍ من الظلمة.

إذن فطريق العودة يبدأ بالتوبة والرغبة الواقعيّة الصادقة في التغيير، وبالتوبة النصوح يكون التائب قد قطع نصف الطريق في مسيرة الإصلاح، ولا فرصة للإصلاح أبداً من دون أن يخطو المذنب تلك الخطوة، خطوة التوبة، وسوف نأتي على موضوع التوبة في درسٍ لاحقٍ إن شاء الله تعالى.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**﴾ (البقرة: ١٣٨)، أي: الزموا دين الله الذي فطركم عليه، فهو فطرته وصبغته، وهو

---

(١) انظر: معرفة الله، مصدر سابق: ج١ ص٣٤.

(٢) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٣٧ ح٢٤، باب (ذمّ الدنيا).

الإسلام[١].

- قال تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ (الشمس: ٨)، وبهذا الإلهام الربّانيّ تتحقّق البصيرة، ولا عذر لمن لم يبصر فجورها فيجتنبه، وتقواها فيلزمه، وهو القائل سبحانه: ﴿**بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾ (القيامة: ١٤).
- قال تعالى: ﴿**...أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ...**﴾ (النحل: ٥٩)، ذلك الدسّ المتردّي في مستنقع المادّة، والعبوديّة العمياء للغرائز، ولا منجي من ذلك كلّه إلّا الاستجابة لصوت الفطرة.
- من روائع كلمات أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام قوله: «**مَن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومَن عمل لدينه كفاه أمر دنياه، ومَن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس**»[٢].

خلاصة الدرس

- بحث الفطرة بحثٌ في أوّليات تكوين الإنسان، فهي أُسّ تكوينه وبُنيانه.
- الفطرة في اللغة: هي الخلقة والإيجاد، ولكنّه إيجادٌ مخصوصٌ.
- للفطرة معنىً عامٌّ: هو الاستعداد المحض، وخاصٌّ: هو الجانب الوجداني في الإنسان، والوجدان هو العقل الباطني.
- فعّاليّة الفطرة ـ تحرير الاستعداد ـ خاضعةٌ إلى ما توفّر لها من مناخٍ.
- في التراث القرآنيّ والروائيّ نصوصٌ كثيرةٌ قد تعرّضت للفطرة الإنسانيّة.

---

(١) انظر: تفسير القرآن، عبد الرزاق الصنعاني: ج١ ص٦٠، تحقيق: مصطفى مسلم، نشر: مكتبة الرشيد، السعوديّة؛ تفسير الطبري، مصدر سابق: ج١ ص٧٩٢؛ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمّد بن أحمد القرطبي: ج٢ ص١٤٤، نشر: مؤسّسة التاريخ العربي، ١٤٠٥هـ، بيروت؛ الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٣١٢.

(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٩٩، الحديث رقم (٤٢٣).

- من المعاني الروائيّة للفطرة: (معرفة الله؛ التوحيد؛ الإسلام؛ الإخلاص).
- مجموعة معاني الفطرة: (أصل الخلقة؛ الاستعداد؛ معرفة الله بصفته خالقاً؛ التوحيد؛ الإسلام؛ الإخلاص)، تقدّم حقيقةً معرفيّةً ومعنويّةً.
- السبب الحقيقيّ للاختلاف في تشخيص الهدف ـ رغم وجود الفطرة ـ يرجع إلى اختلاف درجات الاستجابة لنداءات الفطرة.
- من أعظم أسباب احتجاب الفطرة: ارتكاب المعاصي والاستغراق فيها.
- المستغرق في وادي المعاصي غالباً ما يعمل على إغواء الآخرين وإفسادهم.
- من أسوأ المعاصي التي تحطّم أركان الفطرة: الاستخفاف بالدين والقرآن.
- مهما بلغ الانحراف فلن يؤدّي لقتل الفطرة، فهي خلقةٌ ولا تبديل لها.
- شدّة الانحراف تعمل على تغطية الفطرة وتعطيل دورها.
- الخطأ في تعيين المصداق المطلوب حقّاً، يؤدّي إلى الانحراف.
- طريق العودة من الخطايا يبدأ بالتوبة والرغبة الصادقة في التغيير.
- بالتوبة النصوح نقطع نصف الطريق في مسيرة الإصلاح.

مذاكرة

- ما هو أُسّ تكوين الإنسان وأُسّ بُنيانه؟
- ما هو معنى الفطرة؟ وما هو المعنى العامّ والخاصّ لها؟
- إلى أيّ شيءٍ تخضع فعاليّة الفطرة (تحرير الاستعداد المحض)؟
- ما هي المعاني الروائيّة للفطرة؟
- ما الذي تقدّمة مجموعة معاني الفطرة؟
- ما هو سبب الاختلاف في تشخيص الهدف رغم وجود الفطرة؟
- ما هو السبب الحقيقيّ للاختلاف في تشخيص الهدف؟

- ما هو أعظم أسباب احتجاب الفطرة السليمة؟
- لماذا المستغرق في وادي المعاصي يعمل على إغواء الآخرين وإفسادهم؟
- ما هي أسوأ المعاصي التي تحطّم أركان الفطرة؟
- هل يمكن أن تموت الفطرة الإنسانيّة أو تتبدّل؟
- إلى أيّ شيءٍ يؤدّي الخطأ في تعيين المصداق المطلوب؟
- ما هو طريق العود للجادّة؟ ومن أين يبدأ طريق العودة؟
- متى نقطع نصف الطريق في مسيرة الإصلاح؟

الدرس الثاني

إصلاح النفس

- أهداف الدرس
- تمهيد
- أهميّة إصلاح النفس
- أهداف الدعوة القرآنيّة لإصلاح النفس
- غفلة الإنسان عن إصلاح نفسه
- دور العزلة في إصلاح نفسه
- إمكانيّة التغيير مع اختلاف درجات القبول
- الخطوة الأولى في طريق إصلاح النفس
- أهميّة الاستعانة بالله تعالى لتحقيق الإصلاح
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان معنى الإصلاح وأهمّيّته.
- تحديد أهداف القرآن في دعوته لإصلاح النفس.
- بيان كون التوبة ليست علّةً تامّةً في إزالة الآثار السلبيّة للذنوب.
- بيان معنى العزلة في فترة النقاهة والتطهير.
- بيان حدود إمكانيّة التغيير ومساحتها.
- تحديد الخطوة الأولى في طريق الإصلاح.

تمهيد

تبيّن لنا معنى الفطرة الإنسانيّة، وكيف يمكن أن تتعرّض للتغييب، ومن الدوالّ على وقوع هذا التغييب ـ بنسبٍ مختلفةٍ ـ اختلافنا في درجة سماع صوت الفطرة، واختلافنا في درجة الالتفات لصوت الفطرة المسموع، واختلافنا في درجات الاستجابة لذلك الالتفات لذلك الصوت المسموع، وهذا ما يجعل حراكنا في الدنيا مختلفاً أيضاً، فقد يكون حراكاً دنيويّاً، وقد يكون حراكاً خليطاً من الدنيا والآخرة، وقد يكون أخرويّاً.

فمَن منّا كلُّ حراكِه أخرويٌّ في الدنيا؟ قد نكون كذلك في موارد، ولا نكون كذلك في موارد أخرى، فالنفس الأمّارة بالسوء لازالت تنبض بين جنبينا، ومَن منّا يُبرّئ نفسه؟ ولذلك فالمحصّلة هي السعي والعمل للإصلاح، وخير الإصلاح إصلاح النفس، أو قل: إصلاح ذات البين؛ قال تعالى: ﴿**وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ (الأنفال: ١)، حتّى أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام في وصيّته لولديه

الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام قد ركّز كثيراً على هذا الإصلاح بقوله لهما: «**أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومَن بلغه كتابي: بتقوى الله ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإنّي سمعت جدّكما صلّى الله عليه وآله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام**»(١).

بيان معنى الإصلاح

الإصلاح في اللغة: نقيض الإفساد، والصلاح: ضدّ الفساد، وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه، ويُقال لغير المفسد: رجلٌ صالحٌ في نفسه، من قومٍ صلحاء، ومصلحٌ في أعماله وأموره(٢).

وفي الاصطلاح قيل: هو الإتيان بما ينبغي، والتحرّز عمّا لا ينبغي(٣)، وقيل: هو صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنّ صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله، ولا يتمّ ذلك إلّا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمّة خير أمّةٍ أُخرجت للناس، قال الله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ (آل عمران: ١١٠)(٤)، وقيل: هو الغاية من إرسال الرسل إلى

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص٧٦.

(٢) انظر: الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، إسماعيل بن حمّاد الجوهري: ج١ ص٣٨٤، تحقيق: أحمد بن عبد الغفور عطّار، نشر: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ، الطبعة الرابعة، بيروت؛ لسان العرب، مصدر سابق: ج٢ ص٥١٦.

(٣) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي الحسيني البغدادي: ج٧ ص٢٧٩، المقابلة والتعليق: محمّد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، بيروت.

(٤) انظر: السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة، أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة

الناس[1]، كما في قول شعيبٍ عليه السلام لقومه المفسدين: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨)، وقيل غير ذلك، وهي تعاريف جيّدةٌ ولكنّها لم تمسّ حقيقة الإصلاح المنظور، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما وسيلة الإصلاح وليسا الإصلاح نفسه، وإرسال الرسل هدفه الإصلاح وليس هو الإصلاح نفسه، والإتيان بما ينبغي والتحرّز عمّا لا ينبغي توصيفٌ من بعيدٍ للإصلاح، ولذا فالأنسب أن نقول في الإصلاح: العمل على تصحيح ما وقع من خطأٍ، وأمّا إصلاح النفس: فهو العمل المسبوق بعلمٍ، على دفع ما يُفسد النفس، ورفع ما لوّثها من إثمٍ وظلمةٍ وجهلٍ؛ للوصول بها إلى الفطرة الأولى.

بيان أهميّة إصلاح النفس

إنّ النفس الإنسانيّة مطمعٌ لحبائل الشيطان، ففيها قوىً سهلة الخداع؛ لأنّها قوىً عمياء لا تبصر غير كمالها المادّي، كما هو الحال في القوّة الحيوانيّة والقوّة السبعيّة، فتكون النفس بوّابة الدخول لتشويه وتلويث صفاء الفطرة، وهذا أمرٌ واقعٌ لكثيرٍ من الناس، بل واقعٌ لأكثرهم، فتنشأ الحاجة للعلاج المستمرّ؛ لأنّ اقتحام هذه القوى النفسانيّة مستمرٌّ ما دامت الحياة، كما تنشأ حاجةٌ ملحّةٌ للتوقّي من ذلك الاختراق بدلاً من صبّ الاهتمام على علاجه بعد الوقوع،

الحرّاني: ص٨٧، نشر: دار المعرفة، بيروت.

(١) انظر: معالم التجديد والإصلاح الراشديّ على منهاج النبوّة، علي محمّد محمّد الصلابي: ص١٧، مقدّمة الكتاب.

والوقاية أيسر وأجدى وأسرع، ولذا فهي خيرٌ من العلاج، فإذا ما غفلنا عن الوقاية والعلاج معاً فإنّنا سنكون صرعى للشهوات والملذّات ولو بعد حينٍ.

إذن لابدّ من القيام بعمليّة إصلاح النفس ووقايتها من التلوّث والتشويه، ولا توجد طرقٌ أخرى أو حلولٌ أخرى، وما لم نتّخذ خطوة الإصلاح لما وقع، وخطوة التوقّي ممّا يمكن له أن يقع، فإنّنا سنكون في مهبّ الريح، تلك الريح العاصفة العاتية التي تغيب فيها الملامح، ولا يبقى من الإنسان إلّا عينٌ ممزّقةٌ من الداخل.

ولذا صار من الضروريّ العمل على إصلاح النفس، ونحن نجد أنّ الفطرة السليمة والعقل والقرآن الكريم والسنّة الشريفة، كلّ ذلك يدعو لإنقاذ الإنسان نفسه، لأنّها تدعو للكمال والتكامل، وتنبذ النقص والتسافل، ولذا فإنّ لسان الآية الكريمة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ (التحريم: ٦): هو لسان الفطرة والعقل والسنّة الشريفة، كما أنّ (الوقاية خيرٌ من العلاج): هو لسان الجميع، لسان النصّ والعقل والعقلاء.

من هنا يتّضح: أنّ إصلاح النفس يمثّل ضرورةً إنسانيّةً لإنقاذ الإنسان من الهلاك المبين، وهذا العمل الإصلاحيّ هو هدف الجميع وغايتهم، وهو هدفٌ نبيلٌ وغايةٌ نبيلةٌ، سيكون من خلالها الإنسان إنساناً.

ثمّ إنّ على الإنسان المسارعة في عمليّة الإصلاح الذاتيّة، لأنّ الأخلاق الذميمة ومطلق صور التلوّث المعنويّ، يسهل التخلّص منها ما دامت أحوالاً، ويعسر التخلّص منها إذا أصبحت ملكاتٍ، وقد يستحيل التخلّص منها إذا أصبحت مقاماتٍ؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً**﴾ (الفرقان: ٦٦)، والمستقرّ والمقام اسما مكانٍ من الاستقرار والإقامة، فلا مغادرة منه إلّا بأمرٍ

معجزٍ، وهنا تكمن الخطورة العظيمة، فالمقامة في عالم المعاصي، والرين القلبيّ نهاياتٌ مميتةٌ للقلب، وتطويقٌ وتجميدٌ تامٌّ للفطرة، ولذلك لا ينبغي الوقوع في التسويف والتأخير، ففي ذلك غفلةٌ كبرى عن استفحال الذنوب، وتحوّلِها من أحوالٍ إلى ملكاتٍ، ومن ملكاتٍ إلى مقاماتٍ، وعندئذٍ يقع الخسران المبين، ولذا لابدّ من المسارعة ثمّ المسارعة، كما هو الحال في معالجة الأمراض الخبيثة والمستعصية، فإنّها يمكن تداركها بالعلاج الناجع في أوّل أوانها، وقد تتعسّر في حالاتٍ متطوّرةٍ منها، وقد يستحيل علاجها في مراحلها الأخيرة.

أهداف الدعوة القرآنيّة لإصلاح النفس

تناول القرآن الكريم موضوع النفس وتزكيتها، من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس: ٧ـ١٠)، والظاهر من هذه الآيات في بيانها أنّها لا تتعدّى طور النفس، بمعنى أنّها تعتبر النفس مخلوقاً سويّاً، قد لحقتها التوصيفات، فهي التي أضيف إليها الفجور والتقوى، وهي التي تزكّى وتدسّى، وهي التي يفلح فيها الإنسان ويخيب، وهذا كما عرفت جرى على مقتضى التكوين.

وما نريد التعرّض له في المقام ـ انطلاقاً من هذه الآيات الكريمة وغيرها ـ هو بيان أهداف القرآن في دعوته لإصلاح النفس، فإنّها ثلاثةٌ: هدفٌ دنيويٌّ، وهدفٌ أخرويٌّ، وهدفٌ مشتركٌ، وتفصيلها كالتالي:

١. الهدف الدنيويّ

إنّ إصلاح النفس يجعل من الإنسان إنساناً سويّاً، والإنسان السويّ هو البذرة الصالحة في المجتمع، والقدر المُتيقّن منه: هو أنّ الناس في مأمنٍ من شرّه، بل هو من بُناة الأرض وعمّارها، ويكون كالعملة الصعبة، عزيزاً

ومطلوباً، فهو ممّن تنتفع الأرض به، ومطلوبٌ بقاؤه؛ قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ (الرعد: ١٧)، وقد ورد عن الإمام جعفرٍ الصادق عليه السلام أنّه قال: «**أيّما ثلاثة مؤمنين اجتمعوا عند أخٍ لهم، يأمنون بوائقه، ولا يخافون غوائله، ويرجون ما عنده...**»[1].

على أنّ هذا الهدف المشترك هو تعبيرٌ آخر عن حقّ الإنسان على أخيه الإنسان، وحقّ المجتمع على الإنسان، وهذه الحقوق ليست تبرّعيّةً وإنّما هي حقوقٌ واقعيّةٌ تفرضها طبيعة التعايش، بقطع النظر عن المقاصد الأخرويّة، فإنّ الحقوق الحياتيّة العامّة وإن كانت ملحوقةً بالآثار الأخرويّة، إلّا أنّ هذا اللحاظ له طابعٌ فرديٌّ، بخلاف تلك الحقوق العامّة فإنّها ذات طابعٍ اجتماعيٍّ، وهي مطلوبةٌ من كلّ فردٍ، سواءٌ كان يطلب بها ذلك الأثر الأخرويّ أم لم يطلبه، وهذه من أهمّ مفردات الأخلاق الواقعيّة المنظورة لنا، التي ننظر فيها صلاح الإنسان والمجتمع، وأمّا القضيّة الأخرويّة فإنّها تكاد أن تشكّل مطلباً فرديّاً، فما يهمّني من أخي الإنسان في معايشته لي هو الجانب السلوكيّ، وليس مستقبله الأخرويّ، فذلك الجانب السلوكيّ هو المشترك بيننا، وأمّا مستقبله الأخرويّ فسوف يعيشه بمفرده، فلا أنتفع بحسناته، ولا أتضرّر من سيّئاته؛ قال تعالى: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً**﴾ (الإسراء: ١٣).

٢. الهدف الأخروي

وهو ما أشير له بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ**

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٧٨ ح١٤. والبوائق: جمع البائقة، وهي الداهية والشرّ، ويقرب منه الغائلة.

﴿نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم: ٦)، ووقاية النفس من النار لا تكون بغير إصلاحٍ مسبقٍ لها، فالنفوس الملوّثة غير مؤهّلةٍ لدخول الجنّة، وبالتالي فإنّ العملَ على إصلاح النفس له ثمنٌ أخرويٌّ عظيمٌ، وهو الوقاية من النار والدخول إلى الجنّة، وقد أوصى الإمامُ موسى الكاظم عليه السلام هشامَ بن الحكم بوصايا كثيرةٍ، منها: «**وإنّ أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً، أما إنّ أبدانكم ليس لها ثمنٌ إلّا الجنّة، فلا تبيعوها بغيرها**»[١].

٣. الهدف المشترك

أمّا الهدف المشترك فهو نيل الفلاح في الدنيا والآخرة، وهذا ما نستفيده من الإطلاق في قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس: ٩ـ١٠)، أي: قد أفلح من أصلحها، وقد خاب من أفسدها وأغواها[٢]، والفلاح والإنجاح هو التميّز بعينه في الدارين، حيث عيش الكرامة في دار الإقامة والمقامة[٣].

وهو الفلاح بتزكية النفس وتطهيرها[٤]، ففي الدنيا يكون الإنسان

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج١ ص١٩ ح١٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري، مصدر سابق: ج٣٠ ص٢٦٦ ح٢٨٩٦٤، وح٢٨٩٧٢.

(٣) دار الإقامة هي دار الدنيا، حيث يقيم فيها الإنسان مدّة عمره ثمّ تنتهي إقامته فيها، وأمّا دار المقامة فهي الآخرة، وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**﴾ (فاطر: ٣٥)، فهي دار البقاء والخلود الأبدي، حيث لا تعب ولا إعياء، ولا همّ ولا غمّ.

(٤) انظر: تفسير القمّي، لأبي الحسن عليّ بن إبراهيم القمّي: ج٢ ص٤٢٤، تصحيح: السيّد طيب الجزائري، نشر: مؤسّسة دار الكتاب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، قم؛ الأصفى في

إنساناً واقعيّاً لا أن يكون باطنه مخالفاً لظاهره، فيكون وحشاً كاسراً، أو كما جاء في وصف أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام لهذا التناقض بين الظاهر والباطن بقوله: «**فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتّبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه**»(١).

وأمّا في الآخرة فنتيجة التزكية والتطهير هي الخلاص الأبديّ من الآلام والأوهام والريبة والخوف، والكينونة في الحياة الطيّبة؛ ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ (النحل: ٩٧). حياة جاء وصفها في أروع ما يكون في قوله تعالى: ﴿**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (التوبة: ٧٢).

غفلة الإنسان عن إصلاح نفسه

إنّ الغفلة عن إصلاح النفس تعني الاستغراق في عالم التسفّل؛ قال تعالى: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ (التين: ٥)، ولعلّ ممّا يغفل عنه الإنسان: ما خلّفه من تبعات الماضي؛ ظنّاً منه أنّ التوبة تكفي في محو آثار الماضي، ولكنّ هذا الأمر ليس بصحيحٍ، فالآثار السلبيّة تحتاج إلى جلي وتطهيرٍ، والتوبة ليست إلّا شرطاً في إزالتها وليست علّةً تامّةً في ذلك.

وهنا ينبغي أن يُعلم: أنّ الغفلة عن تحصيل الكمال تعني الغفلة عن إصلاح النفس، فإصلاح النفس لا ينحصر بالتخلّص من الموبقات والعمل على تطهير القلب من براثن الماضي، وإنّما لابدّ من تحصيل الكمال والعمل

تفسير القرآن، محمّد حسين الفيض الكاشاني: ج٢ ص١٤٤٧، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، مطبعة: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص١٥٣.

على الكينونة في ذلك، فإنّ الإنسان في كلّ لحظةٍ تمرّ عليه لا يحصل فيها على كمالٍ جديدٍ يرتقي به فهو في تسفّلٍ، وفقاً لفلسفة الكمالات الإلهيّة التي لا تعرف التوقّف على مرتبةٍ، سواءٌ كانت باتّجاه الكمال أو باتّجاه النقص.

إذن فالغفلة عن الإصلاح تارةً تكون عن الخطايا والموبقات، وتارةً تكون عن تحصيل الكمالات والرقيّ، ولا ريب أنّ تحصيل الكمال والرقيّ موقوفٌ على نبذ الموبقات وترك عالم الخطايا، فإنّ الخطايا هي سُلّمٌ نزوليٌّ تمضي بصاحبها إلى بحرٍ عميقٍ لا قعر له، كما أنّ الرقيّ في سلّم الكمالات يرتقي بصاحبه إلى مقاماتٍ لا حصر لها، وأسوأ من الغفلة نفسها: غفلة الإنسان عن غفلة نفسه، فيكون كالجاهل بجهله، وهذا هو المرض الوبيل الذي لا يبرأ منه الإنسان إلّا بتعرّضه إلى صدمةٍ عنيفةٍ، وهذه الصدمات الإصلاحيّة لا ينبغي التعويل عليها لأنّها نادرة الحصول.

دور العزلة في إصلاح النفس

وهنا ينبغي أن نسأل عن بيئة إصلاح النفس، فهل يقتضي ذلك منّا العزلةَ عن الناس، والعيش في الوحدة؟

الجواب فيه تفصيلٌ؛ فإنّ المريض عادةً ما يوضع في بيئةٍ نقيّةٍ في فترة العلاج والنقاهة، وفي المقام يوجد شبهٌ إلى حدٍّ ما، فالمريض بالأمراض المعنويّة عليه أن يجنّب نفسه في فترة التزكية والتطهير ـ فترة التخلية ـ من أمراضه المعنويّة من ملاقاة الناس المرضى مثله، أمّا أصحاب القلوب الطاهرة السليمة فعليه أن يُكثر من اللقاء بهم، فلذلك آثارٌ وضعيّةٌ إيجابيّةٌ عليه.

مثلاً: عندما يريد الإنسان أن يتخلّص من عادة الكذب أو الغيبة أو الرياء، فليس له أن يلتقي بأصدقاء معروفين لديه بهذه الأمراض، وأمّا

الأشخاص المعرفون لديه بالصدق وحفظ حرمات المؤمنين ولا يطلبون المحبوبيّة في قلوب الناس فله أن يلتقي بهم، بل عليه أن يحرص على اللقاء بهم؛ لما عرفنا من أثرهم الإيجابيّ، ولعلّهم يختصرون عليه الطريق، فإنّ الإنسان قد يتغيّر بكلمةٍ طيّبةٍ أو بفعلٍ صالحٍ، وبالتالي فإنّ العزلة إنّما تكون عن الأشخاص الموبوئين، وليس من المناسب شمولها لَمن زكت نفوسهم وعلت هممهم، فهؤلاء هم بمثابة الدواء الناجع لكثيرٍ من الأمراض المعنويّة، ولكن يبقى هنالك سؤالٌ ينبغي أن نجيب عنه، وهو أنّ عمليّة إصلاح النفس ضروريّةٌ ومطلوبةٌ لكلّ أحدٍ، فهل هذا الإصلاح المطلوب ممكنٌ لكلّ أحدٍ؟

بعبارةٍ أخرى: ما هي حدود إمكانيّة التغيير، مع كوننا نختلف بعضنا مع بعضٍ بمساحة الاستعداد ومساحة القبول بالتغيير؟

إمكانيّة التغيير مع اختلاف درجات القبول(١)

لا ريب بإمكانيّة التغيير، وإنّما الكلام في مساحات التغيير، فإنّ دعوى عدم قبول الأخلاق الإنسانيّة للتغيير مطلقاً وبنحو السالبة الكلّيّة، أمرٌ لا توافق عليه الآيات القرآنيّة والروايات الواردة في المقام، مضافاً إلى التجربة الخارجيّة، وقد مرّ بنا قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس: ٩ـ١٠)، فإنّ هاتين الآيتين تؤكّدان حقيقةً مهمّةً وهي: أنّ بإمكان الإنسان أن ينمّي نفسه ويكمّلها من خلال طلبه للأخلاق الحسنة، وإلّا لو لم

---

(١) إنّ أصل السؤال عن هذا المطلب فرضته طبيعة الدرس، وأمّا الجواب عنه فقد استفدناه من كتاب (مقدّمة في علم الأخلاق، للسيّد الأستاذ الحيدري: ص٧٣ فما بعد، نشر: دار فراقد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، قم المقدّسة).

يكن ذلك مقدوراً له، لما أشارت الآيتان إلى فلاح مَن يزكّي نفسه وخيبة مَن يدسّها.

قال الآلوسي في تفسيره لآية التزكية: «جُعل فيه العبد فاعل التزكية بالتقوى والتدسية بالفجور، لأنّ الإسناد يقتضي قيام المسند، ويكفي فيه المدخليّة المذكورة، ولا يتوقّف صحّة الإسناد حقيقةً إلى العبد على كون فعله الإيجاد، فالاستدلال بهذا الإسناد على كونه متمكّناً من اختيار ما شاء من الفجور والتقوى، وإيجاده إيّاه بقدرةٍ مستقلّةٍ فيه، على خلاف ما يقوله الجماعة ليس بشيءٍ»[(١)].

ولا يخفى أنّ جميع الروايات الحاثّة على التخلّق بالأخلاق الحسنة هي أدلّةٌ أو شواهد على إمكانيّة التغيير، كما في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[(٢)]، حيث قرن صلّى الله عليه وآله بعثه بذلك، بمعنى: أنّه جعل إتمام مكارم الأخلاق هو علّة بعثته. ومن الروايات الأخرى المنسوبة إليه صلّى الله عليه وآله: «**تخلّقوا بأخلاق الله**»[(٣)]، وغيرها.

---

(١) روح المعاني، مصدر سابق: ج٣٠ ص٥٠٥.

(٢) الحديث المشهور هو بالصيغة أعلاه، وقد ورد بصيغٍ أخرى، مثل «**إنّما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**». انظر: المصنَّف، لابن أبي شيبة الكوفي: ج٧ ص٤٤٠ ح١٣٥، ضبطه وعلّق عليه: الأستاذ سعيد محمّد اللحّام، نشر: دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، بيروت؛ السنن الكبرى، للمحدّث الحافظ أحمد بن الحسين بن علي البيهقي: ج١٠ ص١٩٢، نشر: دار الفكر، بيروت؛ الأدب المفرد، محمّد بن إسماعيل البخاري: ص٦٧، رقم (٢٧٣)، نشر: مؤسّسة الكتب الثقافيّة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، بيروت؛ مكارم الأخلاق، للحافظ ابن أبي الدنيا: ص٦، تحقيق وتعليق: مجدي السيّد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

(٣) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، للعلّامة الشيخ محمّد باقر المجلسي:

وقد قيل من قبل بأنّ التجربة أكبر برهانٍ، وفي المقام فإنّ التجربة واضحةٌ لا غبار عليها في إمكان التغيير وحصوله.

جدير بالذكر: أنّ التخلّق بأخلاق الله تعالى وبأخلاق النبيّ صلّى الله عليه وآله هو التحقّق والاتّصاف بحقيقة ذلك الخلق، لا العلم المفهوميّ بمعناه، وبعبارةٍ أخرى ليس التخلّق الصوريّ، وإنّما هو التخلّق الواقعيّ.

إذن فالتغيير ممكنٌ، بل وواقعٌ أيضاً، وكيف لا يكون ذلك ممكناً وواقعاً وهو واقعٌ للحيوان نفسه فكيف بالإنسان! قال الغزالي: «وكيف يُنكر هذا ـ أي تغيّر الخُلُق ـ في حقّ الآدميّ، وتغيير خلق البهيمة ممكنٌ، إذ يُنقل البازي من الاستيحاش إلى الأُنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدّب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكلّ ذلك تغيير الأخلاق»(١).

وأمّا بالنسبة لمساحات التغيير فلا ريب في كونها مختلفةً من شخصٍ لآخر، فالاستعدادات للتغيير مختلفةٌ، والرغبة في ذلك متفاوتةٌ، كما أنّ العمل على نفس التغيير هو الآخر مختلفٌ.

إذن حيث إنّ الناس ليسوا على درجةٍ واحدةٍ، بل هم يختلفون شدّةً

ج٥٨ ص١٢٩، باب (٤٢)، نشر: مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، بيروت؛ مستدرك الوسائل، للميرزا حسين النوري الطبرسي: ج٩ ص٥ ح١٠٠٣٨، باب (٩٥)، نشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ؛ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين محمّد الرازي: ج٣ ص٦٤، منشورات محمّد علي بيضون، الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، بيروت.

(١) إحياء علوم الدين، محمّد بن محمّد الغزالي: ج٣ ص٥٦، صحّحه: محمّد بن مسعود الأحمدي، نشر: مؤسّسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، بيروت.

وضعفاً، فإنّ انعكاسات التغيير ستكون كذلك، وبالتخلّق الحسن والتأديب والمراقبة الحثيثة يمكن أن تتبدّل أخلاق المسيء نحو الأفضل؛ قال أرسطو طاليس: «يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب، إلّا أنّ هذا ليس كلّياً، فإنّه ربّما أثّر في بعضهم بالزوال، وفي بعضهم بالتقليل، وربّما لم يؤثّر أصلاً»[1].

ولعلّ السبب في ذلك: هو مدخليّة المزاج في الصفات، فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعدّةٌ لبعض الأخلاق، وبعضها مقتضيةٌ لخلافه، ولذا فإنّ بعض الأشخاص ـ بحسب جبلّته ـ لو خُلّي عن الأسباب الخارجيّة، يغضب ويخاف ويحزن بأدنى سببٍ، ويضحك بأدنى تعجّبٍ، وبعضهم بخلاف ذلك[2].

وعليه فإذا اعتدل مزاج الإنسان تهذّبت أخلاقه بيسرٍ؛ لما لاعتدال المزاج من أثرٍ في ذلك. وكلّما كان المزاج أقرب إلى الاعتدال، كان الشخص أكثر استعداداً لقبول الملكات الفاضلة العلميّة والعمليّة[3].

وقد أشار القرآن الكريم إشارةً لطيفةً إلى اختلاف الاستعدادات والقابليّات، كقوله تعالى: ﴿**أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾ (الرعد: ١٧ـ١٨)؛ قال الطباطبائي: «فإنّ الوجود النازل من عنده تعالى على

(١) نقلاً عن: جامع السعادات، محمّد مهدي النراقي: ج١ ص٥٨، تحقيق وتعليق: السيّد محمّد كلانتر، تقديم: الشيخ محمّد رضا المظفّر، منشورات مطبعة النعمان، النجف الأشرف.

(٢) جامع السعادات، مصدر سابق: ج١ ص٤٥.

(٣) انظر: أربع رسائل، للشيخ أبي على ابن سينا، بتحقيق الأهواني: ص١٩٧، الطبعة الأولى، مصر سنة ١٣٧١هـ؛ نقلاً عن: عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون، للشيخ حسن حسن زاده آملي: ص٢٩٠، العين (١٢)، مؤسّسة انتشارات أمير كبير، طهران.

الموجودات ـ الذي هو بمنزلة الرحمة السماويّة والمطر النازل من السحاب على ساحة الأرض ـ خالٍ في نفسه عن الصور والأقدار، وإنّما يتقدّر من ناحية الأشياء نفسها، كماء المطر الذي يحتمل من القدر والصورة ما يطرأ عليه من ناحية قوالب الأودية المختلفة في الأقدار والصور، فإنّما تنال الأشياء من العطيّة الإلهيّة بقدر قابليّتها واستعداداتها، وتختلف باختلاف الاستعدادات والظروف والأوعية. وهذا أصلٌ عظيمٌ يدلّ عليه أو يلوّح إليه آياتٌ كثيرةٌ من كلامه تعالى»(١).

كما أنّ السنّة الشريفة قد أشارت إلى التنوّع والاختلاف، فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة، خيارهم في الجاهليّة خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»(٢).

الخطوة الأولى في طريق إصلاح النفس

إنّ أوّل خطوةٍ في طريق الإصلاح تكمن في الاعتراف بالخطأ والإقرار بالذنوب، فذلك ضروريٌّ جدّاً وسوف يختصر الطريق أمام مَن يريد الإصلاح، وأمّا مَن يعيش الشخصيّة المستكبرة وغير المبالية بما وقع منها، فإنّه لن يوفَّق للإصلاح أبداً؛ فإنّ آفة الإصلاح هي الكبر والغطرسة والعجرفة، ولا سبيل للإصلاح إلّا بالتخلّص من الأنفة والكبر، علماً بأنّ هذه الأمراض العويصة غالباً ما تجعل صاحبها ممّن تأخذهم العزّةُ بالإثم،

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١١ ص٣٣٨.

(٢) صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٤ ص١٢٢، ص١٥٤؛ صحيح مسلم، مسلم بن الحجّاج بن مسلم النيسابوري: ج٧ ص١٨١، نشر: دار الفكر، بيروت؛ وقريبٌ منه في: الروضة من الكافي، للشيخ محمّد بن يعقوب الكليني: ج٨ ص١٧٧ ح١٩٧، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، قم المقدّسة.

ومَن أخذته العزّة بالإثم ازداد طغياناً.

لذا فللتحرّك نحو الإصلاح لابدّ من الإقرار بالذنب والتقصير، وهذا الأمر مطلوبٌ حتّى لِمَن أصلحوا أنفسهم فكيف بالآخرين؟

وهذا ما سيفتح أمامنا موضوعاً آخر في غاية الأهمّيّة، وهو موضوع التوبة، الذي سنقف عنده في درسٍ قادمٍ بإذنه تعالى، كما سنقف في درسٍ آخر على بياناتٍ أخرى في ما يتعلّق بخطوات إصلاح النفس، حيث سنُبيّن هنالك أهمّ مقدّمات إصلاح النفس(١).

أهميّة الاستعانة بالله تعالى لتحقيق الإصلاح

روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا نزل قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس: ٧ـ١٠)، وقف ثمّ قال: «**اللَّهُمَّ آتِ نفسي تقواها، أنت وليّها ومولاها، وزكّها وأنت خير من زكّاها**»(٢).

---

(١) في الدرس الرابع والخامس من هذا الكتاب.

(٢) السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي: ج٤ ص٤٤٤، تحقيق: الدكتور عبد الغفّار سليمان البنداري وسيّد كسروي حسن، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، بيروت؛ مصنّف ابن أبي شيبة الكوفي، مصدر سابق: ج٧ ص١٧ ح٤؛ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيّوب اللخمي الطبراني: ج٥ ص٢٠١، ج١١ ص٨٧، تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، طبع: دار إحياء التراث العربي، نشر: مكتبة ابن تيميّة، الطبعة الثانية، القاهرة؛ تفسير القرطبي، مصدر سابق: ج٢٠ ص٧٦؛ تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي: ج٤ ص٥٥٢، تقديم: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشي، نشر: دار المعرفة، طبعة عام ١٤١٢هـ، بيروت؛ سنن النبي صلّى الله عليه وآله للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي: ص٣٤٣، تحقيق: حجّة الإسلام والمسلمين الحاجّ الشيخ محمّد هادي الفقهي، طبع ونشر: مؤسّسة النشر

إنّ عمليّة إصلاح النفس ليست بالعمليّة اليسيرة أبداً، وإنّما هي عمليّةٌ صعبةٌ وشاقّةٌ وتحتاج إلى وقتٍ وجهدٍ، وحيث إنّ الإنسان سريع الملل والكلل، وقليل الصبر والتحمّل، فإنّه لابدّ له من الاستعانة بركنٍ شديدٍ، يعينه في مسيرته الإصلاحيّة، وليس هنالك سوى الدعاء إلى الله تعالى والتوسّل به، وقد جاء في الحديث القدسيّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**قال الله عزّ وجلّ: يا ابن آدم! اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي... وإن دنوتَ منّي شبراً دنوتُ منك ذراعاً، وإن دنوتَ ذراعاً دنوتُ باعاً**»[1].

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (الأعراف: ٥٦)، فإذا كانت الأرض مُشيرةً إلى نفس الإنسان وبدنه، فعليها رحى حركته، فإنّ المعنى المشار سيكون هو: لا تفسدوا النفس بعد إصلاحها بالفطرة السليمة، وعليكم بإدامة الدعاء؛ فهو وسيلةٌ مثلى لحفظ النفس من التلوّث.

الإسلامي، ١٤١٦هـ، قم المشرّفة؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي: ج٧ ص١٣٨، نشر: دار الكتب العلميّة، ١٩٨٨م، بيروت؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي الفضل بن الحسن الطبرسي: ج١٠ ص٣٧٠، نشر: مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، بيروت.

(١) انظر: المصنَّف، عبد الرزاق الصنعاني (ت: ٢١١هـ): ج١١ ص٢٩٢ ح٢٠٥٧٥، تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، نشر: المجلس العلميّ، بيروت؛ مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل: ج٣ ص١٣٨، نشر: دار صادر، بيروت؛ صحيح البخاري، مصدر سابق؛ ج٨ ص٢١٢؛ الرسائل العشر، للشيخ ابن فهد الحلّي: ص٤١٦، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة، مطبعة سيّد الشهداء عليه السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم.

- كلّ ذنبٍ، يقف وراءه الكذب، ولذا فمفتاح إصلاح النفس سيكون في الكفّ عن الكذب مطلقاً، قولاً وعملاً.

خلاصة الدرس

- النفس الإنسانيّة مطمعٌ لحبائل الشيطان، ففيها قوىً سهلة الخداع.
- لابدّ من إصلاح النفس ووقايتها، وإلّا سنكون عرضةً للتمزّق الداخليّ.
- إصلاح النفس ضرورةٌ إنسانيّةٌ لإنقاذ الإنسان من الهلاك المبين.
- علينا المسارعة في إصلاح نفوسنا؛ لأنّ التلوّث المعنويّ يسهل التخلّص منه ما دام حالاً، ويعسر إذا أصبح ملكةً، ويستحيل عملاً إذا أصبح مقاماً.
- أهداف القرآن في دعوته لإصلاح النفس: دنيويٌّ وأخرويٌّ ومشتركٌ.
- الهدف المشترك: تعبيرٌ آخر عن حقّ أخيك الإنسان والمجتمع عليك.
- ما يهمّني من أخي الإنسان جانبه السلوكيّ، وليس مستقبله الأخرويّ.
- وقاية النفس من النار لا تكون بغير إصلاحٍ مسبقٍ لها، والنفوس الملوّثة غير مؤهّلةٍ لدخول الجنّة.
- نتيجة التزكية والتطهير هي الخلاص الأبديّ من الآلام والأوهام، والكينونة في الحياة الطيّبة.
- التوبة شرطٌ في إزالة الآثار السلبيّة للذنوب وليست علّةً تامّةً في ذلك.
- الغفلة عن الإصلاح تارةً تكون عن الموبقات، وتارةً عن تحصيل الكمال.
- المريض بالأمراض المعنويّة عليه أن يجنّب نفسه ـ في فترة التطهير من أمراضه المعنويّة ـ من ملاقاة الناس المرضى مثله.

- الإنسان قد يتغيّر بكلمةٍ طيّبةٍ أو بفعلٍ صالحٍ، وبالتالي فإنّ العزلة إنّما تكون عن الأشخاص الموبوئين، ولا تشمل مَن زكت نفوسهم.
- لا ريب بإمكانيّة التغيير، وإنّما الكلام في مساحات التغيير.
- مساحات التغيير مختلفةٌ من شخصٍ لآخر، نظراً لاختلاف الاستعداد والرغبة في التغيير.
- أوّل خطوةٍ في الإصلاح تكمن في الاعتراف بالخطأ والإقرار بالذنوب.
- الأمراض العويصة غالباً ما تجعل صاحبها ممّن تأخذهم العزّةُ بالإثم.
- إصلاح النفس ليس يسيراً، ولابدّ له من الاستعانة بالدعاء والتوسّل بالله.

مذاكرة

- كيف تكون النفس الإنسانيّة مطمعاً لحبائل الشيطان؟
- ماذا لو لم نقُم بعمليّة إصلاح النفس ووقايتها من التلوّث المعنويّ؟
- لماذا علينا المسارعة في عمليّة الإصلاح الذاتيّة؟
- ما هي أهداف القرآن في دعوته لإصلاح النفس؟
- عن أيّ شيءٍ يُعبّر الهدف المشترك للقرآن في إصلاح النفس؟
- متى تكون النفوس مؤهّلةً لدخول الجنّة؟
- هل التوبة علّةٌ في إزالة الآثار السلبيّة للذنوب؟
- الغفلة عن الإصلاح عن أيّ شيءٍ تكون؟
- ما الذي يجب على المريض بالأمراض المعنويّة في فترة التطهير؟ أو عمّن ينبغي أن تكون العزلة؟
- ما هي حدود إمكانيّة التغيير، مع كوننا نختلف بعضنا مع بعضٍ

بمساحة الاستعداد ومساحة القبول بالتغيير؟

- هل مساحات التغيير مختلفةٌ من شخصٍ لآخر؟ ولماذا؟
- ما هي أوّل خطوةٍ في طريق الإصلاح؟
- ما هي علاقة الأمراض العويصة بمَن تأخذهم العزّةُ بالإثم؟
- ما هي علاقة الدعاء والتوسّل بالله تعالى، بإصلاح النفس؟

الدرس الثالث

علاقة إصلاح النفس بالمعارف الإلهيّة

- أهداف الدرس
- تمهيد
- تقسيم العلوم والمعارف
- خصوصيّة العلوم والمعارف الإلهيّة
- العلوم والمعارف الإلهيّة بين الحصول والحضور
- طريقيّة المعارف الإلهيّة لإصلاح النفس
- العلاقة المتبادلة بين إصلاح النفس ومعرفة النفس
- إصلاح النفس طريق لمعرفة الربّ سبحانه
- خطورة العلوم والمعارف الصوريّة على السلوك وإصلاح النفس
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان قسمة المعارف.
- بيان خصوصيّة المعارف الإلهيّة وطريقيّتها لإصلاح النفس.
- بيان العلاقة المتبادلة بين إصلاح النفس ومعرفة النفس.
- بيان إصلاح النفس طريقٌ لمعرفة الربّ سبحانه.
- التحذير من خطورة المعارف الصوريّة على السلوك وإصلاح النفس.

تمهيد

بالرغم من أنّ المعارف الإلهيّة تنفتح بالإنسان على مساحاتٍ كبيرةٍ تتجاوز عالم المادّة والحسّ، وأنّها تتحدّث في الكثير من فصولها عن المبدأ والمنتهى، والعالم الآخر، إلّا أنّها أفردت فصولاً مهمّةً للنفس الإنسانيّة، وهذا الإفراد إنّما لوحظ فيه بالدرجة الأساس طبيعة إصلاح النفس وطبيعة العمليّة الوقائيّة، فالنفس ما لم تُصلَح لا يمكن لها أن تنفتح على العلوم الغيبيّة أو الميتافيزيقيّة، ولذلك نجد هنالك صلةً وثيقةً بين المعارف الإلهيّة وإصلاح النفس، وهذا ما يدعونا للتعرّف على المعارف الإلهيّة، وحدود الصلة بينها وبين إصلاح النفس.

تقسيم العلوم والمعارف

تنقسم العلوم والمعارف بشكلٍ عامٍّ إلى علومٍ ومعارف دينيّةٍ وعلومٍ ومعارف غير دينيّةٍ، والدينيّة هي: العقيدة والشريعة والأخلاق المنصوص عليها، وهذه العلوم الدينيّة الأساسيّة محورها الحقيقيّ هو الله تعالى، فعمدة العقيدة هو التوحيد، والتوحيد هو بحثٌ إلهيٌّ خالصٌ، والشريعة وإن كان

المقصود فيها الإنسان، إلّا أنها بلحاظ المشرّع الأساسي فيها، وهو الله تعالى، فإنّها إلهيّةٌ أيضاً، وهكذا الأخلاق النصّيّة، وليست الأخلاق الواقعة ضمن مدركات العقل العمليّ، فإنّ الأخلاق النصّيّة إلهيّةٌ أيضاً، وأمّا العلوم والمعارف غير الدينيّة فإنّها تنقسم إلى قسمين، هما: الإنسانيّة والطبيعيّة.

والعلوم الإنسانيّة تبحث في النتاج البشري المُتعلّق بالإنسان، والذي في ضوئه تشكّلت حضارة الإنسان التي أخذت صوراً وملامح مختلفةً انعكست في حضارات الأُمم وخصوصيّاتها، ومن أهمّ العلوم الإنسانيّة بالمعنى الأخصّ: علم النفس والتأريخ والاجتماع والسياسة والقانون والإدارة والآثار والفنّ وبعض فروع الاقتصاد، وقد تُطلق العلوم الإنسانيّة ويُراد منها المعنى الأعمّ فتدخل علوم اللغة والأدب، وغير ذلك ممّا تتعلّق بإبداع الإنسان.

وعليه فالعلوم الإنسانيّة هي مجموعة تخصّصاتٍ علميّةٍ تدرس الإنسان وأنشطته المعرفيّة، ولذلك تُعتبر رافداً أساسيّاً للتطوّر العلميّ بمختلف مجالاته الأُخرى، بل هي بمجموعها تُمثّل حاجةً إنسانيّةً مُلحّةً لا يُمكن الاستغناء عنها، وأنّ أهمّية العلوم الإنسانيّة تنشأ من أهمّية الإنسان نفسه، وأمّا العلوم الطبيعيّة فموضوعها هو المادّة أو الطبيعة[1].

خصوصيّة العلوم والمعارف الإلهيّة

إنّ رحلة الإنسان لم تبدأ في هذه الدنيا، ولا تنتهي عندها، فهنالك حياةٌ أخرى سننتهي إليها بالقطع واليقين، وهي الحياة الآخرة، والحياة الآخرة

---

(١) يُنظر تفصيل المسألة في: منطق فهم القرآن، الأُسس المنهجيّة للتفسير والتأويل في ضوء آية الكرسي، من أبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، الجزء الأوّل، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: دار فراقد، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ، قم المقدّسة.

هي الحياة الحقيقيّة؛ لأنّها حياةٌ باقيةٌ لا تزول، سواءٌ كانت في نعيم الجنّة، أو في عذاب النار، بالتالي فإنّ العلوم والمعارف التي تركّز على هذه الحياة من دون أن تغفل الحياة الآخرة ستكون هي العلوم الحقيقيّة الواجب تحصيلها، فإنّ العلوم الإنسانيّة والطبيعيّة ـ على أهمّيتها وجلالتها، بل وضرورتها ـ أمدها قصيرٌ، ولا تُلبّي الحاجة الحقيقيّة للإنسان التي تمسّ حياته في الدنيا والآخرة، وإنّما هي علومٌ دنيويّةٌ، ننتفع بها في هذه الحياة، وينتهي أمدها عند ذلك، وأمّا العلوم والمعارف الإلهيّة فإنّها تهدف لتصحيح المسيرة في الحياة وتحقيق أشرف المراتب في الحياة الآخرة، والحياة الحقيقيّة هي حياة العلم والمعرفة، وبهذه العلوم الإلهيّة ستنفتح عين القلب على الحقيقة والصراط؛ قال تعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ (سبأ: ٦). وستنفتح عين القلب على ثواب الآخرة ومقاماتها العظيمة؛ قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**﴾ (القصص: ٨٠)، ولذلك نجد القرآن الكريم يُميّز بين الذين أوتوا العلم وبين مَن سواهم؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ (الزمر: ٩)، وكيف يستوون وفي العلم رفع الدرجات؛ قال تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ (المجادلة: ١١).

إنّ الخصوصيّة العظيمة للعلوم الإلهيّة هي أنّها تقرّب صاحبها من الله تعالى، وتمنحه الرفعة والخير والفضيلة في الدنيا والآخرة، وواحدةٌ من ثمرات العلوم الإلهيّة هي أنّها تجعلك على مقربةٍ من فطرتك الأولى، أي إنّها تساعدك على أن تكون إنساناً واقعيّاً.

العلوم والمعارف الإلهيّة بين الحصول والحضور

تقسّم العلوم والمعارف الإلهيّة إلى قسمين: الحصوليّة والحضوريّة، و«في المعرفة الحصوليّة يكون المعلوم الحاضر لدى العالم به هو صورة الشيء، فهو عالمٌ بالصورة لا بذي الصورة، وذلك هو مبلغ علمه، وأمّا في المعرفة الحضوريّة فإنّ المعلوم الحاضر لدى العالم به هو عين المعلوم لا مجرّد صورته، فهو عالمٌ بذي الصورة لا بالصورة فحسب. والمعرفة الحصوليّة لها أثرٌ عمليٌّ وسلوكيٌّ ولكنّه محدودٌ جدّاً وقد يُعدم أحياناً، بخلاف ما يترتّب على المعرفة الحضوريّة»[1].

ولكنّ معظم فقرات التفقّه في الدين ترتبط بالعلوم الحصوليّة، ولذلك لابدّ من التركيز عليها، فإنّها بوّابة العلوم الحضوريّة، كما أنّ الظاهر هو بوّابة الباطن، ولا يمكن دخول عالم الحقيقة والباطن والحضور من دون التزوّد بالعلوم الحصوليّة، وكفى بالعلوم الحصوليّة شرفاً أن يكون منها علوم الفقه والعقيدة والتفسير والحديث والسيرة والأخلاق.

وأمّا المعارف الإلهيّة الحضوريّة فهي ما تتعلّق بالسير والسلوك وتهذيب النفس، والكشف والشهود، وهي معارف لها شروطٌ كثيرةٌ، غير كونها مشروطةً بحصول التفقّه في الدين بالمعنى الحصوليّ، ولذلك فمن باب التعاطي بالمقدور عليه، لابدّ لنا من التركيز على العلوم الحصوليّة أوّلاً، ولا نترك فرص العمل (على إصلاح النفس) بإصلاح السير والسلوك وتهذيب النفس بالأخلاق الكريمة.

طريقيّة المعارف الإلهيّة لإصلاح النفس

اتّضح: أنّ المعارف الإلهيّة تنقسم إلى حصوليّةٍ وحضوريّةٍ، والحصوليّة

---

(١) معرفة الله، مصدر سابق: ج١ ص١٢٨.

منها تُمثّل طريقاً سويّاً لإصلاح النفس، بمعنى: أنّها تشكّل طريقاً وليس هدفاً بعينه، فنحن لا نتفقّه في ديننا لأجل التفقّه نفسه، وإنّما هنالك غايةٌ أخرى أبعد من ذلك، وهي الوصول إلى الفضائل التي بها يكون الإنسان إنساناً، ولذلك ليس من الصحيح أن تنتهي غاياتنا عند تحصيل العلم نفسه، فإنّ العلم الحصوليّ بجميع أقسامه إذا انتهت عنده غاياتنا فإنّه سوف يتحوّل إلى حجابٍ كبيرٍ يمنعنا من الوصول إلى الفضيلة، وبعبارةٍ أخرى: إنّ العلم الذي لا يُفضي إلى الإيمان والصلاح والإصلاح، مجرّد حجابٍ لا يزيد الإنسان إلّا تكبّراً وتمرّداً، وقد صحّ ما قيل بأنّ العلم الحصوليّ هو بذر المشاهدة للحقيقة، فإن لم يُوصلنا لتلك الحقيقة والفضيلة فإنّنا سنكون متضرّرين بهذا النوع من العلم، ومع هذا فقد جرت طبيعة السنن على أنّ طريق الحقيقة والفضيلة هو العلم الحصوليّ، فلابدّ من تحصيله، مع رعاية الهدف الحقيقيّ والغاية الحقيقيّة.

العلاقة المتبادلة بين إصلاح النفس ومعرفة النفس

إنّ المعرفة الأوّليّة للنفس تساعدنا كثيراً على العمل على إصلاحها، كما أنّ إصلاح النفس هو الآخر سوف يُعمّق معرفتنا بالنفس، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام في كون هذه المعرفة الأوليّة للنفس طريقاً لمجاهدة النفس، وتنقيتها من الجهالات، حيث يقول: «**مَن عرف نفسه جاهدها**»[(١)].

ولذا فنحن نحتاج أن نتعرّف على قوى النفس قبل العمل على إصلاحها، ونفهم أنّ هذه القوى منها ما يحتاج إلى التهذيب والتقييد والردع، ومنها ما

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، جمع: عبد الواحد الآمدي: ص٢٣٢ ح٤٦٣٦، تحقيق: السيّد جلال الدين الآرموري، نشر: جامعة طهران، الطبعة الثالثة.

يحتاج إلى التنمية والتقوية، فالقوى الحيوانيّة في النفس أو الغرائز، أو ما تسمّى بالقوّة البهيميّة والسبعيّة، لابدّ من تهذيبها وتقييدها، وأمّا القوّة العاقلة فلابدّ من تنميتها وتقويتها، وبهذه المعرفة اليسيرة نكون قد اقتربنا من دائرة إصلاح النفس، وإذا مارسنا عمليّاً إصلاح النفس سوف تنفتح علينا المعارف النفسانيّة الجمّة، أي سوف نتعرّف على جوهر النفس ونصل إلى كشف المساحات المجهولة لدينا، وبهذه المعرفة سوف تتاح لنا فرصةٌ عظيمةٌ، وهي قطف ثمار هذه المعرفة النفسيّة بمستوياتها العميقة، فإنّنا بمعرفة النفس سنكون قد اكتشفنا المزيد من معرفة الله تعالى، وقد ورد في الخبر عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[(١)]، وفي خبرٍ آخر عنه عليه السلام يصف فيه حقيقة العارف، حيث يقول: «**العارف مَن عرف نفسه فأعتقها، ونزّهها عن كلّ ما يبعدها ويوبقها**»[(٢)].

ومن الطبيعي أن يكون الجاهل بنفسه جاهلاً بغيره، بخلاف العارف بنفسه، وهذا ما يعطينا زخماً جديداً لمعرفة النفس من خلال إصلاحها أوّلاً،

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي: ج٢٠ ص٢٩٢، رقم (٣٣٩)، نشر: دار إحياء الكتب العربيّة، بيروت؛ شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، للشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني: ص٥٧، طبع ونشر وتصحيح وتعليق: جلال الدين الحسيني الآرموي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة؛ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمّد الليثي الواسطي: ص٤٣٠، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، نشر: دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، قم المقدّسة.

(٢) محاسبة النفس، للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي (ت: ٩٠٥هـ): ص٥٤، تحقيق: الشيخ فارس الحسون، نشر: مؤسّسة قائم آل محمّد عليه السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، قم المقدّسة؛ عيون الحكم والمواعظ ، مصدر سابق: ص٥٣؛ غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: ص٢٤٠ ح٤٨٤١.

فيكون إصلاحها طريقاً لمعرفتها، وطريقاً لمعرفة الله تعالى، وطريقاً أيضاً لمعرفة الآخرين[١]، وهذا ما يحتاج منّا إلى توضيحٍ آخر لطبيعة علاقة معرفة النفس بمعرفة الله تعالى.

إصلاح النفس طريق لمعرفة الربّ سبحانه

إنّ معرفة النفس كالشجرة الباسقة المثمرة، كثيرة الأغصان، متنوّعة الثمر، فمن ثمراتها العظيمة الدخول إلى معرفة الله تعالى، فالنفس تُغري بظاهرها صاحبها، فيظنّ نفسه قائماً بنفسه مستغنياً عمّن سواه، ولكنّه عندما يتحقّق من واقعيّة نفسه سيجدها مستغرقةً في الفقر، وأنّ الفقر هو كنهها وحقيقتها، ومن خلال هذه المعرفة اليسيرة سيفهم أنّ الله تعالى هو الغنيّ وحده، وكلّ مَن سواه سبحانه مفتقرٌ إليه، فإذا علم وتيقّن بفقره، وعلم وتيقّن بغنى الله تعالى وحده، فسوف يؤثّر ذلك كثيراً على مستوى توحيده لله تعالى وعلاقته بالله تعالى، فالفقير المحتاج ـ بحسب السيرة العقلائيّة ـ إنّما يطرق باب الغنيّ، ولا يطرق باب فقيرٍ مثله، ونظراً لكون هذا المعنى العميق له تأثيرٌ عظيمٌ على توحيد الإنسان لربّه، وطبيعة علاقته بربّه، وطبيعة سلوكه وعلاقاته مع الناس، فإنّه يحتاج منّا إلى تأمّلٍ كبيرٍ في خبايا النفس وخفاياها، كما يحتاج منّا إلى بذل قصارى الجهد في تحصيل هذه المعرفة؛ لأنّ ثمرة هذه المعرفة ستكون هي المعرفة الحقيقيّة، وهل بعد معرفة

---

(١) ورد عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في ذلك قوله: «**من عرف نفسه فهو لغيره أعرف**». (غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: ص٢٣٣ ح٤٦٥٤). كما ورد في المعنى المقابل قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ضمن عهده لمالك الأشتر النخعي: «**إنّ الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل**». نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص٩٨، رقم (٥٣).

الله تعالى معرفةٌ أخرى تُطلب؟

وحيث إنّ الإنسان النوعيّ ـ بطبعه المادّي الحاكم في سيره وسلوكه وطريقة تفكيره ـ لا يدرك خطورة هذا الموقف، وجلالة هذه الثمرة، فإنّه ينساق بطبعه المادّي إلى المتاهات الحسّيّة، ويغفل عن تلك النكات المعنويّة المرتبطة بإصلاح النفس وتزكيتها، ونحن ـ ومن منطلقٍ مادّيٍّ أيضاً ـ نقول بأنّ العلماء المادّيين يرون أنّ التجربة هي أكبر برهانٍ، وانطلاقاً من هذا المنطلق المادّي فليجرّب المنساق لمتاهاته الحسّيّة فيقوم بإصلاح نفسه وتزكيتها، ليتحسّس بعدها واقعيّة الطمأنينة والاستقرار النفسيّ والرغبة الجديدة في الحياة، فالحياة نعمةٌ عظيمةٌ ولكن لمن صلُحت نفسه، وإلّا فمَن خبُثت نفسه وتشوّهت فطرته فإنّه لن تطيب له الحياة، كالشخص المحموم الذي لا يتذوّق شيئاً إلّا وغلبته مرارة فمه، فلا يهنأ بطعامٍ ولا بشرابٍ.

إذن الوقوف على فقريّة النفس سيجعل الإنسان مدركاً لواقعيّة الغنيّ وأهمّيته في حياته، وأنّه لا غنى له عن ذلك الغنيّ الحميد؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥)، وما لم يدرك الإنسان واقعيّة فقريّته فإنّه لن يصل إلى شيءٍ، لأنّه سيظنّ الغنى في نفسه أو في غيره من الخلق، فيكون طالباً لواقعٍ موهومٍ ومعدومٍ[(١)]، ويقضي عمره، ويستنفد طاقته في المتاهات الحسّيّة التي لا تنتج معرفةً واقعيّةً عن النفس وعن الله تعالى وعن الآخرين، وهل للسراب أن يروي ظمآنَ؟

---

(١) فيكون ذلك من قبيل أعمال الذين كفروا فلا أجر ولا ثواب عليها، ولا تُنجي من عذاب، فهي كالسراب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩).

وهنالك معنىً عميقٌ يكشف عن وجه الصلة بين معرفة النفس ومعرفة الله تعالى، ويكشف عن سرٍّ من أسرار الخلقة، وهو المعنى الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام بقوله: «**إنّ الله عزّ وجلّ ليس بينه وبين خلقه حجابٌ؛ لأنّه معهم أينما كانوا**»[١]، فكيف لا تتحقّق المعرفة بالله تعالى مع ارتفاع كلّ حجابٍ بينهم وبينه سبحانه؟ وهنا يأتي التوضيح الدقيق من الإمام موسى الكاظم عليه السلام في كون الحجاب المانع والستر الحاجب هو النفس الإنسانيّة، حيث يقول: «**ليس بينه وبين خلقه حجابٌ غير خلقه، احتجب بغير حجابٍ محجوبٍ، واستتر بغير سترٍ مستورٍ، لا إلٰه إلّا هو الكبير المتعال**»[٢].

فالحجاب الأساسيّ بين الإنسان وربّه هو النفس الإنسانيّة، حيث الالتفات الدائم لها، وعدم الانقطاع عنها، فلا مرئيَّ في فكره وسلوكه سوى نفسه، فيظنّ نفسه هو الفاعل الحقيقيّ في كلّ شيءٍ يقوم به، وعلى هذا الفهم القاصر تبتني عقائده ونواياه وسلوكيّاته، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**آفة النفس الوله بالدنيا**»[٣].

وهنا لابدّ من العمل الجادّ على إصلاح هذا التصوّر الخاطئ، ليخرج من عبوديّة النفس، والانعتاق من حالة الاستقطاب المستمرّة لمتطلّباتها، وبالقدر الذي ينفصل فيه الإنسان عن الالتفات للنفس ومتطلّباتها الدنيويّة ـ عادةً ـ فإنّه سيعيش حالةً مختلفةً تماماً، فإذا ما انقطع عنها وصارت نفسه تابعةً لها، وليس العكس، فإنّه سيجد المعادلة مختلفةً تماماً، وسيدرك حدود

---

(١) التوحيد، للشيخ الصدوق، مصدر سابق: ص١٨٤ ح٢١.

(٢) المصدر السابق: ص١٧٨ ح١٢.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: ص١٣٦ ح٢٣٨٥.

تأثيره، ومدخليّة الفاعل الحقيقيّ في نظام الوجود.

يقول الطباطبائي: «الرواية الشريفة تفسّر معنى حصول المعرفة به تعالى معرفةً لا تقبل الجهالة، ولا يطرأ عليها زوالٌ ولا تغييرٌ ولا خطأٌ البتة، فهي توضّح أنّ الله سبحانه غير محتجبٍ عن شيءٍ، إلّا بنفس ذلك الشيء، فالالتفات إلى الأشياء هو العائق عن الالتفات إلى مشاهدته تعالى.

ثمّ حكم عليه السلام أنّ هذا الحاجب الساتر غير مانعٍ حقيقةً، فهو حجابٌ غير حاجبٍ، وسترٌ غير ساترٍ. وينتج مجموع الكلامين أنّه سبحانه مشهودٌ لخلقه، معروفٌ لهم، غير غائبٍ عنهم، غير أنّ اشتغالهم بأنفسهم والتفاتهم إلى ذواتهم حجبهم عن التنبّه على أنّهم يشهدونه دائماً؛ فالعلم موجودٌ أبداً»[١].

وبهذا المعنى العميق سوف تنفتح لنا بوّابةٌ جديدةٌ أمام المعرفة الحقيقيّة التي ينبغي لنا التوصّل إليها والتحقّق بها، وفي ضوء هذه المعرفة سنكتشف ما نحن عليه من ظلمةٍ مطبقةٍ أو ظلمةٍ متناثرةٍ على صفحات القلب والعقل، ونحن في صراعٍ مستمرٍّ، ولا ينتهي هذا الصراع العميق إلّا بالانتصار المؤكّد في رحلة الجهاد الأكبر للنفس، الذي تتحوّل فيه النفس العنيدة الجموح، ولهذا البحث تفاصيل كثيرةٌ وبياناتٌ أخرى لم يأتِ أوانها[٢].

وأمّا انفتاح معرفة النفس على معرفة الغير فإنّها إنّما تكون بواسطة معرفتنا لله تعالى، فمعرفتنا بالنفس طريقٌ لمعرفة الله تعالى، ومعرفتنا بالله تعالى

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٨ ص٢٦٤.

(٢) سيمرّ علينا بعض هذه البيانات في هذا الكتاب، وسيأتي بعضها الآخر ضمن الحلقات الأُخرى من هذه السلسلة (سلسلة الأخلاق التعليميّة).

طريقٌ لمعرفة خلقه، وبالتالي فإنّنا لا طريق لنا لمعرفة الناس إلّا بواسطة معرفة النفس، وهذه المعرفة ليست هي المعرفة الظاهريّة، فأكثر الناس يجهلون خصوصيّات أنفسهم وواقعيّتها ومع ذلك فهم يعلمون كثيراً من ظواهر الأمور، سواءٌ كانت متعلّقةً بهم أم بغيرهم، ولكنّ هذه المعرفة الجيّدة بنفسها ليست هي المعرفة التي تنفتح عليها النفس المزكّاة والفطرة السليمة.

إنّ الواقعيّة التعليميّة التي نقصدها: أن يحصل للإنسان توجّهٌ حقيقيٌّ لتلك المعرفة، فهي المعرفة الحقيقيّة، وهي المعرفة المنتجة، وهي المعرفة التي تترك أثرها على التفكير والسلوك، ونحن إنّما نريد أن نصل إلى هذه المرتبة من التأثير والتغيير، وأيسر طريقٍ وأوضحه هو طريق معرفة النفس الأوّليّة التي تجعلنا نتعرّف على أهمّيّة تزكيتها وتطهيرها، ثمّ إنّ هذه التزكية والتطهير سوف تنتهي بنا إلى تلك الثمرات الجمّة، وإذا لم يجد المزكّي لنفسه شيئاً من تلك الآثار فإنّه بحاجةٍ إلى إعادة النظر في طريق تزكيته، فمن التزكية تزكية النوايا من الدسّ، وإذا استطاع الإنسان تزكية نواياه من الدسّ والشوب يكون قد قطع نصف الطريق في التزكية والتطهير، وربّما أكثر من ذلك، ولأجل هذا التأثير العظيم لتزكية النوايا كانت هذه التزكية من أعقد وأدقّ مراحل جهاد النفس، وهي الأُسّ الحقيقيّ في تزكية النفس، وهي المنطلق الأساسيّ في رحلة التزكية والتطهير، وإنّه لا مجال للارتقاء بالنفس معنويّاً من دون تحقيق هذا الهدف السامي، والذي يكفي في إيجاز أهمّيته ما جاء عن النبيّ صلّى الله عليه وآله فيه، حيث يقول: «**إنّما الإعمال بالنيّات، ولكلّ امرئ ما نوى**»[1]، وسوف نقف عند محطّات تزكية النوايا في

(١) تهذيب الأحكام، لشيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي: ج٤ ص١٨٦ ح٥١٩، تحقيق:

دروسٍ لاحقةٍ من هذه السلسلة[1].

خطورة العلوم والمعارف الصوريّة على السلوك وإصلاح النفس

إنّ جميع العلوم والمعارف الحصوليّة هي علومٌ ومعارف صوريّةٌ، بمعنى أنّها توقفنا على ظاهر الأشياء، وهذا لا يعني القدح بها، أو التقليل من أهمّيتها، فنحن لا يمكن لحياتنا أن تستقيم من دون هذه المعارف الحصوليّة الصوريّة الظاهريّة، ولكنّها لابدّ أن لا تكون هي الهدف بنفسه والغاية، فإنّها ستكون عندئذٍ حجاباً معنويّاً عن الرقيّ بالنفس، ولذلك لابدّ أن نتعاطى مع هذه المعارف بنحو الطريق والوسيلة للوصول إلى ما هو أجدى وأنفع، فإذا انعكست تلك المعارف على النفس إيجاباً فإنّنا نكون قد حقّقنا الهدف المنشود، وأمّا إذا أورثتنا تلك المعارف أخلاقاً بذيئةً، من تكبّرٍ وعُجُب ورياءٍ وظلمٍ واستغلالٍ للآخرين، فإنّها سوف تكون وباءً على صاحبها، ولذلك ينبغي لنا التنبّه إلى خطورة هذه المعارف على السير والسلوك وإصلاح النفس، ولذلك يمكن القول بأنّ المعارف الحصوليّة الصوريّة هي سلاحٌ ذو حدّين، ولكي نتوقّى من حدّه السلبيّ لابدّ لنا من الاهتمام بمعرفة النفس، والتعرّف على خباياها والعمل على إصلاحها، ومَن اشتغل بإصلاح نفسه فإنّه سيكون أفضل المستفيدين من العلوم الحصوليّة في حدّها الإيجابي، فإنّ

السيّد حسن الخرسان، نشر: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٩٩٥م، قم؛ الأمالي، لشيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي: ص٦١٨ ح١٠، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسّسة البعثة، نشر: دار الثقافة، الطبعة الأولى، قم المقدّسة؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج١ ص٢٥؛ صحيح البخاري، مصدر سابق: ج١ ص٢.

(١) في الحلقة الثالثة (مكامن الصدق)، من سلسلة (الأخلاق التعليميّة). حيث سيتعرّض السيّد الأستاذ دام ظلّه هنالك إلى هويّة النيّة، وكيفيّة إصلاح النيّة.

العلم الحصوليّ مع التقوى نورٌ وفضيلةٌ، ومن غيرها خطرٌ عظيمٌ، وهذا ما يدعونا للتذكير بدعاء النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**اللّهُمَّ آتِ نفسي تقواها، أنت وليّها ومولاها، وزكِّها وأنت خير من زكّاها**»[١]. وإنّما يكون هذا الدعاء مع العمل الموافق له، فإنّ الإصلاح لا يكون بمجرّد كلماتٍ وإن كانت صادقةً؛ لأنّ الصدق الواقعيّ هو المشفوع بالعمل، فإذا راقبتَ نفسك في سلوكها، وحاسبتها على الزلّات القوليّة والفعليّة، فعندئذٍ ستأتي الدعوة الصادقة أُكلها بقولك: (اللّهمّ آتِ نفسي تقواها)، وعندما تعتقها من العبوديّات الخُلُقيّة الكاذبة، ستفهم عمق هذه الدعوة الصادقة: (أنت وليّها ومولاها)، وعندما تتحقّق من أنّه لا مجال لتحقيق التزكية والتطهير من دون الاستعانة بالله تعالى، سوف تدرك واقعيّة هذه الدعوة الصالحة: (وزكِّها وأنت خير مَن زكّاها)، وسيأتينا في بحث الدرر النبويّة أنّ الطريق إلى الأُنس بالحقّ هو الوحشة من النفس، وأنّ طريق الوحشة من النفس هو الاستعانة بالحقّ على النفس[٢].

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً**﴾ (النساء:

---

(١) سنن النسائي: ج٤ ص٤٤٤، مصدر سابق؛ مصنَّف ابن أبي شيبة الكوفي، مصدر سابق: ج٧ ص١٧ ح٤؛ المعجم الكبير، مصدر سابق: ج٥ ص٢٠١؛ وج١١ ص٨٧؛ تفسير القرطبي، مصدر سابق: ج٢٠ ص٧٦؛ تفسير ابن كثير، مصدر سابق: ج٤ ص٥٥٢؛ سنن النبيّ صلّى الله عليه وآله، مصدر سابق: ص٣٤٣؛ مجمع الزوائد، مصدر سابق: ج٧ ص١٣٨؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٠ ص٣٧٠.

(٢) سيأتي تفصيل المسألة في الدرس التالي.

١٤٦)، التوبة والإصلاح والاعتصام بالله تعالى والإخلاص، هي خلاصة رسالات السماء، وفي هذا الترتّب الطوليّ نكتشف أهمّيّة إصلاح النفس بالنسبة للاعتصام بالله تعالى وبالإخلاص، كما نكتشف أهمّيّة التوبة بالنسبة للإصلاح، فهي علاقاتٌ معنويّةٌ رفيعةٌ، تكاد أن تكون في قوّة ارتباطها وطوليّتها أشبه ما تكون بترتّب الأعداد الرياضيّة.

- قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**أعجز الناس مَن عجز عن إصلاح نفسه. أرجى الناس صلاحاً مَن إذا وقف على مساوئه، سارع إلى التحوّل عنها. كلّما ازداد علم الرجل زادت عنايته بنفسه وبذل في رياضتها وصلاحها جهده. مَن أصلح نفسه، ملكها. مَن لم يصلح نفسه، لم يصلح غيره. لا تترك الاجتهاد في إصلاح نفسك، فإنّه لا يعينك عليها إلّا الجدّ**»[1]، وهذا الجدّ مبنيٌّ على الصدق والرغبة الواقعيّة بالتغيير.

خلاصة الدرس

- النفس ما لم تصلح لا يمكن لها أن تنفتح على العلوم الغيبيّة.
- تنقسم المعارف بشكلٍ عامٍّ إلى معارف دينيّةٍ وغير دينيّةٍ.
- المعارف الدينيّة الأساسيّة محورها الحقيقيّ هو الله تعالى.
- المعارف غير الدينيّة تنقسم إلى: إنسانيّةٍ وطبيعيّةٍ.
- العلوم الإنسانيّة هي مجموعة تخصّصاتٍ علميّةٍ تدرس الإنسان وأنشطته المعرفيّة، وأمّا العلوم الطبيعيّة فموضوعها هو المادّة أو الطبيعة.
- العلوم الإنسانيّة والطبيعيّة ـ على أهمّيّتها ـ قصيرة الأمد، ولا تُلبّي الحاجة

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: ص٢٣٧ ـ ٢٣٨، الأحاديث (٤٧٦١، ٤٧٦٢، ٤٧٦٨، ٤٧٦٩، ٤٧٧٢، ٤٧٧٤).

الحقيقيّة للإنسان التي تمسّ حياته في الدنيا والآخرة.

- المعارف الإلهيّة تهدف إلى تصحيح مسيرة الحياة وتحقيق أشرف المراتب في الآخرة.
- الخصوصيّة العظيمة للعلوم الإلهيّة تقرّب صاحبها من الله تعالى، وتمنحه الرفعة والخير والفضيلة في الدنيا والآخرة.
- من ثمرات العلوم الإلهيّة أنّها تجعلك على مقربةٍ من فطرتك الأولى، وتكون إنساناً واقعيّاً.
- المعارف الإلهيّة: حصوليّةٌ وحضوريّةٌ، ومعظم فقرات التفقّه في الدين ترتبط بالحصوليّة، فلابدّ من التركيز عليها؛ فهي بوّابة الحضوريّة.
- التركيز على العلوم الحصوليّة لا يعني أن نترك فرص العمل على إصلاح النفس بإصلاح السير والسلوك وتهذيب النفس بالأخلاق الكريمة.
- العلوم الحصوليّة إذا انتهت عندها غاياتنا ولم تفضِ إلى إيمانٍ وصلاحٍ وإصلاحٍ، فإنّها ستتحوّل إلى حجابٍ كبيرٍ يمنع من الوصول إلى الفضيلة.
- المعرفة الأوّليّة للنفس تساعدنا كثيراً على العمل على إصلاحها، كما أنّ إصلاحها يُعمّق معرفتنا بالنفس، ومَن عرف نفسه جاهدها.
- بمعرفة النفس سنكتشف معرفة الله، ومَن عرف نفسه فقد عرف ربّه.
- عند التحقّق من واقعيّة النفس المستغرقة في الفقر، سنفهم واقعيّة أنّ الله تعالى هو الغنيّ وحده.
- الإنسان النوعيّ بطبعه المادّي الحاكم فيه، ينساق إلى المتاهات الحسّيّة، ويغفل عن تلك النكات المعنويّة المرتبطة بإصلاح النفس وتزكيتها.
- الحياة نعمةٌ عظيمةٌ لَمَن صلُحت نفسه، وأمّا من خبُثت نفسه وتشوّهت

فطرته فهو كشخصٍ محمومٍ لا يتذوّق شيئاً إلّا وغلبته مرارة فمه.

- انفتاح معرفة النفس على معرفة الغير تكون بواسطة معرفتنا الله تعالى.
- الواقعيّة التعليميّة التي نقصدها: أن يحصل للإنسان توجّهٌ حقيقيٌّ نحو معرفة نفسه.
- إذا استطعنا تزكية نوايانا من الدسّ والشوب، نكون قد قطعنا نصف طريق التزكية والتطهير.
- كون المعارف الحصوليّة صوريّةً، لا يقلّل من أهمّيتها، ولكن لابدّ أن نتعاطى معها بنحو الوسيلة للوصول إلى الأجدى والأنفع.

مذاكرة

- متى تنفتح النفس الإنسانيّة على العلوم الغيبيّة؟
- ما هي المعارف الدينيّة وغير الدينيّة؟
- ما هو المحور الحقيقيّ للمعارف الدينيّة الأساسيّة؟
- ما هي العلوم الإنسانيّة والطبيعيّة؟
- هل العلوم الإنسانيّة والطبيعيّة تُلبّي حاجتنا الحقيقيّة؟ ولماذا؟
- ما هي الخصوصيّة العظيمة للعلوم الإلهيّة؟
- بأيّ العلوم نكون على مقربةٍ من فطرتنا الأولى، ونكون إنساناً واقعيّاً؟
- متى تتحوّل العلوم الحصوليّة إلى حجابٍ كبيرٍ يمنع من الفضيلة؟
- ما هو معنى: أنّ العلم الحصوليّ هو بذر المشاهدة للحقيقة؟
- ما هي ثمرة المعرفة الأوّليّة بالنفس؟ وكيف نُعمّق معرفتنا بها؟
- كيف فهمت هذا القول: مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه؟
- ما الذي سنفهمه عند التحقّق من واقعيّة النفس المستغرقة في الفقر؟

- إلى أيّ شيءٍ ينساق الإنسان النوعي بطبعه المادّي؟ وعن أيّ شيءٍ يغفل؟
- لَمن تكون الحياة نعمةً عظيمةً؟ ولَمن لا تكون كذلك؟
- بواسطة أيّ شيءٍ يكون انفتاح معرفة النفس على معرفة الغير؟
- ما هو مقتضى الواقعيّة والتعليميّة فيما يتعلّق بمعرفة النفس؟
- ما هو أثر تزكية نوايانا من الدسّ والشوب؟
- كيف نتعاطى مع المعارف الحصوليّة؟

الدرس الرابع

المقدّمات العلميّة والعمليّة لإصلاح النفس

- أهداف الدرس
- تمهيد
- المقدّمات العلميّة (التفقّه في الدين)
- الشُّعب الأساسيّة للتفقّه في الدين
- تحديد المراد من العقيدة والشريعة والأخلاق
- المقدّمات العمليّة (التواضع والتوبة والعزم والتوكّل)
- خصائص التواضع وملامحه
- التوفيقات الإلهيّة (اغتنام فرص الخير)
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان أهمّ المقدّمات العلميّة في إصلاح النفس.
- بيان الشُّعب الأساسيّة للتفقّه في الدين.
- تحديد المراد من العقيدة والشريعة والأخلاق.
- بيان أهمّ المقدّمات العمليّة في إصلاح النفس.
- بيان خصائص التواضع وملامحه.
- بيان التوفيقات الإلهيّة الواقعة في طريق إصلاح النفس.

تمهيد

في هذا الدرس الجديد سنقدّم بياناتٍ ترتبط بأهمّ المقدّمات العلميّة والعمليّة الواقعة في طريق إصلاح النفس، والتي لا يمكن لعمليّة الإصلاح أن تقوم من دونها، فهي أشبه بالمفاتيح الأساسيّة للإصلاح، ولذلك فمن الضروريّ أن ندرك أنّ عمليّة إصلاح النفس لا تتحقّق بشكلٍ فوضويٍّ، وسوف نجد أنّ هذه المقدّمات العلميّة والعمليّة منبثقةٌ من القرآن الكريم والسنّة الشريفة، فضلاً عن كونها من دواعي الفطرة السليمة والوجدان.

المقدّمات العلميّة (التفقّه في الدين)

لقد جاء رسول الله صلّى الله عليه وآله ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومادّته الأساسيّة هي القرآن، وطريقته هي الأخلاق؛ قال تعالى: ﴿**الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ (إبراهيم: ١)، وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾ (الأحزاب: ٤٣)، وإذا ما أضفنا لذلك حديث

رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[١]، حيث قرن صلّى الله عليه وآله بعثته الشريفة بذلك، فجعل إتمام مكارم الأخلاق علّةً لبعثته الشريفة، فسوف نخرج بمحصّلةٍ دقيقةٍ وعظيمةٍ، وهي: أنّ مكارم الأخلاق هي ما جاء بها القرآن الكريم، لأنّ الإخراج من الظلمات إلى النور لا يكون إلّا بالقرآن، ولذلك كان رسول الله صلّى الله عليه وآله مدرسةً قرآنيّةً متحرّكةً، وكان ـ كما في خبرٍ ـ «خُلُقه القرآن»[٢]، وبذلك فالإصلاح المتوقّع والمطلوب منّا لابدّ أن تكون انطلاقته قرآنيّةً وتطبيقاته نبويّةً، ومن التأسيسات القرآنيّة في عمليّة الإصلاح: أنّه قرن العلم بالعمل، وهذا ما يجعلنا نتوقّف عند المقدّمات العلميّة والمقدّمات العمليّة تحصيلاً للإصلاح.

وأمّا المقدّمات العلميّة فأهمّها التفقّه في الدين، والتفقّه في الدين لا يقتصر على الأحكام الشرعيّة، المسمّاة ـ اصطلاحاً ـ بفروع الدين، وإنّما يشتمل الدين على جميع مفردات المنظومة الإسلاميّة؛ من فكرٍ وعقيدةٍ وشريعةٍ وأخلاقٍ وسلوكٍ، فيكون معنى التفقّه في الدين هو عين التفقّه في جميع مفردات المنظومة الإسلاميّة، وهذا ما ألفتنا النظر إليه في مناسباتٍ علميّةٍ مختلفةٍ[٣]، ولا غنى

---

(١) تمّ تخريج الحديث في درسٍ سابقٍ.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٦ ص٣٤٠، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار إحياء الكتب العربية.

(٣) انظر: التفقّه في الدين، حوار مع سماحة المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، مؤسّسة الهدى للطباعة والنشر، الطبعة الجديدة، ١٤٣٤هـ، بيروت؛ فقه العقيدة (بحوث في أصول الإيمان وفروعه)، من أبحاث سماحة المرجع الديني السيّد كمال الحيدري: ص٣٩، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ، العراق ـ الكاظميّة.

للمسلم عن التفقّه في الدين؛ لأنّ هذا التفقّه يُمكِّن المكلَّف من الإجابة عن أهمّ الأسئلة المصيريّة المتعلّقة بمبدئه وحياته ومنتهاه، كما أنّ التفقّه في الدين هو السبيل الوحيد الذي يُحقّق مقداراً عالياً من الاتّزان المعرفيّ الذي لا يمكن تحقيقه من دون العقيدة والشريعة والأخلاق، فإذا تحقّق هذا الاتّزان المعرفيّ فسيتمكّن الإنسان من معرفة وظيفته في الحياة ومصيره النهائي، وبهذا التفقّه الموجب للاتّزان المعرفيّ سيتوفّر للمكلّف مقدارٌ عالٍ من الثقة والطمأنينة بصحّة الوظيفة ووضوح المصير، فضلاً عن الآثار النفسيّة والمعنويّة الإيجابيّة التي ستنعكس على شخصيّة المتفقّه في الدين، والذي بلغ مرتبةً متميّزةً من الاتّزان المعرفيّ، ولأجل هذه الأهميّة الكبيرة دعانا القرآن الكريم والسنّة الشريفة للتفقّه في الدين؛ قال تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ (التوبة: ١٢٢)، حيث تندب الآية من كلّ فرقةٍ نفراً للتفقّه في الدين، ليعودوا بعدها إلى أهليهم؛ لنشر المعارف التي تعلّموها وتفقّهوا فيها، فتكون المحصّلة هي أنّ الجميع سوف يكون متفقّهاً في الدين، والفرق هو أنّ بعض المتفقّهين في الدين مجتهدون، والبعض الآخر مقلّدون، وهذا ما أسميناه بالتفقّه الخاصّ (الاجتهاد)، والتفقّه العامّ الحاصل بمجرّد التوفّر على المعلومات من دون الحصول على ملكة الاجتهاد.

وأمّا في السنّة الشريفة فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**عليكم بالتفقّه في الدين ولا تكونوا أعراباً، فإنّه مَن لم يتفقّه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يُزكِّ له عملاً**»[1]، حتّى بلغ بالإمام

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٣١ ح٧.

الصادق عليه السلام أن يُهدّد أتباعه بالضرب إن لم يتفقّهوا في الدين، حيث يقول: «**لوددتُ أنّ أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتّى يتفقّهوا**»[(١)].

والخلاصة: أنّ «التفقّه في الدين عمليّةٌ وقائيّةٌ من شبح الأعرابيّة البغيضة في صورة كون التفقّه مُستلزماً أو مُستتبعاً للعمل وفقاً لما تفقّه فيه، ودون هذه العمليّة الوقائيّة يبقى الإنسان في معرض السقوط في مُستنقع الأعرابيّة، فيكون في دنياه وأُخراه على خطرٍ عظيمٍ»[(٢)].

إذن فدعوة الشارع وحثّـه على التفقّه في الدين (الخاصّ والعامّ) إنّما يهدف بالدرجة الأساس إلى نشر الثقافة التفقّهيّة، والذي يُؤكّد أنّ هدف الإسلام هو خلق أمّةٍ متفقّهةٍ بالتفقّه العامّ وخلق طبقةٍ خاصّةٍ متفقّهةٍ بالتفقّه الخاصّ.

الشُّعب الأساسيّة للتفقّه في الدين

أوّلاً: شعبة العقيدة، وهي الأصل والأساس الذي ينطلق منه بُنيان الإنسان المسلم، وكلّ بناءٍ خالٍ من العقيدة الصحيحة فهو أرضٌ مواتٌ، وقفرٌ خرابٌ، ولذلك فالبناء العقائديّ هو الشعبة الأهمّ من بين جميع الشعب الأخرى من شُعب التفقّه في الدين.

ثانياً: شعبة الشريعة، وهي بمثابة البناء الظاهريّ للإنسان، وقد يُطلق أحياناً على الأحكام الشرعيّة اصطلاح التفقّه في الدين، ولكنّ الصحيح هو أنّ الأحكام الشرعيّة هي شعبةٌ من شُعب التفقّه في الدين، وقد عرفنا أنّ العقيدة هي الشعبة الأهمّ، فتأتي الشريعة في طول العقيدة.

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٣١ ح٨.

(٢) انظر: فقه العقيدة، مصدر سابق: ص٤٢.

ثالثاً: شعبة الأخلاق، وهي بمثابة البناء الباطنيّ للإنسان، فهنالك أساسٌ لهذا البناء، وهو العقيدة، وهنالك ظاهرٌ له، وهو الشريعة، وهنالك باطنٌ له، وهو الأخلاق، وبذلك تكون الأخلاق من حيث تمثيلها للمحتوى الداخلي للإنسان تمثّل حلقة وصلٍ بين الأصل العقائديّ في البناء وبين الظاهر الشرعيّ، ومن دون الأخلاق سوف تُفقَد العلاقة الحميمة بين العقيدة والشريعة.

تحديد المراد من العقيدة والشريعة والأخلاق

العقيدة في الفهم العامّ هي أُصول الدين، المتمثّلة بالتوحيد والنبوّة والمعاد ـ بإجماع المذاهب الإسلاميّة، بل سائر الأديان السماويّة ـ وقد سُمِّيت بالأُصول لأنّها تشكّل أساس الرؤية الكونيّة الإلهيّة، فالتوحيد يُشير للمبدأ، والنبوّة تُشير للتكاليف، والمعاد يُشير للمنتهى، وهنالك فروعٌ عقائديّةٌ متفرّعةٌ على تلك الأصول الثلاثة، كما في العدل والإمامة عند مدرسة أهل البيت، وهنالك مسائل عقائديّةٌ ثانويّةٌ تتعلّق بتلك الأصول وفروعها، فالعقيدة على ثلاثة مستوياتٍ: أصول العقيدة، وفروع العقيدة، ومسائل العقيدة.

ثمّ تأتي في طول العقيدة بأصولها وفروعها ومسائلها الشعبة الأخرى من الدين، وهي المتمثّلة بفروع الدين، كالصلاة والصوم والحجّ والزكاة، وهنالك مسائل كثيرةٌ تُبحث في طيّ فروع الدين، ثمّ تأتي السلسلة الأخلاقيّة والسلوكيّة، لتتشكّل سلسلةٌ معرفيّةٌ وعمليّةٌ كبرى[١].

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في كتاب «فقه العقيدة»، مصدر سابق.

المقدّمات العمليّة (التواضع والتوبة والعزم والتوكّل)

هناك مقدّماتٌ عمليّة كثيرةٌ تقع في طريق إصلاح النفس، ولكنّنا سنشير إلى المقدّمات الأساسيّة، التي لا يمكن تصوّر وجهٍ للإصلاح من دونها، وهي: التواضع والتوبة والعزم والتوكّل، وهي مقدّماتٌ طوليّةٌ، فالتوبة تحتاج إلى تواضعٍ مسبقٍ يقرّ من خلاله الإنسان بذنبه، فالتوبة لا تقع من المتكّبر، ثمّ إذا وقعت التوبة فلابدّ من عزمٍ على الترك، وتوكّلٍ على فعل الطاعة، لأنّ الإنسان المذنب لم يتعوّد الطاعة، بل كان قد تعوّد على المعصية وأدمنها، فتكون الطاعة منه بأمسّ الحاجة إلى التوكّل على الله تعالى، وسوف يمدّه الله تعالى بعنايةٍ خاصّة، سيجد طعمها في كلّ عملٍ فيه طاعة الله تعالى.

وحيث إنّ التوبة لها دورٌ عظيمٌ في إصلاح النفس وتزكيتها فقد احتجنا إلى إفراد درسٍ خاصٍّ بها وسيوافيك، ولكنّنا سوف نتناول منها أمراً واحداً مهمّاً، يتعلّق بعلاقة التوبة بالإيمان والمؤمن.

إنّ التوبة بالنسبة لغير المؤمنين بالله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله تحصل بالإيمان نفسه، ثمّ يبدأ العمل الإصلاحي في علمه وسلوكه؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (الأنعام: ٤٨)، وأمّا بالنسبة للمؤمنين بالله تعالى وبالرسالة المحمّديّة فإنّ التوبة تعني الكفّ على مطلق الذنوب، ثمّ تبدأ رحلة الإصلاح؛ قال تعالى: ﴿**فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (المائدة: ٣٩)، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الأنعام: ٥٤).

بعد هذه الإطلالة حان الأوان للبحث في التواضع، والذي سنقصر

الحديث عنه في هذه المقدّمات العمليّة، حيث يعتبر التواضع من الخصال الحميدة التي تجعل الإنسان محبوباً لله تعالى وللناس، فالناس مجبولون على حبّ مَن تواضع لهم، فما هو التواضع؟ وما هي خصائصه؟

إنّ هنالك تضادّاً واضحاً بين التكبّر والتواضع، وأحدهما بوّابةٌ لفهم الآخر، فالكبر هو التعظيم الموجب لرؤية النفس فوق الغير، فيكون التواضع ـ وهو ضدّ الكبر ـ: أن لا يرى لنفسه مزيّةً على الغير[١]، لا بمعنى أن لا يلحظ لنفسه مزيّةً في نفسه، فيساوي العالم نفسه بالجاهل، أو العابد بالفاسق، وإنّما أن لا يتعامل مع الغير ـ مهما كان ـ من منطلق أنّه أفضل منه[٢]، فذلك هو الكبر، الذي هو آفةٌ عظيمةٌ، به هلك الخواصّ فضلاً عن العوامّ، حتّى قيل بأنّه ما من خلقٍ مذمومٍ إلّا وصاحب الكبر مضطرٌّ إليه؛ ليحفظ به عزّه، وما من خلقٍ محمودٍ إلّا وهو عاجزٌ عنه؛ خوفاً من فوات عزّه[٣]، بخلاف التواضع الذي يورث للإنسان عزّاً حقيقيّاً، ومحبوبيّةً كبيرةً عند الله تعالى وعند خلقه، ولذلك ورد ذمٌّ كبيرٌ للكبر، كما ورد مدحٌ كبيرٌ للتواضع.

وكفى بالمتكبّر أن يكون مصروفاً عن آيات الله تعالى، فيمنع عن نفسه بكبره الهداية والخير؛ قال تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي**

---

(١) انظر: جامع السعادات، مصدر سابق: ج١ ص٨٤.

(٢) بعبارةٍ أخرى: إنّ حقيقة التواضع أن لا ترى النفس لذاتها مزيّةً واقعيّةً وخيريّةً حقيقيّةً على الغير، لا أن لا ترى مزيّةً لذاتها عليه في الصفات الظاهرة التي يجزم باتّصاف نفسه بها أو عدم اتّصافه بها، كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الأموال المحرّمة وغير ذلك. (انظر: جامع السعادات، مصدر سابق: ج١ ص٣٠٦).

(٣) انظر: جامع السعادات، مصدر سابق: ج١ ص٣٠١.

الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٦)، فالكبر حجابٌ مانعٌ من الهداية والإذعان للحقّ سبحانه، والمبتلون به غالباً ما يجادلون بالباطل، ولا يطلبون بذلك حقّاً وإنصافاً؛ قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** (غافر: ٥٦).

ولذلك فلا سبيل للخلاص من الكبر إلّا بالتواضع، والذي به ستنفتح أبوابٌ من الهداية والخير والرحمة، كما أنّه سيكون طريقاً للاتّصاف بمكارم أخرى، وبحسب الدرجة التي نناها منه، فالتواضع درجاتٌ، وقد سئل الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «ما حدّ التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ فقال: **التواضع درجاتٌ، منها: أن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلبٍ سليمٍ، لا يحبّ أن يأتي إلى أحدٍ إلّا مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئةً درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عافٍ عن الناس، والله يحبّ المحسنين**»(١)، وهنا يذكر الإمام عليه السلام أربع درجاتٍ، وهي كلّها من مكارم الأخلاق.

وأمّا خصائص التواضع وملامحه فكثيرةٌ، منها:

أوّلاً: أنّ يرى المتواضع في نفسه انكساراً يمنعه من رؤية مزيّةٍ لذاته على الغير، فلا يشمخنّ على أحدٍ، ولا يحقرنَّ أحداً، ولا يستخفّنّ بأحدٍ مطلقاً؛ قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ﴾** (الحجرات: ١١)، وقد

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٢٤ ح١٣.

روي أنّ الله تبارك وتعالى قال لنبيّه موسى عليه السلام: «**إنّي إنّما أقبل صلاة مَن تواضع لعظمتي، ولم يتعظّم على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع النهار بذكري، وكفّ نفسه عن الشهوات من أجلي، وأطعم الجائع، وكسا العاري...**»[1].

ثانياً: أن يقابل الناس بالودّ والاحترام والإكرام، ما لم يكن في ذلك ذلٌّ للنفس أو ضعةٌ للدين، فإنّ التواضع خلقٌ وسطيٌّ بين طرفين منبوذين ومذمومين هما التكبّر والذلّ، ولا يراد من الذلّ ما يشوب التواضع للمؤمنين، فهذا النوع من التذلّل ممدوحٌ، بل هو أشرف مراتب التواضع، وقد قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٥٤)، ولمّا أمر الله تعالى رسوله صلّى الله عليه وآله بالتواضع، بيّن له المصداق المطلوب منه تجاه مَن اتّبعه من المؤمنين بقوله تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الشعراء: ٢١٥).

ثالثاً: أن يستشعر ثمرات التواضع في علاقته مع الله تعالى ومع سائر الناس، وثمرات التواضع هي: الخشوع والخضوع لله تعالى، والخشية منه، والحياء منه ومن عباده الصالحين.

رابعاً: أن لا يكون تواضعه عن منقصةٍ في نفسه سبّبت له الذلّ والهوان، فظَنّ بذلك أنّه متواضعٌ، فالتواضع الحقيقيّ للآخرين إنّما هو مع رفعةٍ في النفس وليس منقصةً، وقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وعن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّهما قالا: «**طوبى لمَن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتواضع من غير منقصةٍ، وجالَس أهل الفقر والرحمة، وخالط**

---

(١) التواضع والخمول، للحافظ عبد الله بن محمّد بن عبيد بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ): ص١١٦، رقم (٨٦)، تحقيق: محمّد عبد القادر، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، لبنان.

أهل الذلّ والمسكنة، وأنفق مالاً جمعه في غير معصيةٍ»[١].

خامساً: أن لا يمنعك مقامك في قومك أن تقوم بخدمة مَن هم دونك، لاسيّما رعيّتك، فذلك من علائم التواضع، وقد كان أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام على جلالة قدره ورفعة منزلته يأخذ الإبريق ويصبّ الماء على يد ضيفه، وهو يقول له: «**إنّ الله عزّ وجلّ يراك وأخوك الذي لا يتميّز منك ولا ينفصل عنك يخدمك**»[٢].

التوفيقات الإلهيّة (اغتنام فرص الخير)

التخلّق بخلق التواضع من أعظم المنن على العبد، فبالتواضع يخشع العبد ويخضع لله تعالى، فإذا ما حلّت المنح الإلهيّة على العبد، ومنها منحة التواضع، فعليه أن يتشبّث بهذا الخُلُق الرفيع، وإذا ما وجد في صحبٍ له تواضعاً ملموساً فليتشبّث بهذا الصحب الكريم، وعلينا اغتنام الفرص في كلّ ذلك، فإنّ: «**إضاعة الفرصة غصّةٌ**»[٣]، وربّما لا تتكرّر مرّةً أخرى، فعن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**الفرصة تمرّ مرّ السحاب، فانتهزوا فرص الخير**»[٤].

وما دام الإنسان قادراً على النطق فلا تصدر منه كلماتٌ تُشمّ منها رائحة

---

(١) المعجم الكبير، مصدر سابق: ج٥ ص٧١ ح٤٦١٥؛ أُسد الغابة في معرفة الصحابة؛ لابن الأثير عزّ الدين عليّ بن محمّد الجزري: ج٢ ص١٨٨، انتشارات إسماعيليان، طهران؛ تفسير القمّي، مصدر سابق: ص٧٠؛ مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ج١١ ص٢٩٥ ح٢.

(٢) الاحتجاج، أحمد بن عليّ الطبرسي: ج٢ ص٢٦٧، تحقيق: محمّد باقر الخرسان، نشر: دار النعمان، ١٩٦٦م، النجف الأشرف؛ بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٤١ ص٥٦.

(٣) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٢٨ ح١١٨.

(٤) المصدر السابق: ج٤ ص٦ ح٢١.

التكبّر، وما دام يتمتّع بكامل صحّته البدنيّة والعقليّة والنفسيّة فعليه أن يتطبّع بالتواضع إن لم يكن من طبعه التواضع، ولا يغرّه الشيطان بمقتضيات الأنا، فإنّ (الأنا) إذا استيقظت وصارت متحكّمةً فيه فذلك هو الخسران المبين.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً**﴾ (الفرقان: ٦٣)، أي: يمشون بسكينةٍ متواضعين، وإذا خاطبهم الجهلة السفهاء بالأذى أجابوهم بالمعروف من القول، وخاطبوهم خطاباً يَسْلَمون فيه من الإثم.
- قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لأصحابه: «**مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة؟!** قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: **التواضع**»[(١)]، وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ إلى أنّ العبادة الحقيقيّة مورثةٌ للتواضع، فمن نزعت نفسه للتكبّر والخيلاء فهنالك قصورٌ واضحٌ في عبادته، وبذلك يكون وجود التواضع وعدمه كفيلٌ بالكشف عن واقعيّة العبادة التي عليها الإنسان.

خلاصة الدرس

- جاء رسول الله صلّى الله عليه وآله ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومادّته الأساسيّة هي القرآن وطريقته هي الأخلاق.
- إنّ مكارم الأخلاق هي ما جاء بها القرآن الكريم، لأنّ الإخراج من

---

(١) إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٣ ص٣٤١؛ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام)، للورّام بن أبي فراس المالكي: ج١ ص٢٠١، نشر: مكتبة الفقيه، قم.

الظلمات إلى النور لا يكون إلّا بالقرآن، ولذلك كان رسول الله صلّى الله عليه وآله مدرسةً قرآنيّةً متحرّكةً.

- من التأسيسات القرآنيّة في عمليّة الإصلاح: أنّه قرن العلم بالعمل.
- التفقّه في الدين بمعنى: أن لا يقتصر الدين على الأحكام الشرعيّة، المسمّاة اصطلاحاً بفروع الدين، وإنّما يشتمل الدين على جميع مفردات المنظومة الإسلاميّة، من فكرٍ وعقيدةٍ وشريعةٍ وأخلاقٍ وسلوكٍ.
- التفقّه في الدين هو السبيل الذي يُحقّق مقداراً عالياً من الاتّزان المعرفيّ.
- التفقّه الموجب للاتّزان المعرفيّ يوفّر للمكلّف مقداراً عالياً من الثقة والطمأنينة بصحّة الوظيفة ووضوح المصير.
- المتفقّهون في الدين قسمان: مجتهدون ومقلّدون، ويدخلان في التفقّه الخاصّ، والتفقّه العامّ الحاصل بتوفّر المعلومات دون حصول الاجتهاد.
- التفقّه عمليّةٌ وقائيّةٌ من شبح الأعرابيّة في صورة كونه مُستتبعاً للعمل.
- دعوة الشارع للتفقّه (الخاصّ والعامّ)، يهدف إلى نشر الثقافة التفقّهيّة.
- الشُّعب الأساسيّة للتفقّه في الدين هي (العقيدة، والشريعة، والأخلاق).
- هنالك أساسٌ لبناء الإنسان وهو العقيدة، وهنالك ظاهرٌ له وهو الشريعة، وهنالك باطنٌ له وهو الأخلاق.
- من المقدّمات العمليّة لإصلاح الإنسان: التواضع والتوبة والعزم والتوكّل.
- التوبة تحتاج إلى تواضعٍ مسبقٍ يقرّ من خلاله الإنسان بذنبه، فالتوبة لا تقع من المتكبّر.
- التوبة لغير المؤمنين تحصل بالإيمان نفسه، ثمّ العمل الصالح، وللمؤمنين بالكفّ عن مطلق الذنوب، وإصلاح النفس.
- التواضع مع الغير: أن لا نتعامل معه من منطلق الأفضليّة، فذلك كبرٌ.

- الكبر حجابٌ مانعٌ من الهداية والإذعان للحقّ سبحانه، ولا سبيل للخلاص منه إلّا بالتواضع، الذي به تنفتح أبواب هدايةٍ وخيرٍ ورحمةٍ.
- من خصائص التواضع وملامحه: أن يرى المتواضع في نفسه انكساراً يمنعه من رؤية مزيّةٍ له على الغير، وأن يقابل الناس بالودّ والاحترام والإكرام، وأن لا يكون تواضعه عن منقصةٍ في نفسه.
- التواضع خلقٌ وسطيٌّ بين طرفين منبوذين ومذمومين هما التكبّر والذلّ.
- التواضع الحقيقيّ للآخرين إنّما يكون مع رفعةٍ في النفس وليس منقصةً.

مذاكرة

- ما هي المادّة الأساسيّة للرسول صلّى الله عليه وآله وطريقته في إخراج الناس من الظلمات إلى النور؟
- ما هي علاقة مكارم الأخلاق بالقرآن الكريم؟
- ما هي المقدّمات العلميّة والعمليّة في إصلاح النفس؟
- هل يقتصر التفقّه في الدين على الأحكام الشرعيّة؟
- ما هي علاقة التفقّه في الدين بالاتّزان المعرفيّ؟
- ما هي علاقة التفقّه الموجب للاتّزان المعرفيّ بالثقة والطمأنينة بصحّة الوظيفة ووضوح المصير؟
- ما هي أقسام المتفقّهين؟ وماذا يعني التفقّه الخاصّ والعامّ؟
- ما هو هدف دعوة الشارع وحثّه إلى التفقّه في الدين (الخاصّ والعامّ)؟
- ما هي الشُّعب الأساسيّة للتفقّه في الدين؟
- ما هي علاقة العقيدة والشريعة والأخلاق بأساس بناء الإنسان وظاهره وباطنه؟

- إلى أيّ شيءٍ تحتاج التوبة؟
- كيف تحصل توبة المؤمنين وغير المؤمنين بالله تعالى؟
- ما هو التواضع؟ وكيف لنا الخلاص من التكبّر؟
- اذكر بعض خصائص وملامح التواضع؟
- ما هو موقع التواضع بالنسبة للتكبّر والذلّ؟
- ما هو معنى أن يكون التواضع الحقيقيّ للآخرين مع رفعةٍ في النفس وليس عن منقصةٍ؟

الدرس الخامس

الوسائل والمراحل العمليّة لإصلاح النفس

- أهداف الدرس
- تمهيد
- وسائل إصلاح النفس
  - ✓ المكاشفة والمواجهة مع النفس
  - ✓ المعاهدة والالتزام
  - ✓ المراقبة والمتابعة
  - ✓ المجاهدة والمحاربة والردع
  - ✓ المحاسبة والمعاقبة
- مراحل عمليّة لإصلاح النفس
  - ✓ معرفة كون النفس ليست واحدة
  - ✓ الإقرار والاعتراف بالذنب والتقصير
  - ✓ المباشرة بالمعالجة وعدم التسويف
  - ✓ رعاية بذور الأخلاق المكتسبة
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- عرض وبيان وسائل إصلاح النفس.
- عرض وبيان مراحل إصلاح النفس.

تمهيد

في هذا الدرس الجديد سنقدّم بياناتٍ حول أهمّ الوسائل والمراحل العمليّة لإصلاح النفس، فإنّ إصلاح النفس ـ كما تقدّم ـ لا يكون بشكلٍ فوضويٍّ؛ لأنّ السير الفوضويّ في طريق إصلاحها لا يزيدنا إلّا بُعداً عن الهدف، ولذلك لابدّ أن تكون طرقنا علميّةً ومنهجيّةً، وأن تكون منطلقةً من القرآن الكريم والسنّة الشريفة، ومزوّدةً بالتجارب العلميّة الصحيحة.

وسائل إصلاح النفس

تبتني وسائل إصلاح النفس على أصلٍ لابدّ من تحقيقه في رتبةٍ سابقةٍ، وإلّا فلا جدوى من جميع وسائل الإصلاح، وهذا الأصل هو الرغبة الصادقة في الإصلاح والتغيير، فإذا أحرزنا هذا الأصل في أنفسنا سنكون على استعدادٍ تامٍّ للتغيير، بل وسنكون قد قطعنا شوطاً مهمّاً في الإصلاح، وأمّا الوسائل فهي:

أوّلاً: المكاشفة والمواجهة مع النفس

بمعنى أن يكون الإنسان صريحاً وشفّافاً في المكاشفة مع نفسه، وهذا الأمر سهلٌ يسيرٌ من جهةٍ، وصعبٌ عسيرٌ من جهةٍ أخرى، أمّا يسره فلأنّ الإنسان هو الأعلم بنفسه، وما صدر منه، من خيرٍ ومن شرٍّ؛ قال تعالى:

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤)[1]، وأمّا صعوبته فلأنّ الإنسان ـ عادةً ـ لا يتعامل مع نفسه بصورةٍ نقديّةٍ، بل هو كثيراً ما يغضّ الطرف عن أخطائها، كما هو حال الأمّ مع طفلها، فإنّها عادةً ما لا تنظر أخطاءه، ولا تقبل نقودات الآخرين له، ولذلك يحتاج الإنسان إلى إرادةٍ عاليةٍ لتحقيق المواجهة الجدّيّة، فإذا تحقّقت المكاشفة والمواجهة فإنّنا سنكون قادرين على تحديد الأمراض التي نعاني منها.

إنّ هذه المكاشفة والمواجهة هي أهمّ الوسائل العقلائيّة في الإصلاح، وهي الدليل العملي على عقلانيّة الإنسان، وقد ورد في الحديث النبويّ الشريف: «**إنّ الكيّس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَن اتّبع نفسه وهواها، وتمنّى على الله عزّ وجلّ الأماني**»[2].

ولا بأس بأن يقوم المكاشف لنفسه، بتسجيل ما وقع منه في الأيّام السالفة، ولو بنحو الإجمال، ولا ينسى ما يتعلّق بمصدر رزقه، وطعامه وشرابه، ثمّ يبدأ بعد رحلة المكاشفة بالمواجهة والتأنيب والعمل على الإصلاح.

---

(١) وفي الخبر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**استفتِ قلبك، واستفتِ نفسك ـ ثلاث مرّات ـ البرّ ما اطمأنّت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردّد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**». (مسند أحمد، مصدر سابق: ج٤ ص٢٢٨؛ سنن الدارمي، للإمام أبي محمّد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: ج٢ ص٢٤٦، نشر: مطبعة الاعتدال، دمشق).

(٢) أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٥٣٠؛ مكارم الأخلاق، للشيخ الجليل رضيّ الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي: ص٤٦٢، منشورات الشريف الرضيّ، الطبعة السادسة، ١٩٧٢م، قم المقدّسة؛ مسند أحمد، مصدر سابق: ج٤ ص١٢٤؛ سنن الترمذي، محمّد بن عيسى الترمذي: ج٤ ص٥٤ ح٢٥٧٧، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر: دار الفكر، ١٤٠٣هـ، بيروت.

ثانياً: المعاهدة والالتزام

ولكي تظهر الثمرة العمليّة للمكاشفة والمواجهة، لابدّ من إردافهما بالمعاهدة والالتزام، فيُعاهد الشخص نفسه على تجاوز الماضي، وعلى تعويض ما فاته من خيرٍ، ويُلزم نفسه بتحقيق ذلك، وإذا ما وقعت منه هفوةٌ في طريق الإصلاح فذلك أمرٌ طبيعيٌّ، ولا يصحّ أن يتّهم نفسه بالفشل، فإنّ النجاح الحقيقيّ عادةً لا يكون من أوّل محاولةٍ، وفي كلّ محاولةٍ يشتدّ عوده حتّى ينفض عن قلبه أدران الماضي، وكما يُقال في المثل العقلائيّ: (أن تصل متأخّراً، خيرٌ من أن لا تصل أبداً)، والوقوع في الهفوات في رحلة الإصلاح، أحياناً تكون من خطوات الإصلاح، حيث يفهم الإنسان حينها بأنّه لا يستطيع أن ينجح وحده، وأنّه لا غنى له عن الله تعالى وتوفيقاته، فالإنسان قد يُصيبه بعض الغرور أو العُجُب فيظنّ أنّه تجاوز كامل أخطائه، فيقع في أخطاءٍ جديدةٍ من دون التفاتٍ منه، فيكون هذا الإخفاق منبّهاً له بأنّه لا زال في أوّل الطريق، وأنّ عليه أن يبذل جهداً مضاعفاً.

ثمّ إنّ عليه بعد أن عاهد نفسه، الالتزام بذلك بأن يجعل ذلك العهد والالتزام ميثاقاً بينه وبين ربّه تعالى؛ ليكون ذلك أكثر تأثيراً على نفسه، وأسرع استجابةً، فإنّ التائب والمكاشف لنفسه سينشأ عنده نوعٌ متميّزٌ من الحياء من الله تعالى، فيكون عقْد العهد والميثاق مع الله تعالى على ترك ما مضى وتصحيح ما يأتي، أكثر تأثيراً في نفسه، وهنا عليه أن يتذكّر أنّ هذه المرتبة العالية من العهد والميثاق ـ المصحوبة بتوفيقاتٍ جديدةٍ وإمداداتٍ غيبيّةٍ كثيرةٍ ـ لها التزاماتٌ جادّةٌ وجديدةٌ، منها الوفاء بهذا العهد والوعد مع الله؛ قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً**﴾ (الإسراء: ٣٤)، وأنّ التنصّل عن هذا الالتزام هو نوعٌ من الانهزام، بل هو أشبه ما يكون بتولية

الأدبار في المواجهة مع الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً**﴾ (الأحزاب: ١٥)، وتولية الأدبار ليست مختصّةً بالجهاد الأصغر[١].

ومن ثمرات الوفاء بالعهد: نيل التوفيق الأصغر في الدنيا، وهو المضيّ في عمليّة الإصلاح، ونيل التوفيق الأكبر، وهو الدخول إلى الجنّة، فذلك هو الأجر العظيم، وقد قال تعالى: ﴿**فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾ (الفتح: ١٠).

وإذا كان الإنسان المجاهد بحاجةٍ إلى الصبر والمرابطة في الجهاد الأصغر فهو بحاجةٍ لذلك بنحوٍ أكبر وأشدّ في الجهاد الأكبر؛ لأنّ الجهاد الأصغر يمثّل مواجهةً محدودةً مهما اتّسع زمانها ومكانها، بخلاف الجهاد الأكبر فالمعركة فيه مستمرّةٌ، كما أنّ المعركة في الجهاد الأصغر يمكن فيها

---

(١) ينقسم الجهاد إلى أكبر؛ خاصٍّ بتزكية النفس وتطهيرها، وأصغر؛ خاصٍّ في مواجهة الأعداء الخارجيّين، وقد روي: «أنّ النبي صلّى الله عليه واله بعث بسريةٍ فلمّا رجعوا قال: **مرحباً بقومٍ قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر**، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: **جهاد النفس**». (فروع الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني: ج٥ ص١٢ ح٣، تحقيق علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، قم المقدّسة). وقد يُفهم ـ خطأً ـ أنّ الجهاد الأكبر يأتي بعد الجهاد الأصغر، كما هو الظاهر من الحديث «**قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر**»، ولكنّ الصحيح هو أنّ النبي صلّى الله عليه وآله أراد التنبيه إلى أنّ الجهاد الأكبر معركةٌ قائمةٌ ليس لها مكانٌ محدودٌ ولا زمانٌ محدودٌ، فهي معركةٌ مفتوحةٌ، وأولئك الذين ذهبوا للجهاد الأصغر هم كانوا من قبل في جهادٍ أكبر مع أنفسهم، وكان من ثمرة هذا الجهاد المقدّس هو أنّهم بذلوا مهجهم في سبيل الله تعالى، ولمّا عادوا من الجهاد الأصغر بقي عليهم أن يُديموا الجهاد الأكبر؛ لأنّه معركةٌ قائمةٌ مع الشيطان والنفس ما دام الإنسان حيّاً.

تعويض الخسارة المتوقّعة، وأمّا الجهاد الأكبر فالخاسر فيه خاسرٌ في كلّ شيءٍ، ولا يمكن تدارك خسارته، وذلك هو الخسران الحقيقيّ، والخسران المبين؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر: ١٥)، ولذلك يحتاج المجاهد نفسه إلى صبرٍ شديدٍ ومرابطةٍ تجعله سيّداً على نفسه، ومتحكّماً بأهوائه؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

ثالثاً: المراقبة والمتابعة

المراقبة هي مراقبة الله تعالى في مطلق أعمالنا، من قولٍ وفعلٍ، أي: أن نعلم أنّ الله تعالى ناظر لأفعالنا، ونظراً لأهميّة هذا الموضوع فسوف يأتي تفصيله في درسٍ لاحقٍ[1]. وأمّا المتابعة فهي نوعٌ من الإدامة للمراقبة، أو قل: بأنّها متابعة ما تمّت مراقبته سلفاً، فإنّ المراقبة وحدها قد تكون قاصرةً عن أداء وظيفتها وتحقيق أهدافها، حيث تحتاج إلى المتابعة والرصد، ولعلّ المراقبة والمتابعة تبدوان عمليّتين سابقتين على المكاشفة والمواجهة والمعاهدة والالتزام، ولكنّ الصحيح هو غير ذلك، فهنالك طوليّةٌ بين هذه الوسائل، والمراقبة والمتابعة تأتي في طول المعاهدة والالتزام، كما أنّ المعاهدة والالتزام تأتيان في طول المكاشفة والمواجهة؛ لأنّ المراقبة والمتابعة إنّما تأتيان لملاحظة ما تقدّم منّا بعد التوبة والمكاشفة والمعاهدة، بمعنى أنّها عمليّة رصدٍ للواقع الجديد، وإلّا ففي زمن الانغماس في الملذّات والتيه في أهواء النفس لا يُتصوّر من الإنسان وجود شيءٍ من المراقبة، ولذلك فالمراقبة إنّما تكون

---

(١) في الدرس التاسع (المشارطة والمراقبة والمحاسبة).

للتائب المكاشف والمعاهد.

إنّ مراقبة الله تعالى لأعمالنا الجديدة [إنّما هي] بعد إعلان التوبة والشروع في عمليّة إصلاح النفس، بالرغم من أنّها واقع حال كلّ إنسانٍ ومخلوقٍ؛ قال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٣)، وهي مراقبةٌ واقعةٌ ولا ريب، ولا دخل للإنسان فيها؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ (الأحزاب: ٥٢)، ولذلك فإنّنا لا نعني هذا النوع من المراقبة، وإنّما نقصد أن يجعل الإنسانُ ربّه عليه رقيباً، بمعنى أنّه يعيش مراقبة الله تعالى لأعماله.

رابعاً: المجاهدة والمحاربة والردع

وهي بمعنى الوقوف بوجه نزوع النفس للشهوات، وتطبيق سياسة مخالفة الهوى؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات: ٤٠)، فإنّ النفس لا ترعوي بسهولةٍ، ولا تكفي فيها المراقبة والمتابعة، وإنّما لابدّ من مجاهدةٍ فعليّةٍ وعمليّة ردعٍ مستمرّةٍ، حتّى تكفّ النفس عن ميلها الغريزيّ للراحة والكسل والتراخي، والانجراف نحو كلّ ما لذّ وطاب من طعامٍ وشرابٍ، ومختلف تعلّقات الدنيا. وهذه المجاهدة العظيمة هي المعنيّة بالدرجة الأساس بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وهنا ينبغي الاعتراف بالضمن أنّ هذه المرحلة الحسّاسة في عمليّة إصلاح النفس، سوف يعاني فيها الإنسان معاناةً شديدةً، لأنّها عمليّةٌ ميدانيّةٌ بحتةٌ، ولذلك فالمجاهدة والمحاربة والردع للنفس أمرٌ صعبٌ

للغاية، ولكنّه ليس مستحيلاً، كما أنّه قد تظهر صعوبته الشديدة في المراحل الأولى، وأمّا بالنسبة لَمن خبرته الحياة، وعرف بعض مكامن النفس، وأدرك مواطن القوّة ومواطن الضعف فيها، فإنّ عمليّة المجاهدة للنفس ستكون يسيرة.

خامساً: المحاسبة والمعاقبة

المحاسبة: هي وسيلة ردعٍ ناجعةٌ، ووسيلةٌ تربويّةٌ ناجحةٌ لإصلاح النفس، ومن خلالها يتمكّن الإنسان من معرفة مستويات أخطائه، ومعرفة نقاط القوّة والضعف في نفسه، ولابدّ أن تكون المحاسبة شموليّةً، وغير مختصّةٍ بأعمالٍ دون أخرى، فلابدّ أن تكون شاملةً لكلّ الأقوال والأفعال، فيحاكم جميع حركاته وسكناته، ولا ريب أنّ هذه الوسيلة الإصلاحيّة ستساعده كثيراً على الخروج من عالم الغفلة، فإنّ المحاسبة على كلّ التصرّفات، والمعاقبة على ما وقع من سوءٍ، تشكّلان مؤشّراً واضحاً على تجاوز الكثير من مراحل ومراتب عالم الغفلة.

مراحل عمليّة لإصلاح النفس

وهنا نحتاج إلى التعرّف على مجموعة أوّليّاتٍ تشكّل مراحل وخطواتٍ عمليّةً للوصول إلى إصلاح النفس بشكلٍ صحيحٍ وكاملٍ ودقيقٍ؛ فإنّ النفس تتشكّل بعدّة صورٍ، ولأجل إصلاحها لابدّ من الكشف عن صورها، ولعلّ السرّ في قصور الكثيرين عن اختراق النفس ونفض غبار المعاصي عنها هو الجهل بها وبقواها وصورها، فتعيى في مواجهتها كلّ محاولاته، وتخيب جميع استنجاداته.

وحيث إنّنا لا نعوّل كثيراً على المعاجز والكرامات في حصول التغيير

الجذريّ ـ لا بمعنى أنّنا لا نؤمن بذلك، بل لأنّ المعاجز والكرامات تمثّل حالاتٍ استثنائيّةً وخروجاً على القاعدة العامّة، فضلاً عن كونها ليست متاحةً لكلّ أحدٍ، وهذا ما لا يمكن التعويل عليه ـ لذلك لابدّ من مراحل عمليّةٍ تمثّل نظاماً ومنهجاً يمكن للجميع تجربته والخروج منه بنتيجةٍ، مع ملاحظة جميع الوسائل الآنفة الذكر. وأمّا المراحل العمليّة التي نحن بصددها، والتي تقدّمت الإشارة لبعضٍ منها، فهي:

المرحلة الأولى: معرفة كون النفس ليست واحدة

وهذه هي الحقيقة التي قد يغفل عنها كثيرون، فالنفس الإنسانيّة ليست واحدةً، أو قل: ليس لها هيئةٌ واحدةٌ. فتارةً تكون النفس أمّارةً بالسوء، وتارةً تكون لوّامةً، وتارةً تكون مطمئنّةً، وهذا التنوّع في النفس إنّما هو تنوّعٌ في التشكّل، فقد تمرّ على الإنسان ظروفٌ مغريةٌ واستسلاميّةٌ تسيطر فيها النفس الأمّارة بالسوء، فتقوده إلى الهاوية، إلّا من انقادت نفسه إليه فلا يستجيب لحثّها على الرذيلة؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (يوسف: ٥٣)، وقد كان التعبير بصيغة المبالغة (أمّارة) على وزن (فعّالة)، أي: كثيرة الأمر بالسوء، فلا تكفّ حتّى يُستجاب لها أو تحلّ الرحمة الإلهيّة فيخفت صوتها، ومن صفات هذه النفس: أنّها تتّخذ سياسة التبرير سلاحاً للوقوف بوجه النفس اللوّامة (التي سيأتي ذكرها) فتجد لكلّ فعلٍ قبيحٍ مخرجاً ومبرّراً، كما هو حال إخوة يوسف عليه السلام حيث ارتكبوا جرمهم وأصرّوا عليه، ولم يعترفوا بجرمهم إلّا بعد سنواتٍ طوالٍ، وما ذلك إلّا لأنّ أنفسهم الأمّارة بالسوء قد نسجت لهم في خيالهم مبرّراتٍ قد ركنوا إليها؛ قال تعالى: ﴿**وَجَاءُوا عَلَى**

قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨)، وكما في قصّة السامريّ الذي اتّخذ لقومه عجلاً يعبدونه من دون الله؛ قال تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (طه: ٩٦)، وإذا لم يكن الإنسان مدمناً على الرذيلة ولم يغلب الرين على قلبه فإنّه سوف تستيقظ فيه النفس اللوّامة، والتي قد تسمّى بالضمير أيضاً، والتي تشكّل نمطاً من الإشراقات الفطريّة، طلباً للعود إلى الحالة السابقة على الخطيئة، ولذلك تمثّل النفس اللوّامة الصورة الإنقاذيّة للإنسان، ولمكانتها الرفيعة قد أقسم بها؛ قال تعالى: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ٢)، ولولا هذه النفس اللوّامة لصار كثيرٌ من الناس يستسيغ المعصية ويلتذّ بها، وقد ناسب أن تكون هذه النفس تؤدّي دورها بنفسٍ طويلٍ، ولذلك فهي كثيرة اللوم، وقد جاءت موازيةً للنفس الأمّارة في صيغة المبالغة، وهنا تحتدم المواجهة بين النفس بوجهها الأمّار بالسوء وبين النفس بوجهها اللوّام على ما يستهويها من ملذّاتٍ وخطايا. فإذا انتصرت النفس اللوّامة، تكون قد اقتربت بها من الطمأنينة، وتحوّلت النفس إلى نفسٍ مطمئنّة.

جديرٌ بالذكر: أنّ النفس اللوّامة لا تقتصر لائمتها على عمل السوء، وإنّما تشمل لائمتها ما يُترك من عمل الخير، ولذلك نجد أنفسنا تحت مطرقة اللوم في فعل الشرّ وفي ترك عمل الخير، ونِعم ما قيل في بيان تنوّع اللائمة فيها: «هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشرّ لِمَ فعلَته، وعلى الخير لِمَ لا تستكثر منه»[1].

---

(١) تفسير القرطبي، مصدر سابق: ج١٩ ص٩٣؛ فتح القدير (الجامع بين فنّي الرواية

وفي صورة الغفلة عن تفعيل النفس اللوّامة فإنّ نسبة الوقوع في المعصية سترتفع شيئاً فشيئاً، ولذلك وردت نصوصٌ كثيرةٌ للتذكير بالذنوب، وللتذكير بالموت؛ لغرض استنفار النفس اللوّامة وجعلها تقف بالمرصاد لإغراءات النفس الأمّارة، فإن سكنت النفس اللوّامة وقع المحذور، ولعلّ المحذور الأكبر هو أن يبلغ بالإنسان العاصي درجةً خطيرةً، هي استمرار المعصية، بل سيكون حريصاً على بلوغها وعدم فواتها، وهذه هي حالة الإدمان، ولذلك لابدّ من الانتباه إلى خطورة الموقف، والعمل على التذكير والمعاتبة المستمرّة للنفس.

يقول الإمام الغزالي في تطويع النفس: «إن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوّامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس المطمئنّة المدعوّة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضيةً مرضيّةً، فلا تغفلنّ ساعةً عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلنّ بوعظ غيرك ما لم تشتغل أوّلاً بوعظ نفسك»[1].

إذن فهنالك ثلاثة منازل للنفس تتنقل بينها: منزل التداعي والسقوط في وحل الخطيئة، فترتدي ثوب الأمّارة بالسوء؛ ومنزل الإنابة والرجوع لدعوة الحقّ سبحانه، فترتدي ثوب اللوّامة على فعل الشرّ وعلى ترك الخير؛ ومنزل الراحة والاستقرار والطمأنينة، فإنّ بيد الإنسان أن يكون في أيّ

والدراية من علم التفسير)، محمّد بن علي بن محمّد الشوكاني: ج٥ ص٣٣٥، نشر: عالم الكتب، بيروت.

(١) إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٤ ص٤١٦.

منزلٍ شاء، باختيارٍ منه وإرادةٍ، ولعلّ أكثر الناس أو الكثير منهم تجدهم متزلزلين بين منزلَين، فإن كانوا من أهل التوبة والإنابة كان مثلهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة: ١٠٢)، وإن كانوا من أهل الخنوع للمعصية والعبوديّة لها، كان مثلهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾ (الأعراف: ١٧٦).

ومن خلال النفس الغالبة على الإنسان، يستطيع أن يعرف ما هو عليه. فإن كانت الأمّارة تاب واعتذر، وإن كانت اللوّامة احتاط وأخذ الحذر، وإن كانت المطمئنّة حمد الله تعالى وشكر.

المرحلة الثانية: الإقرار والاعتراف بالذنب والتقصير

بعد أن يكون القاصد عمليّة إصلاح نفسه قد عرف طبيعة نفسه، وأنّها متلوّنةٌ وذات منازل، لابدّ أن يتمتّع بالشجاعة الكافية للإقرار بما صدر منه من معاصٍ ومن تقصيرٍ متعمّدٍ وغير متعمّدٍ، وبهذا يكون قد باشر عمليّاً بعمليّة الإصلاح، وأمّا إذا غضّ الطرف ـ حبّاً بنفسه أو جهلاً بها ـ فإنّه لن يزداد إلّا سوءاً على سوءٍ، ولذلك لابدّ من عمليّةٍ تنقيبيّةٍ صريحةٍ، ولابدّ من التوكّل على الله تعالى في تقصّي ما وقع في سالف الأيّام، ولا يغترّ الإنسان التائب بأنّ توبته سوف تكون ماحقةً لماضيه الأسود، فإنّ التوبة النصوح ـ على فرض حصولها وتوفّر شروطها ـ إنّما تنتشل الإنسان من براثن واقعه المرير، ولا تعفيه عن تصحيح ما تقدّم منه من معاصٍ، ولذلك من شروط التوبة النصوح: إرجاع الحقوق، لله تعالى وللناس وللنفس، فكلّ تقصير

بحقّ النفس لابدّ من تعويضه، ومَن لم يعوّضه بعد توبته فهنالك إعصارٌ من الحسرات سوف يعصف به؛ قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (الزمر: ٥٦)، فمَن غضّ الطرف عن خطاياه بعد إعلانه التوبة فإنّه من الساخرين بواقع التوبة، وأمّا حقوق الله تعالى وحقوق الناس فمعلومةٌ، وسوف تأتي الإشارة لها في درسٍ لاحقٍ[١]، كما يمكن الوقوف عليها تفصيلاً من خلال التعرّف على الأحكام الشرعيّة.

وعندما يتحقّق الإقرار بالذنب والتقصير في الطاعة فإنّ على هذا المقرّ التائب أن يحذر كثيراً من الوقوع في نكسةٍ جديدةٍ، وأوّل شيءٍ يقوم به هو الاجتناب عن رفقة السوء، فإنّهم أمراضٌ منتقلةٌ ومعديةٌ، كما عليه بقدر ما يستطيع أن يتشبّث برفقاء الخير، وإن اضطرّ أن يكون خادماً لهم.

المرحلة الثالثة: المباشرة بالمعالجة وعدم التسويف

إنّ الإقرار بالذنب والتقصير، لا يكفي لإصلاح النفس، فلابدّ من المباشرة وعدم التسويف في ذلك، والتسويف هو المماطلة وخلق الأعذار الباطلة، والتأخير في المباشرة، كتارك الصلاة فإنّه قد يسمع موعظةً مؤثّرةً في نفسه فيحصل له الداعي للتوبة والإصلاح، ولكنّه يسوّف ذلك بأنّه سوف يلتزم بالصلاة في أوّل شهر رمضان القادم، ومثل هذا المُسوّف سيبقى على ما هو عليه ولو مرّ عليه سبعون شهر رمضان، وكما يقال في الحكمة المتعالية بأنّ اتّحاد العلم والعالم والمعلوم، أو اتّحاد العقل والعاقل والمعقول، إذا لم يقع مصداق صورة الفعل في الخارج فلا ثمرة في البين، أي: إنّ الصورة الذهنيّة

---

(١) في الدرس الثامن (حقيقة التوبة وشروطها).

للتوبة عن انقطاع الصلاة إذا لم تجسّدها ـ أنت العالم بها والمتعقّل لها ـ في الخارج فلا فائدة في العلم بها والتعقّل لها، أي إذا لم يحصل الاتّحاد بين الصورة الذهنيّة والمصداق الخارجيّ لها فلا فائدة في أصل العلم والتعقّل، وكلّ مَن استسلم للتسويف فإنّه لم يحصل عنده ذلك الاتّحاد المطلوب، وإذا ما وقع في التسويف فحصاده الخسران، وسيطلب التوبة في غير أوانها؛ قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (ص: ٣).

وينبغي الأناة في تربية النفس، ومراعاة الضغوط التي تواجهها، فلا نحمّل أنفسنا فوق طاقتنا، ولا نترك الحبل على الغارب، وبعبارةٍ أخرى: «المؤمن العاقل لا يترك لجامها ولا يهمل مقودها، بل يرخي لها في وقتٍ والزمام بيده فما دامت على الجادّة فلا يضايقها بالتضييق عليها، فإذا رآها مالت ردّها بلطفٍ، فإن ونت وأبت فبالعنف»[(١)].

المرحلة الرابعة: رعاية بذور الأخلاق المكتسبة

وهنا تكمن الطريقة العقلائيّة في حفظ كلّ مكسبٍ جديدٍ، فالناس قد اعتادوا على رعاية أموالهم وأملاكهم، وصونها عن عيون الآخرين وأياديهم، وهنا تتأكّد هذه السيرة العقلائيّة في كلّ مكسبٍ جديدٍ في عالم الفضائل والأخلاق، بل لابدّ من المبالغة في الرعاية؛ لأنّ الأخلاق المكتسبة سريعة الزوال، فلابدّ من سقي بذورها، من خلال سماع الموعظة الحسنة، والإكثار من تلاوة القرآن، والتدبّر والتأمّل فيما مضى وما سيأتي، والتحسّر على كلّ موبقةٍ صدرت في سالف أيّام الجاهليّة، ولا ريب أنّ لهذه الأمور تأثيراً عظيماً على تزكية النفس، فلعلّنا ننال في دمعةٍ مسكوبةٍ، ولوعةٍ مبرحةٍ،

---

(١) إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٤ ص٤١٦.

وآهةٍ محرقةٍ، وحسرةٍ موجعةٍ، مقاماً تتبدّل فيه سيئاتنا حسناتٍ، وليس ذلك على الله ببعيدٍ؛ قال تعالى: ﴿إِلاّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان: ٧٠)، أو تُطوى سيّئاتنا في صحيفة العفو والسماح.

ومن تلك الحسنات المكتسبة: الرفقة الحسنة، فلا نفرّط فيها أبداً، كما ينبغي حرق جذور الحنين للماضي التعيس، لاسيّما رفقة السوء، فإنّهم الداء العضال، وهنا لابدّ أن نلتفت إلى أنّنا في هذه المرحلة ـ حفظ مكاسبنا في عمليّة التغيير ـ نعيش حالة التطبّع وليس الطبع، والتطبّع هو عمليّةٌ جهاديّةٌ مستمرّةٌ، فما كسبناه لا زال حالاً سريعة التغيير، ولكي تكون ملكةً لابدّ من التركيز عليها ومواكبتها، فلا ننقطع عن كلّ فضيلةٍ أحرزناها، فالصلاة في أوّل وقتها فضيلةٌ عظيمةٌ، فلا نفرّط فيها، كما لا نلزم أنفسنا بعباداتٍ غير مكتوبةٍ علينا، فإنّ الاقتصاد في العبادة من فضائل السير والسلوك، وفيه ضمانة حفظ ما أحرزناه، ولا يقولنّ أحدٌ لنفسه في أوّل توبته بأنّه سوف يصلّي في كلّ يومٍ مائةً أو مائتي ركعةٍ، فيجد نفسه بعد ذلك محبطاً، وإنّما عليه أن يستعين بالله تعالى على ما أمكنه أداؤه، من دون ضغوطاتٍ تسلتزم النفرة من العبادة، وهنالك درسٌ قرآنيٌّ تربويٌّ عظيمٌ في قصد الميسور، والابتعاد عن المعسور؛ قال تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ (المزمّل: ٢٠)، وشيئاً فشيئاً تتحوّل الأحوال إلى ملكاتٍ، فيصير القرآن كلّه ميسوراً لقارئه، وقد قيل بأنّ طريق الألف ميلٍ يبدأ بخطوة، وقد صحّ ما قيل: إنّ كثرة المزاولات تعطي الملكات، فتبقى للنفس هيئةٌ راسخةٌ وملكةٌ ثابتةٌ.

ولا ينبغي التوقّع بحصول التغيير المطلوب بعد التوبة بأيّامٍ وأسابيع وشهورٍ، فإنّ رين الذنوب لا تمحقه التوبة، كما أسلفنا، فنحتاج أن نذوق ألم

الطاعة بقدر ما ذقنا من حلاوة المعصية، وليس أمامنا سوى التوكّل على الله تعالى، والاستعانة بالصبر والصلاة؛ قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾ (البقرة: ٤٥)، وقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**مَن يتصبّر يُصبِّره الله، ومَن يستغنِ يُغنِه الله، ومَن يستعفف يعفّه الله، وما أجد لكم رزقاً أوسع من الصبر**»[١].

وعليه فإذا أدركنا شيئاً من الحضور والخشوع، فذلك هو الفرج القريب لتطهير القلب من أدرانه.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (المائدة: ١٠٥)، بمعنى: أنّ الوقوف على الجادّة ولزوم الطريقة الحقّة والمحجّة البيضاء هو الهدف، فإن تحقّق فلا يضرّك مَن قصر باعه عن الوصول لذلك، وفي ذلك إشارةٌ إلى ترك رفقة السوء ممّن بقوا على ضلالتهم.
- قال الإمام الصادق عليه السلام: «**ما عمل رجلٌ عملاً بعد إقامة الفرائض، خيراً من إصلاحٍ بين الناس؛ يقول خيراً أو يتمنّى خيراً**»[٢].
- قال الغزالي: «اعلم أنّ أعدى عدوّك: نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلقت أمّارةً بالسوء، ميالةً إلى الشرّ، فرّارةً من الخير، وأُمرتَ بتزكيتها

---

(١) مسند أحمد، مصدر سابق: ج٣ ص١٢؛ سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٣ ص٢٥٢.

(٢) أمالي الطوسي، مصدر سابق: ص٥٢٢ ح٥٩؛ الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، محمّد بن الحسن الحرّ العاملي: ج٢ ص٢٧٩ ح١، تحقيق وإشراف: محمّد بن محمّد الحسين القائيني، نشر: مؤسّسة المعارف الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، إيران.

وتقويمها... ومنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذّاتها»[١].

خلاصة الدرس

- السير الفوضويّ في إصلاح النفس لا يزيدنا إلّا بُعداً عن الهدف.
- تبتني وسائل إصلاح النفس على أصلٍ لابدّ من تحقيقه في رتبةٍ سابقةٍ، وهو الرغبة الصادقة في الإصلاح والتغيير.
- وسائل إصلاح النفس: المكاشفة والمواجهة مع النفس، والمعاهدة والالتزام، والمراقبة والمتابعة، والمجاهدة والمحاربة والردع، والمحاسبة والمعاقبة.
- المواجهة الجديّة مع النفس تحتاج إلى إرادةٍ عاليةٍ.
- المكاشفة والمواجهة من أهمّ الوسائل العقلائيّة في الإصلاح، بل هي دليلٌ عمليٌّ على عقلانيّة الإنسان.
- إذا ما وقعت من التائب هفوةٌ في طريق الإصلاح فلا يتّهم نفسه بالفشل؛ فإنّ النجاح الحقيقيّ عادةً لا يكون من أوّل محاولةٍ.
- الإنسان المصلح لنفسه قد يُصيبه غرورٌ أو عُجبٌ فيظنّ أنّه قد تجاوز كامل أخطائه، فيقع في أخطاءٍ جديدةٍ من دون التفاتٍ منه.
- التنصّل عن هذا الالتزام هو نوعٌ من الانهزام، بل هو شبيهٌ بتولية الأدبار في المواجهة مع الشيطان.
- من ثمرات الوفاء بالعهد: نيل التوفيق الأصغر في الدنيا، وهو المضيّ في عمليّة الإصلاح، ونيل التوفيق الأكبر، وهو الدخول إلى الجنّة.
- الجهاد الأصغر يمثّل مواجهةً محدودةً مهما اتّسع ظرفها، بخلاف الجهاد

---

(١) غرر الحكم، مصدر سابق: ص٢٣٧، الأحاديث (٤٧٦١، ٤٧٦٢، ٤٧٦٨، ٤٧٦٩، ٤٧٧٢، ٤٧٧٤).

الأكبر فالمعركة فيه مستمرّةٌ، والخسارة فيه لا تعوّض أبداً.

- المراقبة قاصرةٌ عن تحقيق أهدافها، ولذا فهي تحتاج إلى المتابعة.
- مراقبة الله تعالى تعني أن يجعل الإنسانُ ربّه عليه رقيباً.
- مراحل إصلاح النفس: معرفة كون النفس ليست واحدةً، والإقرار والاعتراف بالذنب والتقصير، والمباشرة بالمعالجة وعدم التسويف، ورعاية بذور الأخلاق المكتسبة.
- النفس الإنسانيّة ليست على هيئةٍ واحدةٍ، فتارةً تكون أمّارةً بالسوء، وتارةً لوّامةً، وتارةً مطمئنّةً، وهذا التنوّع فيها إنّما هو تنوّعٌ في التشكّل.
- النفس الأمّارة كثيرة الأمر بالسوء، فلا تكفّ حتّى يُستجاب لها أو تحلّ الرحمة الإلهيّة فيخفت صوتها.
- النفس اللوّامة تؤدّي دورها بنفسٍ طويلٍ، ولذلك فهي كثيرة اللوم، وقد جاءت موازيةً للنفس الأمّارة في صيغة المبالغة.
- النفس اللوّامة تكون لائمتها على عمل السوء، وما يُترك من عمل الخير.
- للنفس ثلاثة منازل تتنقل بينها، منزل التداعي والسقوط في وحل الخطيئة، ومنزل الإنابة والرجوع للحقّ، ومنزل الراحة والطمأنينة.
- لا يغترّ التائب بأنّ توبته ستكون ماحقةً لماضيه، فإنّ التوبة النصوح تنتشله من براثن واقعه المرير، ولا تعفيه عن تصحيح ما تقدّم منه.
- ينبغي الأناة في تربية النفس، ومراعاة الضغوط التي تواجهها، فلا نحمّلها فوق طاقتها، ولا نترك الحبل على الغارب.
- الأخلاق المكتسبة سريعة الزوال، فلابدّ من سقي بذورها، من خلال سماع الموعظة الحسنة، والإكثار من تلاوة القرآن، والتأمّل في الحياة.
- لا ينبغي التوقّع بحصول التغيير المطلوب بعد التوبة بأيّامٍ وأسابيع

وشهورٍ، فإنّ رين الذنوب لا تمحقه التوبة، فنحتاج أن نذوق ألم الطاعة بقدر ما ذقنا من حلاوة المعصية.

مذاكرة

- إلى أيّ شيءٍ ينتهي بنا السير الفوضويّ في إصلاح النفس؟
- ما هو الأصل الذي تبتني عليه وسائل إصلاح النفس؟
- ما هي وسائل إصلاح النفس؟
- إلى أيّ شيءٍ تحتاج المواجهة الجديّة مع النفس؟
- كيف يتعامل التائب إذا ما وقعت منه هفوةٌ في طريق الإصلاح؟
- ما هو الأمر الشبيه بتولية الأدبار في المواجهة مع الشيطان؟
- ما هي ثمرات الوفاء بالعهد في الدنيا وفي الآخرة؟
- ما هو نوع الجهاد الذي تكون فيه المعركة مستمرّةً؟
- إلى أيّ شيءٍ تحتاج المراقبة لتحقيق أهدافها؟
- ماذا تعني مراقبة الله تعالى في أفعالنا؟
- ما هي المراحل الأربع في عمليّة إصلاح النفس؟
- ماذا يعني قولنا بأنّ النفس الإنسانيّة ليست واحدةً؟
- ما هي أقسام النفس الإنسانيّة؟
- ما هو وجه المشابهة بين النفس الأمّارة والنفس اللوّامة؟
- هل تقتصر لائمة النفس اللوّامة على عمل السوء؟ وضّح ذلك.
- ما هي المنازل الثلاثة للنفس التي تتنقل بينها؟
- ما هو دور التوبة النصوح؟
- ما هو الطريق لحفظ الأخلاق المكتسبة السريعة الزوال؟
- ماذا يعني أن نذوق ألم الطاعة بقدر ما ذقنا من حلاوة المعصية؟

الدرس السادس

دررنبويّة في طريق إصلاح النفس

- أهداف الدرس
- تمهيد
- درر نبويّة في توصيف النفس وأثرها
  1. معرفة النفس طريق معرفة الحقّ
  2. سخط النفس طريق موافقة الحقّ
  3. هجر النفس طريق الصلة بالحقّ
  4. عصيان النفس طريق طاعة الحقّ
  5. نسيان النفس طريق ذكر الحقّ
  6. البعد عن النفس طريق القرب من الحقّ
  7. الوحشة من النفس طريق الأُنس بالحقّ
  8. الاستعانة بالحقّ طريق تحقّق الوحشة من النفس
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- أهمّ النكات المعرفيّة والمعنويّة في حديث خصائص النفس.
- كون معرفة الحقّ وموافقته والصلة به متعلّقاً بإصلاح النفس.
- كون عصيان النفس ونسيانها والابتعاد عنها طريقاً لطاعة الحقّ.
- أنّ الوحشة من النفس طريق الأُنس بالحقّ.
- الاستعانة بالحقّ طريق تحقّق الوحشة من النفس.

تمهيد

بعد أن تحدّثنا عن النفس والفطرة الإنسانيّة، وضرورة إصلاح النفس، وعلاقة إصلاح النفس بالمعارف الإلهيّة، والمقدّمات العلميّة والعمليّة الواقعة في طريق إصلاح النفس، والوسائل والمراحل العمليّة لهذا الإصلاح، نريد أن نعكس تلك المفاهيم من خلال حديثٍ نبويٍّ شريفٍ خاصٍّ ببيان وظيفتنا تجاه النفس، للوصول إلى معرفة الله تعالى والأنس به، وهو الحديث الذي نصطلح عليه بحديث الدرر النبويّة، والذي يُوجز فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله أهمّ أركان ومراحل جهاد النفس وتزكيتها، وقد قسّمنا الحديث بعد نقله إلى فقراتٍ، مبيّنين فيها النكات المعرفيّة والمعنويّة.

درر نبويّة في توصيف النفس وأثرها

سنقف عند أهمّ النكات المعرفيّة والمعنويّة التي وردت في حديثٍ نبويٍّ تعرّض إلى أدوار النفس، وعلاقتها الوطيدة بالطريق إلى معرفة الله تعالى والأنس به، وغير ذلك من الأمور التي لها علاقةٌ مباشرةٌ بإصلاح النفس:

«دخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله رجلٌ اسمه مجاشع.

فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى معرفة الحقّ؟

فقال عليه السلام: **معرفة النفس.**

فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى موافقة الحقّ؟ قال: **سخط النفس.**

فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى وصل الحقّ؟ قال: **هجر النفس.**

فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى طاعة الحقّ؟ قال: **عصيان النفس.**

فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى ذكر الحقّ؟ قال: **نسيان النفس.**

فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى قرب الحقّ؟ قال: **التباعد عن النفس.**

فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى أنس الحقّ؟ قال: **الوحشة من النفس.**

فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى ذلك؟ فقال : **الاستعانة بالحقّ على النفس**»[(١)].

إنّ هذه الدرر النبويّة تختصر أمامنا جميع مراحل جهاد النفس وتزكيتها، فكلّ سؤالٍ وجوابٍ خاصٍّ به، يكتنه مرحلةً حسّاسةً من مراحل تزكية النفس، حيث تبدأ هذه الدرر النبويّة ببيان كون معرفة النفس هي الطريق لمعرفة الله تعالى، وتنتهي بأنّ الاستعانة بالله تعالى هي الطريق للخروج من حاكميّة النفس، وبين طريقيّة المعرفة وطريقيّة الخروج من حكومة النفس خطواتٌ تزكويّةٌ كثيرةٌ. ونظراً لأهميّة هذه المراحل ودقّتها فقد ناسب أن نفرد لها درساً تكون هي المحور الحقيقيّ فيه، وسوف نقف عند أهمّ فقرات الحديث لتحليلها.

---

(١) عوالي اللآلئ، لابن أبي جمهور الأحسائيّ: ج١ ص٢٤٦ ح١، تحقيق: البحّاثة الشيخ مجتبى العراقي، نشر: مطبعة سيّد الشهداء، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، قم المقدّسة؛ محاسبة النفس، مصدر سابق: ص١١.

الفقرة الأولى: معرفة النفس طريق معرفة الحقّ

(قال: كيف الطريق إلى معرفة الحقّ؟ فقال عليه السلام: **معرفة النفس**).

وقد مرّ بنا هذا المعنى على مستويين، فالنفس هي المفتاح المعرفيّ والمعنويّ للاقتراب من معرفة الحقّ سبحانه، وهذه المعرفة وإن كانت تحصل بالقدر الذي حصل من معرفة النفس إلّا أنّه كافٍ في تغيير خريطة التفكير والسلوك لصاحب هذه المعرفة الحقّة، لأنّها معرفةٌ تتجاوز مستوى الصورة والشكل، لأنّها معرفةٌ تُسجَّل فيها نقطة الشروع والبداية ولكن تُترك النهايات والخواتيم معلّقةً، فتكون أشبه بباب علمٍ ينفتح منه ألف بابٍ[1].

الفقرة الثانية: سخط النفس طريق موافقة الحقّ

(قال: يا رسول الله كيف الطريق إلى موافقة الحقّ؟ قال: **سخط النفس**).

إنّ أهواء النفس لا تستقيم مع مقتضيات الجادّة والمحجّة البيضاء؛ لأنّ الأهواء هي بقوّة الإله المعبود لصاحبها، بل هي إلهٌ يُعبد ويُطاع من دون الله تعالى، حتّى وإن كان ذا علمٍ؛ قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ (الجاثية: ٢٣)، فتسقط كلّ رسوم العلم والعمل؛ لأنّ الحاكم فيه لا يعرف معنىً للعلم الإلهي، ولا يعرف معنىً للعمل الصالح، وبذلك ستقع الموافقة للشيطان في إغراءاته، والمخالفة للحقّ،

---

(١) قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله علّمني باباً من العلم ففَتح لي ذلك الباب ألف باب**». بصائر الدرجات الكبرى، محمّد بن الحسن الصفّار: ص٣٢٣ ح٥، تحقيق: ميرزا محسن باغي، نشر: مؤسّسة الأعلمي، ١٤١٤هـ، طهران؛ الخصال، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي: ص١٨٩ ح٢٦١، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: جامعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة.

ولذلك في مخالفة أهواء النفس وسخطها تتحقّق الموافقة للحقّ، فإنّ الأهواء لا تجتمع مع إرادة الحقّ، وما وراء الحقّ إلّا الضلال، ولا يعني سخط النفس العمل على قتل القوى الغريزيّة فيها، وإنّما المراد هو كبح جماحها، والإمساك بلجامها، وهذا هو أوّل الخلاص من عبوديّة الهوى، ولابدّ من إدامة السيطرة على هذا الموقف، فإنّ الشيطان لا ينتظر من الإنسان أن تتحقّق عنده تمام الغفلة لينقضّ عليه، وإنّما يكفيه أن يجد فرصةً واحدةً قد غفل فيها الإنسان وأطاع هواه، فينقضّ عليه الشيطان ويبُدّل أمنه خوفاً، وطاعته معصيةً، ويقينه شكّاً.

الفقرة الثالثة: هجر النفس طريق الصلة بالحقّ

(قال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى وصل الحقّ؟ قال: **هجر النفس**).

إذن فالنفس والحقّ على طرفَي نقيضٍ، وبينهما نوعٌ من التناسب العكسيّ، فكلّما اقتربنا من النفس نكون قد ابتعدنا عن الحقّ، والعكس بالعكس، وهذا التناسب العكسيّ يكشف عن قوّة التنافر بين واقعيّة الأهواء النفسيّة وواقعيّة الحقّ، وعدم إمكان التوفيق بينهما، فهما ضرّتان، كالدنيا والآخرة، وقد جاء في الخبر عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**إنّ الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان وسبيلان مختلفان، فمَن أحبّ الدنيا وتولّاها أبغض الآخرة وعاداها. وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماشٍ بينهما، كلّما قرُب من واحدٍ بعُد من الآخر، وهما بعد ضرّتان**»[1]، فمَن أراد الصلة بالحقّ عموماً وبالله تعالى خصوصاً فإنّه لا يمكنه تحقيق ذلك وهو متعلّقٌ بهوى نفسه، وعليه فلابدّ من هجرة النفس، وهجرة النفس تعني عدم الانقياد لها، لا بمعنى التخلّص منها.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٢٣، رقم (١٠٣).

الفقرة الرابعة: عصيان النفس طريق طاعة الحقّ

(قال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى طاعة الحقّ؟ قال: **عصيان النفس**).

وفي ضوء التناقض المتصوّر بين الحقّ وهوى النفس، فإنّه لا يمكن أن تتحقّق الطاعتان في آنٍ واحدٍ؛ بمعنى: أنّ تحقّق واحدٍ منهما يعني انتفاء الآخر، ولذلك طاعة الحقّ سبحانه تكون عن طريق عصيان النفس، كما أنّ عصيان النفس طريقٌ لطاعة الحقّ، وطاعة النفس عصيانٌ صريحٌ لطاعة الحقّ، والمقصود من عصيان النفس هو الكفّ عن الاستجابة لمتطلّباتها، إلّا فيما وافق الحقّ منها، فإنّ الهدف الحقيقيّ ليس هو عصيان النفس، وإنّما إصابة الحقّ سبحانه، وإن وقع نوعٌ من الموافقة لبعض متطلّبات هوى النفس مع طاعة الحقّ أو لم يتقاطع مع طاعة الحقّ، فلا ضير في هذه الطاعة الجزئيّة، كما هو حال الجائع والعطشان، فإنّ الاستجابة لهوى نفسه بجلب الطعام والشراب له لا يُعدّ معصيةً للحقّ أبداً، إلّا إذا كان الطعام والشراب فيهما شبهةٌ شرعيّةٌ.

الفقرة الخامسة: نسيان النفس طريق ذكر الحقّ

(قال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى ذكر الحقّ؟ قال: **نسيان النفس**).

ظاهرٌ من جميع فقرات هذا الحديث النبويّ: وجود مقارنة بين الأضداد، بل هي شبيهةٌ للمقارنة بين النقائض، فوجود أحد الطرفين عادمٌ لوجود الآخر، ولكنّهما ضمن موضوعين مختلفين تماماً ولا يجتمعان، وهما الحقّ وأهواء النفس، وهكذا تستمرّ السلسلة لتصل إلى ذكر الحقّ النافي لذكر النفس، ونسيان النفس الموجد لذكر الله تعالى، فبينهما تناسبٌ عكسيٌّ وليس طرديّاً[(١)]، والمراد من الذكر والنسيان هو قصر الالتفات إلى الحقّ

(١) التناسب الرياضيّ إمّا أن يكون طرديّاً أو عكسيّاً، والطرديّ يعني: أنّ حصول أيّ زيادةٍ

تعالى، وليس المراد إدامة الذكر اللفظيّ، ولا حتّى القلبيّ، وإنّما انقطاعٌ عن أهواء النفس، ومقاومة الرغبات الجامحة لها، والاستجابة للتشريعات الإلهيّة والأخلاق القرآنيّة والنبويّة، فإنصاف الناس من نفسك هو ذكرٌ لله تعالى ونسيانٌ للنفس، ومواساة الفقراء بالمال والطعام هو ذكرٌ لله تعالى ونسيانٌ للنفس، والصلاة في أوّل وقتها هو ذكرٌ للحقّ ونسيانٌ للنفس، وهكذا.

الفقرة السادسة: البعد عن النفس طريق القرب من الحقّ

(قال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى قرب الحقّ؟ قال: **التباعد عن النفس**).

حيث إنّ وجود الله تعالى مجرّدٌ محضٌ، فإنّ القرب والبعد منه معنويٌّ وليس مادّيّاً، وبمقتضى المقابلة بين القرب من الله والتباعد عن النفس هو أن يكون القرب والبعد من النفس معنويّاً أيضاً وليس مادّيّاً، وبالتالي فبالقدر الذي نقترب من الله تعالى نكون قد ابتعدنا عن النفس، والعكس بالعكس تماماً، ولكي نتحسّس معنويّاً هذا القرب الإلهي الممدوح، والبعد النفسيّ الممدوح، علينا أن نتحقّق من الجهة التي نلتفت إليها في ساعات فراغنا، فهل هي النفس وأهواؤها أم هي جهة الحقّ سبحانه، وقد كان أحد الأولياء يرى أنّ هنالك طريقاً واضحاً للكشف عن مساحة قربنا وبعدنا من الحقّ أو من النفس، وهو ضبط الجهة التي تسيطر علينا عندما نريد النوم، أو في مطلق خلواتنا، فهل يطرأ على ألسنتنا وقلوبنا ذكر الله تعالى أم تفاصيل الدنيا؟ فإن

في طرفٍ لازمها حصول زيادةٍ في الطرف الآخر، كما في العمل الصالح والأجر عليه، فكلّما ازداد العمل الصالح ازداد الأجر، وأمّا التناسب العكسيّ فإنّه يعني أنّ الزيادة في طرفٍ تعني النقصان في الطرف الآخر، كما هو الحال في النسبة بين العلم والجهل، فكلّما ازداد العلم عند أحدٍ قلّ جهله، وفي ضوء هذه النسبة الرياضيّة نلاحظ أنّ كلّ طرفين في كلّ فقرةٍ من فقرات الحديث النبويّ ـ أعلاه ـ بينهما تناسبٌ عكسيٌّ وليس طرديّاً.

كانت الدنيا بهمومها وغمومها وملذّاتها الفانية، فنحن على تماسٍّ شديدٍ مع النفس، وإن كان ذكر الله يجرى على ألسنتنا وقلوبنا، فنحن على تماسٍّ شديدٍ مع الله تعالى، وهذا الحال ليس دائماً، فقد نكون يوماً كذا وآخر كذا، فنكون كلّ يوم في شأنٍ، وهذا التحوّل والتبدّل يمكن الكشف عن خلفيّاته من كون الإنسان كثير التذبذب، وهذا التذبذب إذا كان مستديماً فإنّه يمثّل حالةً مرضيّةً خطيرةً؛ قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٤٣)، والله تعالى غيورٌ لا يرضى بشريكٍ له البتّة، فإذا لم نسارع للمراقبة والمواجهة والمكاشفة والمحاسبة فإنّنا سنكون نهباً لأهواء النفس، بل سنكون لها كعصفٍ مأكولٍ[1]، وكلّما عمّ السكوت عن السير السلبيّ للنفس فإنّ في ذلك تعميقاً وترسيخاً لحالة البعد عن الله تعالى، وكلّما ازدادت مراقبتنا ومواجهتنا للنفس ازددنا قرباً من الله تعالى، وفي هذه المواجهات سنكتشف ما هو كامنٌ في قلوبنا ونفوسنا، هل هو حبّ الله تعالى أم هو حبّ الدنيا؟ وعندئذٍ سنتدبّر في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّه﴾ (البقرة: ١٦٥).

الفقرة السابعة: الوحشة من النفس طريق الأُنس بالحقّ

(قال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى أنس الحقّ؟ قال: **الوحشة من النفس**).

إنّ التناسب العكسيّ حاكمٌ بين طرفَي الأُنس، فكلّما ازداد الأُنس بالله تعالى

---

(١) مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل: ٥). أي: كورق زرعٍ أكلته الدوابّ وداسته وأفنته. (تفسير الجلالين، لجلال الدين محمّد بن أحمد المحلّي وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي: ص٨٢٢، نشر: دار المعرفة، بيروت).

قلّ الأُنس بالنفس، والعكس بالعكس تماماً، ولذلك نُهينا عن الاستغراق في الدنيا وملذّاتها، فإنّنا بقدر ذلك الاستغراق نكون ابتعدنا عن الله تعالى، ونكون قد فقدنا الأُنس بالله تعالى.

يقول الغزالي: «فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله، ولا يؤتى أحدٌ من الدنيا شيئاً إلّا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة، كما أنّه لا يقرب الإنسان من المشرق إلّا ويبعد بالضرورة من المغرب»[1]، ومنه يتّضح وجه الأُنس بالقرآن وعدمه، فهنالك مَن يأنس كثيراً بقراءة القصص والحكايات الفارغة ولا يجد في قلبه أُنساً عند تلاوة كتاب الله، وهنالك العكس تماماً، وما ذلك إلّا لدرجة التناسب بين الأُنس بالله تعالى وبين أهواء النفس، وهنالك قاعدةٌ موثّقةٌ بالوجدان والعمل، وهي الاشتغال بالأمور المادّيّة الدنيويّة، والاشتغال بالأمور المعنويّة الأخرويّة، فالأولى تورث الأُنس بالدنيا والوحشة من الآخرة، والثانية على العكس تماماً، ولذلك نجد الأولياء والصالحين يشتدّ عندهم الأُنس بالله تعالى وتشتدّ عندهم الوحشة من الدنيا؛ لأنّهم نالوا من المقامات المعنويّة ما جعلتهم لا يرضون بغير الله تعالى بدلاً، بل لا معنى للأُنس بغيره.

يقول الغزالي: «من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة، وسقط محلّ الخلق من قلبه، وانحلّ عنه داعية الرياء، وتذلّل له منهج الإخلاص»[2]، ولكنّ الغالب على الناس هو عدم حصول مثل هذه المكاشفات المعنويّة للعوالم الغيبيّة، نتيجة

(١) إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٤ ص٣١٦.

(٢) المصدر السابق: ج٣ ص٣١٢.

ابتلائهم بالاشتغال بالأمور المادّيّة والاستغراق فيها، والإنسان مادّي النزعة، يميل بغرائزه إلى المعطيات الماديّة، فتكون النتيجة الحتميّة هي قلّة الأُنس بالله تعالى، ولذلك عليهم أن يسلكوا موارد الأُنس بالله تعالى، ويتطبّعوا بها، وموارد الأُنس بالله تعالى كثيرةٌ، أهمّها: الخشوع في الصلاة والدعاء، وإدامة ذكر الله تعالى في الخلوات، والحرص على قيام الليل، والعلقة الوثيقة بكتاب الله.

ومن علامات الأُنس بالله تعالى: الشعور بلذّة المناجاة، الملازم للشعور بنوعٍ من النفرة من الخلق؛ قال الغزالي: «فإن قلت: فما علامة الأُنس؟ فاعلَم: أنّ علامته الخاصّة ضيق الصدر من معاشرة الخلق، والتبرّم بهم»[(١)]، أي: علامة الأُنس بالله تعالى هي أنّ القلب يعزف عمّا سواه، وهذا لا يعني أنّه يُبدي الانزعاج من الناس والتبرّم بهم، فذلك من سوء الأدب الذي لا يليق بالمسلم العادي، فكيف بمَن بلغ مرتبة الأُنس بالله تعالى، وإنّما هو لا يجد في قلبه رغبةً للقاء أحدٍ غير الله تعالى.

ولصاحب (قوت القلوب) كلمةٌ جليلةٌ في ذلك، يقول فيها: «وعلامة أُنسه بالله: استلذاذ الخلوة، وحلاوة المناجاة، واستفراغ كلّه حتّى لا يكاد يعقل الدنيا وما فيها»[(٢)]، وقد قال بعض الحكماء: «عجباً للخلائق كيف أرادوا بك بدلاً، وعجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك»[(٣)].

---

(١) إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٤ ص٤٣٠.

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب محمّد بن عليّ بن عطيّة المكّي: ص٤٦٥، منشور في موقع الورّاق، وفي المكتبة الشاملة.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني: ج٤ ص٣٠١، نشر: دار الكتب العلميّة، بيروت؛ ومنشور في موقع الورّاق، وفي المكتبة الشاملة؛ إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٤ ص٤٣٠.

وقد ورد تصديق هذا التناسب العكسيّ بين الأُنس بالله تعالى وبين الأُنس بالنفس والدنيا في أخبارٍ كثيرةٍ، منها قول أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**مَن استوحش من الناس أنس بالله سبحانه**»[١]، وقول الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام: «**مَن أنِس بالله استوحش من الناس، وعلامة الأُنس بالله الوحشة من الناس**»[٢]، وعن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**مَن انفرد عن الناس أنِس بالله سبحانه**»[٣]، ومَن يحصل له الأُنس بالله تعالى استوى عنده الغنى والفقر، والحياة والموت، والليل والنهار؛ لا بمعنى عدم الشعور بذلك، وإنّما عدم التأثّر أو الانجذاب لذلك، لأنّه مع الله تعالى، ومَن وجد الله تعالى وجد كلّ شيءٍ معه، ومَن فقد الله تعالى فقد كلّ شيءٍ[٤]، ولذلك يكون أُنسه بالله تعالى متجلّياً ولو كان يعيش على قمم الجبال أو في العرصات القفار.

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**ما من مؤمنٍ إلّا وقد جعل الله له من إيمانه أُنساً يسكن إليه، حتّى لو كان على قُلّة جبلٍ لم يستوحش**»[٥].

وقد كان ذو النون المصريّ يقول: «من دلائل أهل المحبّة لله: أن لا يأنسوا بسوى الله، ولا يستوحشوا مع الله؛ لأنّ حبّ الله إذا سكن القلب أنس بالله؛ لأنّ الله أجلّ في صدورهم من أن يحبّوه لغيره»[٦].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق: ص٤٣٧.

(٢) عدّة الداعي ونجاح الساعي، للشيخ أحمد بن فهد الحلّي: ص١٩٤، تحقيق: أحمد الموحّدي القمّي، نشر: مكتبة الوجداني، قم.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: ص٣١٩ ح٧٣٧٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) عدّة الداعي ونجاح الساعي، مصدر سابق: ص٢١٨.

(٦) تاريخ بغداد، أحمد بن عليّ الخطيب البغدادي: ج٤ ص٤٥٩ رقم (٢٢٧٢)، تحقيق:

وأخيراً هنالك قاعدةٌ عمليّةٌ لتحصيل الأُنس بالله تعالى، وهي أنّ الخروج من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة يورث الأُنس بالله تعالى(١).

الفقرة الثامنة: الاستعانة بالحقّ طريق تحقّق الوحشة من النفس

(قال: كيف الطريق إلى ذلك؟ فقال: **الاستعانة بالحقّ على النفس**).

وهنا يُعطينا رسول الله صلّى الله عليه وآله قاعدةً لها جذورٌ قرآنيّةٌ، للوصول إلى الأُنس بالحقّ وحده، والوحشة من النفس، فالإنسان شديد التعلّق بنفسه، شديد الحبّ لها، وكثير الاستجابة لها، فكيف يتمكّن الإنسان من اختراق هذه السواتر المتينة من الحبّ والتعلّق والاستجابة ليحلّ محلّها الوحشة والنفرة؟ إنّه أمرٌ عسيرٌ، فما هو الطريق لذلك؟

وهنا لابدّ أن نكون صادقين في تحديد ما نريد، فهل ما نريده فعلاً هو الأُنس بالله تعالى؟ وهل ندرك أنّ ثمن ذلك هو التضحية بالأنس بالنفس، وإبداله بالوحشة منها؟ فالإنسان قد يريد لأوّل وهلةٍ هذا النوع من الأُنس بالله تعالى، ولكنّه يجد نفسه محبطاً وعاجزاً في أوّل حركةٍ باتّجاه ذلك الأُنس الإلهي، ولذا لابدّ أن نكون واضحين فيما نريد، وواضحين فيما نحبّ.

فإذا كنّا مدركين للمقصد الكبير، وعازمين على تحصيله، فلابدّ أن ندرك أنّ هذا الأمر يتوقّف بالدرجة الأساس على الاستعانة بالله تعالى، فإنّ النفس

مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، بيروت.

(١) هنالك حديثٌ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، يشير إلى هذه القاعدة العمليّة لتحصيل الأُنس بالله تعالى، وهو قوله: «**مَن خرج من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة آنسه الله عزّ وجلّ بغير أنيس وأعانه بغير مالٍ**». كنز الفوائد، للمحدّث العلّامة أبي الفتح محمّد بن علي الكراجكي (ت: ٤٤٩هـ): ص٥٦، نشر: مكتبة المصطفوي، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، قم؛ بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٧٢ ص٣٥٩ ح٧٥.

بأهوائها تدافع عن وجودها، والدنيا تدافع عن تفاصيل ملذّاتها، وليس لنا أمام هذا الدفاع المستميت، بل والهجوم الكاسح من النفس والدنيا إلّا الثبات والصمود في المواجهة، وزادنا الحقيقيّ هو الاستعانة بالله تعالى، ولذلك يدعونا الرسول صلّى الله عليه وآله لتحقيق الأُنس بالله تعالى والوحشة من النفس: أن نستعين بالله تعالى وحده، فنحن بكلّ ما نمتلكه من طاقاتٍ كنّا صرعى للنفس والدنيا، والآن نريد العتق من نير عبوديّة النفس وأهوائها، والعون الحقيقيّ هو ما نطلب الأُنس به، وهو الله تعالى، والله خير مُعينٍ.

والسرّ في حصر الاستعانة بالله تعالى وحده في مثل هذا الأمر هو أنّ الطريق لهذا الأمر العظيم محفوفٌ بالمخاطر، لأنّه مصداقٌ للصراط المستقيم، وقد حكى لنا القرآن تهديد الشيطان لبني الإنسان في قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (الأعراف: ١٦).

وأمّا الجذر القرآني لهذه الاستعانة بالله تعالى وحده فهو أنّ طلب الأُنس بالله عبادةٌ عظيمةٌ خالصةٌ، والعبادة الخالصة تحتاج إلى الاستعانة بالله تعالى وحده؛ قال تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ (الفاتحة: ٥).

وبذلك نكون قد خرجنا من هذه الدرر النبويّة في فقراتها الثمان بثمراتٍ كثيرةٍ، وخلاصتها: أنّ النفس تقع في قبال الحقّ سبحانه، فهي الحاجب، وهي المانع، وهي الطارد، ولا سبيل لنا سوى مجاهدتها، والاستعانة بالله تعالى على ذلك، وحريٌّ بنا أن نخوض هذه التجربة الجهاديّة، وأن نخرج منها منتصرين ببركة الاستعانة بالله تعالى على أنفسنا.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي**

غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣)، فعلينا أن نتّهم أنفسنا، وأن لا نُخدع بوسوستها، فهنالك وسوسةٌ شيطانيّةٌ ووسوسةٌ نفسانيّةٌ، وما يخدعنا هو حبّنا لأنفسنا، فننظر لها بعين الرضا لا بعين السخط، فإذا ما أُعتقنا من هذا الحبّ المشبوه والداء العضال، سنكون على بصيرةٍ من خداع النفس، وعلى درايةٍ كبيرةٍ في كيفيّة مواجهتها.

- جاء في دعاءٍ لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**اللّهُمَّ إنّك آنس الآنسين لأوليائك... إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك، وإن صُبّت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك**»[1]. أي: إنّ الأولياء هم الأشدّ أُنساً بالله تعالى؛ لأنّهم هجروا أنفسهم، ولم يعودوا يلتفتون إليها، وصار الله تعالى هو أكبر همّهم، لا يبغون غير رضاه، ولا يرضون بغيره بدلاً.

خلاصة الدرس

- النفس هي المفتاح المعرفيّ والمعنويّ للاقتراب من معرفة الحقّ سبحانه.
- أهواء النفس لا تستقيم مع مقتضيات الجادّة والمحجّة البيضاء.
- الأهواء النفسانيّة هي لصاحبها إلهٌ يُعبد من دون الله تعالى.
- الأهواء النفسانيّة لا تجتمع مع إرادة الحقّ، وما وراء الحقّ إلّا الضلال.
- الشيطان لا ينتظر تمام الغفلة لينقضّ علينا، وإنّما يكفيه فرصةٌ واحدةٌ.
- إذا انقضّ الشيطان على النفس تبدّل أمنها خوفاً، ويقينها شكّاً.
- هنالك تناسبٌ عكسيٌّ بين واقعيّة الأهواء النفسيّة وواقعيّة الحقّ.
- لا تتحقّق الصلة بالحقّ للإنسان وهو متعلّقٌ بهوى نفسه.
- عصيان النفس هو الكفّ عن الاستجابة لمتطلّباتها، إلّا فيما وافق الحقّ.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص٢٢١، الخطبة رقم (٢٢٧).

- المراد من ذكر الحقّ ونسيان النفس، هو الانقطاع عن أهواء النفس، ومقاومة الرغبات، والاستجابة للتشريعات والأخلاق القرآنيّة والنبويّة.
- لكي نتحسّس القرب الإلهي والبعد النفسيّ، علينا معرفة الجهة التي نلتفت إليها في ساعات فراغنا، من كونها النفس أم الحقّ سبحانه.
- إن جرى ذكر الله على ألسنتنا وقلوبنا فنحن قريبون من الله تعالى.
- إذا لم نسارع لمراقبة النفس ومحاسبتها سنكون نهباً لأهوائها.
- كلّما ازداد الأُنس بالله تعالى قلّ الأُنس بالنفس، والعكس بالعكس تماماً.
- بقدر الاستغراق والأنس في ملذّات الدنيا نكون قد ابتعدنا عن الله تعالى، ونكون قد فقدنا الأُنس بالله تعالى.
- من موارد الأُنس بالله: الخشوع في الصلاة، وذكر الله في الخلوات، وقيام الليل، وشدّة العلقة بالقرآن.
- من علامات الأُنس بالله تعالى: الشعور بلذّة المناجاة.
- النفس بأهوائها والدنيا بملذّاتها تدافعان عن وجوديهما، وليس أمامنا إلّا الثبات في المواجهة معهما، وزادنا الحقيقيّ هو الاستعانة بالله تعالى.
- خلاصة حديث الدرر: أنّ النفس تقع في قبال الحقّ، فهي حاجبٌ ومانعٌ وطاردٌ، ولا سبيل لنا سوى مجاهدتها، والاستعانة بالله تعالى على ذلك.

مذاكرة

- ما هو المفتاح المعرفيّ والمعنويّ للاقتراب من معرفة الحقّ سبحانه؟
- هل ينتظر الشيطان منّا تحقّق تمام الغفلة لينقضّ علينا؟
- ما الذي سيتبدّل في الإنسان إذا انقضّ الشيطان على نفسه؟
- إيّ نوعٍ من التناسب بين واقعيّة الأهواء النفسيّة وواقعيّة الحقّ؟

- ما هو المقصود من عصياننا للنفس؟
- ما هو المراد من ذكر الحقّ، ونسيان النفس؟
- ما الذي نتعرّف عليه عند معرفة الجهة التي نلتفت لها ساعة فراغنا؟
- ما هي محصّلة جريان ذكر الله تعالى على ألسنتنا وقلوبنا؟
- ما هي نتيجة عدم المسارعة للمراقبة والمواجهة والمحاسبة للنفس؟
- ما هو نوع التناسب بين الأُنس بالله تعالى والأنس بالنفس؟
- ما هي موارد الأُنس بالله تعالى؟
- ما هي أهمّ علامةٍ من علامات الأُنس بالله تعالى؟
- ما هي خلاصة حديث الدرر النبويّة؟

الدرس السابع

الاستغفار وشروطه

- أهداف الدرس
- تمهيد
- سرّ تقديم الاستغفار على التوبة
- حقيقة الاستغفار
- الاستغفار في الثقافة الإسلاميّة
- ثمرات الاستغفار
  - ✓ نتائج الاستغفار القولي
  - ✓ نتائج الاستغفار العملي
- الاستغفار هو إكسير السعادة
- الاستغفار بين التذكير والإنساء
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان سرّ تقديم الاستغفار على التوبة.
- بيان حقيقة الاستغفار ومكانته في الثقافة الإسلاميّة.
- بيان ثمرات الاستغفار (القولي والعملي).
- بيان كون الاستغفار هو إكسير السعادة.
- بيان الاستغفار بين التذكير والإنساء.

تمهيد

يعتبر هذا الدرس من انعكاسات دروسٍ سابقةٍ تعلّقت بالمقدّمات العلميّة والعمليّة لإصلاح النفس، وهكذا في بعض الدروس اللاحقة[١]، وفي هذا الدرس سنُبيّن العلاقة الوثيقة بين الاستغفار والتوبة[٢]، وثمرات الاستغفار، وأهمّيته ومكانته في ثقافتنا الإسلاميّة، ثمّ التعرّض إلى مسألةٍ دقيقةٍ تتعلّق بالاستغفار بين التذكير والإنساء.

سرّ تقديم الاستغفار على التوبة

وفقاً للقاعدة القرآنيّة وجدنا أنّه يقدّم الاستغفار على التوبة، ولأجل هذه النكتة القرآنيّة التزمنا بتقديم درس الاستغفار على درس التوبة، وأمّا التقديم فقد ورد في أكثر من آيةٍ، كلّها جاءت في سورة هود، منها قوله

---

(١) إنّ الدرس السابع (الاستغفار وشروطه)، والدرس الثامن (التوبة وشروطها)، والدرس التاسع (المشارطة والمراقبة والمحاسبة)، من انعكاسات الدرسين الرابع والخامس.

(٢) سيتّضح للقارئ بعد قراءة هذا الدرس والدرس الذي يليه أنّهما أشبه بالحلقة الواحدة قد تمّ عرضهما في فقرتين؛ لقوّة الارتباط بين الاستغفار والتوبة.

تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٣)، وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٥٢)، وغيرهما[١]، والعطف بحرف (ثمّ)، وهو حرف عطفٍ يدلّ على التعقيب والتراخي، يحكي المغايرة بينهما، فهما لهما دلالتان مختلفتان، فيكون لهذا التقديم سرٌّ ينبغي الإشارة له، ثمّ إنّنا لا نعدم هذا التقديم للاستغفار على التوبة في الأدعية والأذكار، وأشهرها ذكر «أستغفر الله ربّي وأتوب إليك»[٢]، وقول الإمام السجّاد عليه السلام في مناجاة التائبين: «**إلهي إن كان الندم توبةً إليك فأنا أندم النادمين، وإن يكن الاستغفار حطّةً للذنوب فإنّي لك من المستغفرين**»[٣].

يقول الشيخ الأنصاري: «ثمّ إنّ ظاهر بعض الآيات والروايات مغايرة التوبة للاستغفار، ففي غير موضعٍ من سورة هود: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٩٠)، وعدّهما جنديّين من جنود العقل في الحديث المشهور في تعداد جنود العقل والجهل المرويّ في أوّل أصول الكافي، حيث قال عليه السلام: (**التوبة وضدّها الإصرار والاستغفار وضدّها الاغترار**)»[٤].

---

(١) انظر: (هود: ٦١)، و(هود: ٩٠).

(٢) المحاسن، للشيخ أبي جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقي: ج١ ص٥٣ ح٨٠، تصحيح وتعليق: السيّد جلال الدين الحسيني، نشر: مؤسّسة الأعلمي، ١٤٢٩هـ، طهران؛ فروع الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٣١١ ح٨.

(٣) الصحيفة السجّادية، للإمام عليّ زين العابدين عليه السلام: ص١٥٦ رقم (٨٠) في ذكر التوبة وطلبها، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، إشراف: محمّد علي الأبطحي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، قم.

(٤) رسائل فقهيّة، للشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري: ص٥٦، تحقيق: لجنة التحقيق في الأمانة العامّة للمؤتمر المئوي للشيخ الأعظم الأنصاري، نشر: مؤسّسة الكلام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، قم؛ وحديث جنود العقل والجهل مرويٌّ عن الإمام الصادق عليه

ولعلّ السرّ في ذلك هو أنّ الاستغفار يمثّل تمهيداً لحصول التوبة، فمَن يستغفر ربّه يحقّق توبةً صغرى، ولأنها قوليّةٌ فلا تكفي في المقام، فاحتاج الأمر إلى عملٍ واقعيٍّ، وهو التوبة الكبرى، والتي سنتحدّث عنها في الدرس القادم.

ولا يخفى أنّ الاستغفار قد يأتي بمعنى التوبة من حيث النتيجة، فالله تعالى توّابٌ وغفّار الذنوب، والتوابيّة والغفاريّة بمعنىً واحدٍ أو متقاربٍ من حيث النتيجة، فمَن تاب الله تعالى عليه هو عينه مَن غفر الله له ذنوبه، فالتوبة النصوح مفادها مغفرة الذنوب، بمعنى إسقاط العقوبة عنها، لا بمعنى إسقاط آثارها في الدنيا، وسيأتينا تفصيل ذلك[1].

يقول الشيخ الأنصاري في وحدة الاستغفار والتوبة: «وممّا يظهر منه الاتّحاد: الجمع بين ما دلّ على أنّ دواء الذنوب الاستغفار، وأنّ التائب من الذنب يُغفر له، وأنّه كمَن لا ذنب له، ويؤيّده غير ذلك من الأخبار التي تظهر للمتتبّع»[2].

كما أنّ هناك خبراً ـ سنقف عنده بعد قليلٍ ـ يقرّب وجه التطابق بينهما، وهو أنّه عندما سمع الإمام عليٌّ شخصاً يقول: «أستغفر الله ربّي وأتوب إليه»، فسّر عليه السلام فيه الاستغفار بشروط التوبة ومقتضياتها، ممّا يدلّ على إمكان استعمالهما بمعنىً واحدٍ ومترادفٍ.

وهنالك وجهٌ دقيقٌ ووجيهٌ للعلّامة الطباطبائي يكشف من خلاله العلاقة بين التوبة والاستغفار، من خلال تقسيمه للتوبة، حيث يقول: «إنّ

السلام في أصول الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٢٢، كتاب العقل والجهل.

(١) في الدرس التالي (حقيقة التوبة وشروطها).

(٢) رسائل فقهيّة، مصدر سابق: ص٥٦.

التوبة توبتان: توبةٌ من الله تعالى، وهي الرجوع إلى العبد بالرحمة، وتوبةٌ من العبد وهي الرجوع إلى الله بالاستغفار والانقلاع من المعصية. وتوبة العبد محفوفةٌ بتوبتين من الله تعالى، فإنّ العبد لا يستغني عن ربّه في حالٍ من الأحوال، فرجوعه عن المعصية إليه يحتاج إلى توفيقه تعالى وإعانته ورحمته حتّى تتحقّق منه التوبة، ثمّ تمس الحاجة إلى قبوله تعالى وعنايته ورحمته، فتوبة العبد إذا قُبلت كانت بين توبتين من الله، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨)[1].

والخلاصة: أنّ الاستغفار في الأصل مغايرٌ للتوبة، ولكنّه يُستعمل في معنىً مطابقٍ أو موافقٍ له في موارد معيّنة، وقد استعملها القرآن في معنيين مختلفين.

حقيقة الاستغفار

الاستغفار مصدرٌ استُفيد منه اسم الفاعل (غافر)، وهو من أسماء الله الحسنى؛ قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ (غافر: ٣). كما استُفيد منه اسمان آخران من أسماء الفاعل على صيغة المبالغة، على وزن (فعّال، وفعيل)، وهما: الغفَّار والغفور؛ قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

وقد تميّز اسم (الغفور) بمجيئه في القرآن في أكثر من تسعين مرّةً؛ ليدلّ ذلك وجه حاجتنا للاستعانة بهذا الاسم والصفة الإلهيّة في رحلة الرجوع من الذنب والمعصية إلى ساحة الطاعة.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص١٣٣.

وأمّا الاستغفار في الاصطلاح فهو طلب المغفرة من الله تعالى عن ذنبٍ أو خطيئةٍ تمّ اقترافها، وهو وسيلةٌ ارتضاها الله تعالى للمؤمنين للحطّ عن ذنوبهم، وطريقٌ للارتقاء المعنويّ، ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن ينفكّ عنه؛ فالاستغفار هو الطريق الظاهر لاختراق المجال الخفيّ للذنوب التي لا نلتفت لها، أو للذنوب التي مضت منّا في سالف الأيّام ولم نلتفت لها ولمقابلتها بالعمل الصالح، ولذلك فالاستغفار هو سُلّمٌ ارتقائيٌّ وتطهيريٌّ، بل الاستغفار يمثّل درجة العلّيّين.

عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال لقائلٍ قال بحضرته: أستغفر الله: «**ثكلتك أمّك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العلّيّين، وهو اسمٌ واقعٌ على ستّة معانٍ؛ أوّلها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعةٌ، والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضةٍ عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها، والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السُّحت، فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحمٌ جديدٌ، والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول أستغفر الله**»[(١)].

ولو لاحظنا هذا الحديث المبارك نجده يُفسّر الاستغفار بجملةٍ من محتويات التوبة ـ سيأتي بحثها في الدرس اللاحق ـ لاسيّما الأمور الأولى (الندم على ما مضى، والعزم على ترك العود، وتأدية حقوق المخلوقين، وتأدية حقوق الله)، وهذا ما يكشف عن عمق الصلة بين الاستغفار والتوبة، وكأنّ الإمام عليه السلام أراد القول بأنّ الاستغفار الحقيقيّ الموجب لرفع المراتب

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٩٧ ح٤١٧.

ـ على النحو الذي صار فيه الاستغفار درجة العلّيّين ـ هو الاستغفار المسبوق بالتوبة الخالصة النصوح، والتوبة النصوح لا واقعيّة لها من دون تحقّق هذه الأمور الستّة التي ذكرها الإمام عليه السلام في كلمته.

وإذا ما أردنا أن نوجّه بدقّةٍ تقدّم الاستغفار على التوبة في الآيات القرآنيّة، وتأخّره في الروايات عن التوبة، فلا مناص من القول بأنّ هنالك مرتبتين من الاستغفار تتوسّطهما التوبة، أمّا الأولى فهي واقعةٌ كمقدّمةٍ تمهيديّةٍ للتوبة عن مطلق الذنوب، وهو ما نفهمه من الآيات الواردة في سورة هود، وما جاء في بعض الأدعية والأخبار، وأمّا الثانية فهي ما يقصدها الإمام عليٌّ عليه السلام، والذي وصف الاستغفار بأنّه درجة العلّيّين، فالاستغفار الأوّل ليس بهذا الأفق المعنويّ، وإنّما هو بوّابةٌ للدخول للتوبة، فإن تاب العبد توبةً نصوحاً، وحقّق الأمور الستّة أعلاه، فإنّه يصحّ له بعد ذلك أن يأتي بهذا الاستغفار الواقع في أفق العلّيّين، ومنه يُفهم أنّ الأمور الستّة هي وحدها كفيلةٌ بانسلاخ العبد التائب عن ماضيه، وتجرّده عن تلك الآثار، ومن الواضح أنّ هذه الأمور الستّة لا تتحقّق بيومٍ ولا بشهرٍ، وربّما لا تتحقّق بعامٍ من الزهادة والمجاهدة.

الاستغفار في الثقافة الإسلاميّة

إنّ قيمة الاستغفار في الإسلام تكمن في إعطاء الفرصة للمذنب للإنابة والعود إلى الجادّة والحقّ، وإغلاق باب اليأس والقنوط، ولذلك نجد أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام يقول: «**عجبت لمَن يقنط ومعه الاستغفار**»[1]، هذا من جهة العبد، وأمّا من جهة المعبود فإنّ قيمة الاستغفار تكمن في بيان

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص١٩ ح٨٧.

واقعيّة هذه الصفة الإلهيّة، وما تشتمل عليه من رحماتٍ واسعةٍ، ولعلّ هذا ما يُفسِّر لنا وجه العلاقة بين الرحيميّة والغفوريّة، حيث نجد هذا الاصطفاف في القرآن الكريم حاضراً في عشرات الموارد مُبيِّنةً أنّ عمق الغفوريّة وأرضيّتها ترجع إلى الرحيميّة، من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (البقرة: ١٧٣)، والمرجعيّة المعرفيّة لذلك هي حاكميّة الأسماء الإلهيّة بعضها على البعض الآخر، كما هو ثابتٌ في الدروس العُليا في العقيدة والفلسفة والعرفان.

ولو راجعنا النصوص القرآنيّة والروائيّة لوجدنا أنّ الاستغفار يحتلّ مكانةً رفيعةً بصورةٍ جعلته ذِكراً ووِرداً يتعايش معه الإنسان في كلّ يومٍ، بل في كلّ صلاةٍ ودعاءٍ، حتّى صار الاستغفار ورد المتّقين؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ... كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ (الذاريات: ١٥ـ١٨)، وقد قرن الله تعالى الاستغفار بالتوحيد، فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**خير العبادة قول: لا إله إلّا الله**». وقال: «**خير العبادة الاستغفار، وذلك قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾** (محمّد: ١٩)»[١]، وفي خبرٍ آخر: أنّه خير الدعاء؛ فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول صلّى الله عليه وآله: خير الدعاء الاستغفار**»[٢]، وعنه عليه السلام: «**إذا أكثر العبد من الاستغفار، رُفعت صحيفته وهي تتلألأ**»[٣].

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٥١٧ ح٢؛ المحاسن، مصدر سابق: ج١ ص٣٠ ح١٦.

(٢) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٥٠٤ ح١، باب (الاستغفار).

(٣) المصدر السابق: ح٢، باب (الاستغفار).

ثمرات الاستغفار

إنّ الاستغفار الذي نأتي به ينقسم إلى استغفارٍ قوليٍّ واستغفارٍ عمليٍّ، والاستغفار القوليّ معلوم الحال، كما لو وقعت الغيبة أو التهمة القوليّة من أحدٍ فيقول: أستغفر الله.

وأمّا الاستغفار العمليّ فهو أن تكون في عملٍ يستدعي المغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿**قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغَفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ**﴾ (الأنفال: ٣٨)، فهؤلاء ستشملهم المغفرة لعملٍ عملوه وليس لقولٍ قالوه، والعمل هو الانتهاء والكفّ عن الكفر وقتالهم للنبيّ صلّى الله عليه وآله.

نتائج الاستغفار القوليّ

وهنا نحتاج أن نقف عند نتيجة هذا الاستغفار بقسميه القوليّ والعمليّ، فأمّا القوليّ فإنّ محصّلته غفران الذنوب ونفي الآثار الشرعيّة أُخرويّاً عمّا ارتكبه من ذنوبٍ ومعاصٍ ما دامت الذنوب متعلِّقةً بحقوق الله تعالى، وأمّا إذا كانت متعلِّقةً بحقوق الناس فالأمر متروكٌ للمُعتدى عليه، الذي يجب مراجعته في الدنيا أو مراجعة أولياء أمره أو ورثتِه، عسى أن ينال عفوهم ورضاهم.

هذا بالنسبة للآثار الشرعيّة، وأمّا بالنسبة للآثار الوضعيّة والتكوينيّة فلا خلاص منها إلّا بالعمل، فلا تكفي كلمة الاستغفار فيها حتّى وإن كانت صادقةً وإن غفر الله له جميع ذنوبه؛ فإنّ الآثار الوضعيّة ستبقى لأنّها غير قابلةٍ للغفران، كما هو الحال بالنسبة لتارك الصلاة فلو عاد واستغفر وقَبِل الله توبته واستغفاره، فإنّ ذلك لا يعني ارتفاع الظُّلمة التي انطبعت في قلبه جرّاء ترك الصلاة، كما أنّ الاستغفار هذا لم يُسقط عنه قضاءَ ما فات.

نتائج الاستغفار العملي

وأمّا نتائج الاستغفار العمليّ فإنّه من حيث الأثر الشرعيّ سترتفع عن المستغفر العقوبات الأُخرويّة، وسيكون استغفاره داعياً وليس علّةً لرفع العقوبات الدنيويّة عنه، وأمّا بالنسبة للآثار الوضعيّة فباقيةٌ لا يُزيلها الاستغفار، وإنّما لابدّ من العمل الصالح لرفعها.

وقد مرّ بنا ما قاله أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام لذلك المستغفر قولاً، حيث أمره بالندم على ما مضى منه، والعزم على عدم العود، وتأدية حقوق المخلوقين كاملةً وتأدية حقوق الله، وتطهير الجسم من أثر أكل السُّحت، بالأحزان حتّى ينشأ لحمٌ جديدٌ، وإذاقة الجسم ألم الطاعة، بعد أن ذاق حلاوة المعصية، فإذا فعل ذلك فله أن يقول: أستغفر الله. فإذا فعل ذلك سيُعطى الاستغفار، و«**مَن أُعطي الاستغفار لم يُحرَم المغفرة**»[١].

إذن المحصّلة الأُولى للاستغفار هي غفران الذنوب، ولذلك نجد الإمام زين العابدين عليه السلام يقول: «**وإن يكن الاستغفار حطّةً للذنوب فإنّي لك من المستغفرين**»[٢]، وهو حطّةٌ بالفعل، ومحرقةٌ لكلّ الذنوب، ووسيلةٌ لإطفاء النيران، والعاقل مَن يتّعظ.

الاستغفار هو إكسير السعادة

إنّ الاستغفار هو الإكسير الذي تُرمَّمُ به العاهات والكسور، وتُجبر به الخواطر والقلوب، فهو الدواء لعلّةٍ ومرضٍ خطيرٍ اسمُه الذنب عموماً، والكبائر خصوصاً، فالاستغفار سلاحٌ فتّاكٌ يفتك بالكبائر، والكبائر كلّ

---

(١) من الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام. نهج البلاغة: ج٤ ص٣٣ ح١٣٥.
(٢) الصحيفة السجّادية، مصدر سابق: ص١٦٥.

واحدةٍ منها موجبةٌ لدخول النار.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ لكلّ شيءٍ دواءً، ودواء الذنوب الاستغفار**»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار**»[٢]، أي: إنّ الصغيرة تصير كبيرةً مع الإصرار عليها، والكبيرة تُغفر مع الاستغفار منها.

وهنالك نتائج أُخرى للاستغفار تتعلّق بالسعة في الرزق والإطالة في الأعمار، سنقف عندها من خلال حديثٍ يحثّ على الاستغفار، مرويٍّ عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام حيث قال: «**قد جعل الله سبحانه الاستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمةِ الخلق، فقال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾، فرحم الله امرأً استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادر منيّته**»[٣]، وقوله (لدرور الرزق) يعني: أنّه علّةٌ لجلب الرزق ولديمومته، والإنسان بطبعه حريصٌ على ضمان رزقه؛ فعليه بالاستغفار.

ومحصّلة كلّ ذلك: أنّ الاستغفار المطلوب في المقام قولاً وعملاً، هو ما ينسجم مع مقتضيات التوبة، فلا معنى للاستغفار مع مزاولة الذنب، وقد جاء في دعاءٍ للإمام السجّاد عليه السلام في الاستغفار: «**اللّهُمَّ إنّ استغفاري إيّاك مع الإصرار على الذنب لؤمٌ، وتركي للاستغفار مع سعة رحمتك عجزٌ**»[٤]، وعن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «**المستغفر من ذنبٍ ويفعله كالمستهزئ بربّه**»[٥].

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٤٣٩ ح٨.

(٢) المصدر السابق: ص٢٨٨ ح١.

(٣) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص٢٥. والآيات: (نوح: ١٠ـ١٢).

(٤) الصحيفة السجّادية، مصدر سابق: ص٨٤، رقم (٣٨).

(٥) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٥٠٤ ح٣، باب (الاستغفار).

الاستغفار بين التذكير والإنساء

عن سفيان بن السمط قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله إذا أراد بعبدٍ خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمةٍ ويذكّره بالاستغفار، وإذا أراد بعبدٍ شرّاً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي**»[1].

أمّا كيف ينسيه الله تعالى الاستغفار فذلك راجعٌ للطبيعة البشريّة، فالإنسان إذا ما حلّت عليه نعمةٌ فإنّه يفرح بها ويشتغل بها، فينسى أموراً كثيرةً، ومن تلك الأمور الاستغفار عن الذنب السابق منه، بمعنى: أنّه إذا ارتكب ذنباً ولم يكن مستحقّاً للمغفرة عن ذنبه، فإنّه إذا اشتغل بالاستغفار فإنّه مُفضٍ للمغفرة، وحيث إنّ الله تعالى لا يريد له ذلك ـ بمعنى أنّه لا يستحقّ منه ذلك ـ فإنّ الله تعالى يمنّ عليه بنعمةٍ يشتغل بها وتنسيه التوبة عن ذنبه والاستغفار عمّا بدر منه، وهذا هو ما يسمّى بالاستدراج، وهو ما نقرؤه في حديثٍ مرويٍّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حين سئل عن الاستدراج، فقال: «**هو العبد يذنب الذنب فيملي له، ويجدّد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرَجٌ من حيث لا يعلم**»[2]. وقوله (فيملي له)، أي: يملأ له، بمعنى الإمهال، فالإملاء هو الإمهال، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ (الأعراف: ١٨٣)، أي: أمهلت وأخّرت وأطلت لهم المدّة. والإملاء هو أعظم الابتلاء؛ إذ بسببه يصدر عن المبتلي جرائم غير محصورةٍ ومعاصٍ غير معدودةٍ[3]، فلا يغترّنّ

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٤٥٢ ح١، باب (الاستدراج).

(٢) المصدر السابق: ص٤٥٢ ح٢.

(٣) انظر: شرح أصول الكافي، مصدر سابق: ج١٠ ص٢٠٢.

أحدٌ بكثرة رزقه.

فالحذر الحذر من الإملاء والاستدراج، فهو الطريق المستتبع للهلاك المبين، وخطورته تكمن في كون المستدرج لا يلتف لنفسه، فيظنّ نفسه على خيرٍ وهو في تيهٍ وضلالٍ، وبالتالي لا تظهر أمامه فرصةٌ للإصلاح ما دام في استدراجه، ولو راجعنا التاريخ سنجد عشرات النماذج من الذين وقعوا في سنّة الاستدراج، قبل الإسلام وبعده، والبعض منهم بلغ بهم الاستدراج إلى أن يدعو على نبيّ زمانه بالهلاك، ويظنّ أنّه على الحقّ! كما في قصّة بلعم بن باعورا.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (البقرة: ١٩٩)، فالحجيج عند إفاضتهم من عرفة يُفيضون إلى مزدلفة وزادهم الروحيّ هو الاستغفار.
- عن إسماعيل بن سهل قال: «كتبت إلى أبي جعفر صلوات الله عليه: إنّي قد لزمني دينٌ فادحٌ، فكتب: **أكثر من الاستغفار ورطّب لسانك بقراءة** ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ**﴾»[1].
- روي أنّه «لَحِق قوم موسى عليه السلام قحطٌ، فاجتمع الناس إليه فقالوا: يا كليم الله ادعُ لنا ربّك أن يسقينا الغيث، فخرج معهم إلى الصحراء، وقال: **إلهي اسقنا غيثك، وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرضّع، والبهائم الرتّع، والمشايخ الركّع.** فما زادت السماء إلّا تقشّعاً، والشمس إلّا حرارةً! فأوحى الله إليه: **فيكم عبدٌ يبارزني بالمعاصي.** فنادى موسى في الناس: ليخرج من بين أظهركم ذلك العاصي الذي به منعوا المطر.

---

(١) فروع الكافي، مصدر سابق: ج٥ ص٣١٦ ح٥١.

فنظر العبد العاصي يميناً وشمالاً فلم ير أحداً خرج، فعلم أنّه المطلوب، فانكسرت نفسه ودمعت عينه، ثمّ أدخل رأسه في ثيابه ندماً وقال: إلهي وسيّدي عصيتك أربعين سنةً وأمهلتني، وقد أتيتك طائعاً فاقبلني، فلم يستتمّ الكلام حتّى ارتفعت سحابةٌ بيضاء فأمطرت كأفواه القرب، فقال موسى: **إلهي وسيّدي بماذا سقيتنا وما خرج من بين أظهرنا أحدٌ**، فقال: **يا موسى سقيتكم بالذي به منعتكم**»[1].

خلاصة الدرس

- قدّم القرآن طلب الاستغفار على التوبة في موارد عديدةٍ، ولأجل ذلك قدّمنا درس الاستغفار على درس التوبة.
- السرّ في تقديم الاستغفار هو التمهيد لحصول التوبة.
- مَن يستغفر ربّه يحقّق توبةً صغرى، ولكنّها توبةٌ قوليّةٌ، فاحتاج الأمر إلى عملٍ واقعيٍّ، وهو التوبة الكبرى.
- قد يأتي الاستغفار بمعنى التوبة من حيث النتيجة، فالله تعالى توّابٌ وغفّار الذنوب.
- الاستغفار في الأصل مغايرٌ للتوبة، ولكنّه يُستعمل في معنىً مطابقٍ أو موافقٍ له في موارد معيّنةٍ، وقد استعملها القرآن في معنيين مختلفين.
- الاستغفار مصدرٌ لاسم الفاعل (غافر، غفور)، وهما من الأسماء الحسنى.
- الاستغفار في الاصطلاح: طلب المغفرة من الله تعالى عن ذنبٍ تمّ اقترافه.
- الاستغفار الحقيقيّ الموجب لرفع المراتب إلى درجة العلّيّين هو الاستغفار

---

(١) انظر: كتاب التوّابين، عبد الله بن قدامه المقدسي: ص٨٠، رقم (٣٢)، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، نشر: دار الكتب العلميّة، ١٤٠٣هـ، بيروت.

المسبوق بالتوبة الخالصة النصوح.

- هنالك مرتبتان من الاستغفار تتوسّطهما التوبة، الأولى وهي الواقعة كمقدّمةٍ تمهيديّةٍ للاستغفار عن مطلق الذنوب، والثانية هي ما قصده الإمام عليٌّ عليه السلام في جعل الاستغفار درجة العلّيّين.
- قيمة الاستغفار في الإسلام تكمن في إعطاء الفرصة للمذنب للإنابة والعود إلى الجادّة والحقّ، وإغلاق باب اليأس والقنوط.
- النصوص الدينيّة وضعت الاستغفار في مكانةٍ رفيعةٍ بنحوٍ جعلته ورداً نتعايش معه.
- الاستغفار قوليٌّ وعمليٌّ، والعمليّ: هو أن تقوم بعملٍ يستدعي المغفرة.
- محصّلة الاستغفار القوليّ هي غفران الذنوب ونفي الآثار الشرعيّة أُخرويّاً عمّا ارتكبه من تقصيرٍ في حقوق الله تعالى.
- لا خلاص من آثار الذنب الوضعيّة إلّا بالعمل، فلا يكفي استغفارٌ وتوبةٌ.
- الاستغفار إكسيرٌ تُرمَّمُ به الكسور، وتُجبر به الخواطر والقلوب.
- الصغيرة تصير كبيرةً بالإصرار عليها، والكبيرة تُغفر بالاستغفار منها.
- الاستغفار المطلوب في المقام قولاً وعملاً، هو ما ينسجم مع مقتضيات التوبة، فلا معنى للاستغفار مع مزاولة الذنب.
- الحذر ثمّ الحذر من الإملاء والاستدراج، فهو طريقٌ مستتبعٌ للهلاك المبين، وخطورته تكمن في كون المستدرَج لا يلتف لنفسه، فيظنّ نفسه على خيرٍ وهو في تيهٍ وضلالٍ.

مذاكرة

- كيف تعامل القرآن في التقديم والتأخير بين الاستغفار والتوبة؟ وما الذي

رتّبناه على ذلك؟

- ما هو السرّ في تقديم الاستغفار على التوبة؟
- ما هي التوبة الصغرى والتوبة الكبرى؟ وبأيّهما يتعلّق الاستغفار؟
- هل يأتي الاستغفار بمعنى التوبة؟ وكيف؟
- ما هو الاستغفار في الاصطلاح؟ وما الذي اشتقّ من مصدره؟
- الاستغفار الحقيقيّ موجبٌ لأيّ شيءٍ؟ وبأيّ شيءٍ لابدّ أن يُسبق؟
- ما معنى قولنا: للاستغفار مرتبتان تتوسّطهما التوبة؟
- ما هي قيمة الاستغفار في الإسلام؟
- ما هي المكانة الرفيعة التي أعطتها النصوص الدينيّة للاستغفار؟
- ما الاستغفار القوليّ والعمليّ؟ وما هي محصّلتهما؟
- كيف نتخلّص من الآثار الوضعيّة للذنوب؟ وما علاقة الاستغفار بذلك؟
- ما معنى أنّ الاستغفار هو إكسير السعادة؟
- كيف تكون الصغيرة كبيرةً؟ وكيف تمحى الكبيرة؟
- هل للاستغفار معنىً مع مزاولة الذنب؟ وما تسمّي ذلك؟
- ما هو الإملاء والاستدراج، وما هي نتيجتهما؟

الدرس الثامن

حقيقة التوبة وشروطها

- أهداف الدرس
- تمهيد
- حقيقة التوبة
- التوبة تقطع طريق اليأس
- شروط التوبة
- تحديد نقاط الشروع بالتوبة
- التوبة النصوح
- زمان التوبة
- أهميّة ديمومة التوبة وتجدّدها
- السرّ في سلب النعم والابتلاءات الجديدة (غير المسبوقة)
- التوبة تستدعي العمل
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان أهمّيّة التوبة وحقيقتها.
- بيان شروط التوبة.
- بيان معنى ديمومة التوبة وتجدّدها.
- الكشف عن سرّ سلب النعم، وخلفيّة الابتلاءات الجديدة.

تمهيد

يعتبر هذا الدرس أيضاً من انعكاسات دروسٍ سابقةٍ تعلّقت بالمقدّمات العلميّة والعمليّة لإصلاح النفس، وهكذا في بعض الدروس اللاحقة[١]، وسوف نتعرّض فيه إلى أهمّيّة التوبة في حياتنا، وحقيقتها وشروطها وتجدّدها، وما نستطيعه منها، وتحديد نقاط الشروع فيها، ثمّ نختم الدرس بنكتةٍ مهمّةٍ حول السرّ في سلب النعم والابتلاءات الجديدة.

حقيقة التوبة

التوبة: هي الرجوع من الذنب[٢]، وتاب إلى الله: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، وتاب الله عليه: وفّقه للتوبة، ورجلٌ توّابٌ: تائبٌ إلى الله[٣]، والله تعالى يقبل التوبة؛ قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذّنبِ وَقَابِلِ التّوْبِ﴾ (غافر: ٣)، ومن التوبة اشتقّ اسم التوّاب، على وزن (فعّال) وهو من صيغ المبالغة، وهو من أسماء الله

---

(١) إنّ الدرس السابع (الاستغفار وشروطه)، والدرس الثامن (التوبة وشروطها)، والدرس التاسع (المشارطة والمراقبة والمحاسبة)، من انعكاسات الدرسين الرابع والخامس.

(٢) انظر: الصحاح، مصدر سابق: ج١ ص٩١؛ لسان العرب، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٣.

(٣) انظر: لسان العرب، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٣.

الحسنى، فهو توّابٌ، أي: كثير الصفح والقبول للتوبة وإن تكرّر الذنب نفسه من التائب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨).

وفي الاصطلاح يرى الشيخ الصدوق أنّ التوّاب معناه أنّه يقبل التوبة، ويعفو عن الحوبة إذا تاب منها العبد، فيقال: تاب العبد إلى الله عزّ وجلّ فهو تائبٌ إليه؛ وتاب الله عليه، أي: قَبِل توبته فهو توّابٌ عليه[(١)].

يقول الشيخ المفيد في حقيقة التوبة: «إنّ حقيقة التوبة هو الندم على ما فات على وجه التوبة إلى الله عزّ وجلّ، وشرطها هو العزم على ترك المعاودة إلى مثل ذلك الذنب في جميع حياته، فمَن لم يجمع في توبته من ذنبه ما ذكرناه فليس بتائبٍ، وإن ترك فعل أمثال ما سلف منه من معاصي الله عزّ وجلّ»[(٢)].

ويقول الشيخ الأنصاري في ذلك: «هي الرجوع إلى الله بعد الإعراض عنه، أو الرجوع إلى صراط الله المستقيم بعد الانحراف عنه، وهو يتوقّف على اليقين بكون البعد عن الله تعالى والانحراف عن سبيل التوجّه إليه خسراناً لا يُعدّ ما عداه خُسراناً، فبعد ذلك يحدث للنفس بحسب مرتبة ذلك اليقين تألّمٌ نفسانيٌّ يناسب تلك المرتبة في الشدّة والضعف، ويعبّر عنه بالندم»[(٣)].

إذن فالله تعالى يقبل التوبة، بل هو سريع القبول، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام قوله: «**ما كان الله ليفتح على عبدٍ باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة؛ ولا ليفتح على عبدٍ الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة؛**

---

(١) انظر: التوحيد، الشيخ الصدوق، مصدر سابق: ص٢١٥.

(٢) أوائل المقالات، للشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي: ص٨٥ رقم (٦٨)، نشر: دار المفيد، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، بيروت.

(٣) رسائل فقهيّة، مصدر سابق: ص٥٥.

ولا ليفتح لعبدٍ باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة»[1]، وعنه عليه السلام أيضاً: «**مَن أعطي أربعاً لم يُحرَم أربعاً: مَن أعطي الدعاء لم يُحرَم الإجابة؛ ومَن أعطي التوبة لم يُحرَم القبول...**»[2].

وقد جاء في الأخبار: أنّ حقيقة التوبة تكمن في الندم على ما فات على وجه التوبة إلى الله عزّ وجلّ، على نحوٍ يستشعر الحرقة في قلبه والحسرة على ما فات منه، فعن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «**كفى بالندم توبة**»[3]، ومن الواضح: أنّ المقصود هو الندم المستتبع العمل على الإصلاح والتغيير، وإلّا سوف تكون التوبة صوريّةً، فإنّ التوبة الحقيقيّة هي تعبيرٌ آخر عن العمل على إصلاح الحاضر وجعله مخالفاً تماماً للماضي، والعمل على إزالة آثار الماضي المظلم، وهذا كلّه لا يحصل بمجرّد الندم، وإلّا فكلّ مذنبٍ ـ حتّى وإن لم يتُب ـ هو نادمٌ في قرارة نفسه على أفعاله الخاطئة، ويقرّ مع نفسه بأخطائه، ولكنّه صريع شهوته وشقوته، ولذلك لا نسمّيه تائباً، لأنّ للتوبة شروطاً أساسيّةً ـ سيأتي بيانها ـ منها العزم على ترك خطايا الماضي وإصلاح الحاضر، وهذا لا يوفّره الندم وحده، وعليه فالمراد هو الندم المستتبع للإصلاح والتغيير، فيكون الندم هو نقطة انطلاقة التوبة الصحيحة.

التوبة تقطع طريق اليأس

لا ريب أنّ أبواب التوبة مشرعةٌ أمام جميع المذنبين، وليس لهم أن ييأسوا أو يقنطوا من قبول توبتهم، فذلك اليأس والقنوط من رَوحِ الله

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص١٠٢، رقم الحكمة (٤٣٥).

(٢) المصدر السابق: ج٤ ص٣٣، رقم الحكمة (١٣٥).

(٣) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٤٢٦ ح١.

ورحمته ذنبٌ أعظم من أصل الذنوب المقترفة، بل هو ذنبٌ موجبٌ للكفر؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)، والمراد من ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾: الذين استغرقوا في المحرّمات والشبهات (من الملذّات والشهوات وغير ذلك)، فهذه المعاصي بأسرها هي قابلةٌ للعفو والمغفرة، ولذلك قالت الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾، بلا استثناء، والسرّ في ذلك هو ما أجاب عنه ذيل الآية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وفي هذا المقطع المبارك نكتةٌ لطيفةٌ، وهي أنّه لا أحد في الوجود قادرٌ على ذلك البتّة، غير الله تعالى، وهذا ما نستفيده من وجود الضمير (هو)، والتي تعني أنّ هنالك مَن يدّعي أنّه يغفر الذنوب جميعاً، فجاءت الآية لتفنّد ذلك وتقول بأنّه هو وحده الذي يفعل ذلك[1].

والخلاصة: أنّ التوبة هي الطريق الفعليّ لغلق أبواب اليأس والقنوط، وفي ذلك درسٌ عظيمٌ للخطباء ومروّجي الدين عموماً، بأن يُدقّقوا فيما يقولون، فلا تصدر منهم كلمةٌ تُيئس المخاطبين لهم، كما لا يصحّ لهم أن يقولوا ما يوجب توانيهم، فلابدّ أن يكون خطابهم الوعظيّ دائراً بين

---

(١) فتكون من قبيل ما جاء في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَى * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ (النجم: ٤٣ ـ ٤٤)، حيث نلاحظ أنّ الضمير (هو) موجودٌ في الآية الأولى والثانية، ومفقودٌ في الآية الأخيرة، وذلك لأنّه لا يوجد أحدٌ ادّعى بأنّه خلق الزوجين الذكر والأنثى، فلم يُحتَج إلى التوكيد، بخلاف ما جاء في الآيتين الأوليين، فهنالك مَن ادّعى أنّه أضحك وأبكى، وأمات وأحيى، فاحتاج الموقف إلى توكيدٍ بأنّ الذي أضحك وأبكى وأمات وأحيى حقيقةً هو الله تعالى وحده، فجاء الضمير (هو) ليحقّق هذا المعنى الدقيق. (منه دام ظلّه).

الرجاء والخوف، وأن يزرعوا الأمل والتفاؤل فيهم، فإنّ الكلمة الموجبة لليأس من رَوح الله ستكون من قبيل كسر قلب المؤمن، ومَن كسر مؤمناً فعليه جبره.

ولو راجعنا قصّة يوسف سنجد أنّ إخوته كانوا يائسين من لقاء يوسف أو عودته، لأنّهم ضعيفو الإيمان، فجاءت كلمة أبيهم الشيخ الكبير، الموقن برَوح الله؛ ليرفع عنهم ذلك اليأس البغيض؛ كما حكى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ (يوسف: ٨٧).

جديرٌ بالذكر: أنّ التوبة والعودة لله تعالى وإن كان بابها مشرعاً أمام الجميع بلا استثناء، وأنّها تشمل الذنوب جميعاً، ولكنّ ذلك موقوفٌ على نشوء الرغبة الواقعيّة في التغيير والسعي لذلك، فيكون المانع هو الخشية من عدم قبول توبته بسبب استغراقه في الذنوب، فجاءت الآية لترفع تلك الخشية وتقول له: أقدم فتوبتك مقبولةٌ، وهنا لنا أن نسأل: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا نجد أكثر المذنبين لا يستجيبون لهذا النداء الإلهيّ؟

الظاهر من أحوالهم: هو أنّهم واقعون تحت قوّة إدمان الذنوب، وأنّ هذه الذنوب الكبيرة قد شكّلت حجاباً غليظاً وعظيماً يمنعهم من رؤية باب التوبة، وربّما تأخذ البعض العزّة بالإثم فلا يرى نفسه مذنباً ليتوب، كما هو حال الكثير من الفسقة الذين لم يكتفوا بفسقهم، وإنّما صار عملهم نشر الفسق والرذيلة، بل والدفاع عن ذلك، معتبرين أنفسهم يؤدّون رسالةً إنسانيّةً!

ولا ينبغي الإغفال عن كون بعض الكبائر هي بنفسها موجبةً للنأي عن التوبة، فترى أحدهم كلّما همّ بالتوبة جاءت سنّة الاستدراج وسنّة التسويف فتتحكّم به فلا يفقه ما هو فيه إلّا بعد فوات الأوان.

شروط التوبة

للتوبة شروطٌ لابدّ من توفّرها في التائب، وهي:

أوّلاً: الندم والألم والحسرة على ما وقع منه من تقصيرٍ عظيمٍ باقترافه الذنوب الكبيرة والصغيرة معاً، فتعجّ في نفسه حرارةٌ موجعةٌ، بل ونارٌ ملتهبةٌ، فيتمنّى لو لم يكن في الحياة، وأنّه كان نسياً منسيّاً.

ثانياً: العزم على ترك المعاودة إلى الذنوب التي اقترفها في أيّامه السالفة، فمَن لم يعزم في توبته على ترك ذنوبه كافّةً فليس بتائبٍ.

ثالثاً: ردّ الحقوق والمظالم، لله تعالى وللعباد، أمّا لله تعالى فبالإتيان بما فاته على أكمل وجهٍ، فيذوق مرارة الطاعة كما ذاق حلاوة المعصية، وأمّا للعباد فبأداء حقوقهم إليهم أو باستحلالهم منها عن طيب نفسٍ بذلك واختيارٍ منهم، لا عن حرجٍ أو حياءٍ، فمَن عُدم منهم ـ من أصحاب المظالم ـ أو فقده راجَع الورثة من أهله للخروج بالتراضي معهم من ظلامته أو استحللهم منها، ومَن عُدم الأولياء والورثة بعد الجهد والسعي في تحصيلهم، ولم يسعه ذلك فعليه كتابة ما عليه في وصيّته.

رابعاً: المسارعة في التوبة، لكي لا يُوقع نفسه في دائرة التسويف، فإنّ التسويف أُلعوبة الشيطان يغشّ بها العباد من أصحاب القلوب الضعيفة والإرادات الخاوية؛ قال الغزالي: «إنّ المسوّف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعلّه لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً، كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلّا لغلبة الشهوة، والشهوة ليست تفارقه غداً، بل تتضاعف إذ تتأكّد بالاعتياد»[١].

---

(١) إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٤ ص٥٨.

خامساً: لابدّ للتائب أن يُحدث شكراً على كلّ طاعةٍ أو عملٍ صالحٍ يُوفَّق له، وقد قال سبحانه: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ (إبراهيم: ٧)، وتكمن أهميّة الشكر في كونه يمثّل طريقةً نبيلةً للتعويض عمّا وقع من الجحود السابق للنعم.

سادساً: لزوم المشارطة والمراقبة والمحاسبة، فهي الحصن الواقي للتوبة وعمليّة الإصلاح، من الانقياد مرّةً أخرى لأهواء النفس، وسيأتي تفصيل ذلك[١].

تحديد نقاط الشروع بالتوبة

للتوبة الصحيحة أوّلياتٌ أو نقاطٌ مهمّةٌ تؤسّس أو تساعد على الشروع في التوبة، وهي مستفادةٌ من نفس شروط التوبة، أو ذات صلةٍ وثيقةٍ بها، وهي:

النقطة الأولى: الرغبة الواقعيّة بالتغيير، حيث يشعر المذنب في قرارة نفسه أنّه يعيش حالة الموت البطيء، ويريد الخروج من هذه الرتابة القاتلة، فهو شعورٌ واقعيٌّ يداهمه من وقتٍ لآخر، أو بشكلٍ مستمرٍّ، فإذا كان المذنب تهزّه الرغبة الواقعيّة في التغيير فإنّه يكون قد قطع نصف الشوط في طريق التوبة.

النقطة الثانية: ظهور النموذج الصالح ورؤيته في حياته، فهذا من المحفّزات الكبيرة، والإنسان ـ كما يُقال ابن بيئته ـ وكما جاء في الخبر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، إلّا أنّ أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**»[٢]، فالبيئة اليهوديّة لا تُخرّج غير اليهود بشكل عامّ، والبيئة المسيحيّة لا تُخرّج غير المسيحيّين، وهكذا.

---

(١) في الدرس التاسع من هذا الكتاب (المشارطة والمراقبة والمحاسبة).

(٢) تقدّم تخريج الحديث. وقد تبيّن هنالك أنّ المراد من الفطرة هو الإسلام.

وعليه فإنّ العادة قد اقتضت أنّ البيئة الطاهرة العفيفة تُخرّج أُناساً طاهرين وعفيفين، وأنّ البيئة القذرة تُخرّج أشباهها، وكلّ إناءٍ بالذي فيه ينضح، ولعلّ في قوله تعالى: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً**﴾ (الإسراء: ٨٤)، إشارةً لذلك.

وعليه فظهور النموذج الصالح في حياة المذنبين يعني ظهور بيئةٍ جديدةٍ تمثّل النموذج السامي لهم، فيكون التشبّث والتشبّه بهذا النموذج هو واقع حالهم، حتّى وإن لم يقصدوا ذلك، كالحرارة والبرودة فإنّهما مؤثّرتان فينا شئنا أم أبينا، فكيف إذا كان المذنب هو في قرارة نفسه باحثاً عن ذلك النموذج، ممّا يعني ـ بحسب فلسفة الأخلاق الواقعيّة والتعليميّة ـ أن يسعى المذنب الطالب للتغيير، إلى التواجد في البيئة الطاهرة والبحث عن النموذج الصالح.

النقطة الثالثة: اغتنام فرصة الرغبة الواقعيّة بالتغيير، وفرصة اللقاء بالنموذج الصالح، وقد مرّ بنا أنّ: «**إضاعة الفرصة غصّةٌ**»، وأنّ: «**الفرصة تمرّ مرّ السحاب، فانتهزوا فرص الخير**»[1].

النقطة الرابعة: التشبّه بالصالحين، أو الاقتداء بالنموذج الصالح، فالإنسان التائب هو أمسّ الناس حاجةً إلى قدوةٍ وأسوةٍ قريبةٍ منه تساعده على تجاوز العقبات المحتملة، بل نفس وجوده يمثّل دعماً معنويّاً له.

النقطة الخامسة: التوجّه إلى الله تعالى وحده في إعلان التوبة، والاستعانة به، والحرص على توفير ساعات الخلوة مع الله تعالى في استغفاره ومناجاته، والعمل على تعويض ما فاته من خيرٍ، ومَن استعان بالله تعالى كان مصيره

---

(١) الحديثان لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وقد مرّ تخريجهما.

النجاح والفلاح، وقد كان من وصيّةٍ لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام لأحد ولاته: «**وأكثر الاستعانة بالله يكفِك ما أهمّك ويعِنك على ما نزل بك إن شاء الله**»[١]، وكان من أدعية الإمام عليٍّ زين العابدين عليه السلام: «**وحبّب إليّ ما تحبّ من القول والعمل، حتّى أدخل فيه بلذّةٍ، وأخرج منه بنشاطٍ، وأدعوك فيه بنظرك منّي إليه؛ لأدرك به ما عندك من فضلك الذي مننت به على أوليائك، وأنال به طاعتك، إنّك قريبٌ مجيبٌ**»[٢]، وفي مكانٍ آخر: «**وأعوذ بك من الفشل والكسل والعجز والتفريط والعجلة والتضييع والتقصير والإبطاء**»[٣].

التوبة النصوح

التوبة النصوح تعني: الصدق في التوبة، والخلوص فيها، فلا يتوب لمصلحةٍ اعترضته في الطريق، حيث تتحقّق المصلحة وتذهب التوبة. وكلّ شرطٍ من شروط التوبة الآنفة الذكر إذا وقع فيها خللٌ ما، فذلك يعني أنّ التوبة لم تكن نصوحاً.

والتوبة النصوح مطلبٌ قرآنيٌّ جاء في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ (التحريم: ٨).

وسبق أن قلنا بأنّه: «قد يتوب الإنسان توبةً نصوحاً، وقد يتقبّل الله تعالى منه توبته، وقد يغفر له ذنوبه، ولكنّ الآثار الوضعيّة والتكوينيّة التي خلّفتها المعاصي في النفس لا تزول بالتوبة، ولا تزول بالرغبة، ولا تزول

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص٥٩، الحديث رقم (٣٤).

(٢) الصحيفة السجّادية، مصدر سابق: ص١٤٧.

(٣) المصدر السابق: ص٢٦٤.

بالمغفرة، كالمدمن على شرب السجائر، فإنّه إذا تاب عن عمله السيّئ هذا فإنّه لا يزول أثر السجائر عن بدنه، فلا بدّ له من أيّامٍ طويلةٍ وعملٍ طويلٍ للتخلّص من ذلك»[1].

وعليه فلابدّ من: «مداومة العمل الصالح، والعمل بالأخلاق الحميدة، لأنّها موجبةٌ لزوال الآثار الوضعيّة التي تركتها الذنوب السابقة، وإذا لم نعمل على إدامة الأخلاق وترسيخها في النفوس، فإنّ سنخيّة الآثار الوضعيّة تستدعي ما يُسانخها من الذنوب والأعمال الخبيثة، وبالتالي سيعود الإنسان التائب شيئاً فشيئاً إلى المعاصي، وربّما سيكون أسوأ ما كان عليه قبل التوبة، والمحصّلة من ذلك: أنّه لا تكفي الإنسان التائب توبته وإن كانت نصوحاً، ولا يكفي نبذ الأخلاق الذميمة، ولا يكفي تعلّم الأخلاق الحميدة أو الميل إليها أو التحلّي المرحليّ بها، وإنّما لابدّ من مداومة العمل بها وترسيخها في النفس، كما لابدّ من الإخلاص في النيّة[2]، لتخليص النفس من تبعات الماضي وآثار الذنوب»[3].

إذن فالتوبة لابدّ أن تكون نصوحاً، ولكنّها وحدها لا تكفي للتخلّص من ركام الماضي، فإنّ قبول التوبة وتحقّق المغفرة إنّما في بعدها الأخرويّ، ولذلك لا تسقط الحقوق بها، كما تقدّم، فلا ينبغي التوهّم بأنّ التوبة ستحصد ذنوب الماضي وتقضي على آثارها، فذلك ليس من الواقعيّة بشيءٍ.

---

(١) في الحلقة الأولى من سلسلة الأخلاق التعليميّة (أخلاقنا)، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري: الدرس الثاني، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، العراق.

(٢) سيأتي الحديث عن النيّة وكيفيّة إخلاص النيّة في الحلقة الثالثة من هذه السلسلة.

(٣) أخلاقنا، مصدر سابق، الدرس الثاني.

زمان التوبة

لا موضوعيّة لتحديد زمانٍ للتوبة؛ إذ لا توجد ضمانةٌ لبقاء أحدٍ لساعةٍ واحدةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٣٤). ومع غياب الأجل كلّياً، وتوقّعه في كلّ لحظةٍ، فإنّ المذنب لا يملك غير المباشرة في التوبة، ومَن لم تقع منه التوبة بهذا النحو فهو من المسوّفين، أو من الغافلين تماماً عن أصل التوبة، وأمّا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (النساء: ١٨)، فيكشف عن أنّ الإنسان الغافل لو أراد أن يتوب فلا تنفعه توبته حين وقوع الموت عليه، وإنّما لابدّ أن تقع التوبة منه في زمانٍ سابقٍ على ذلك، وزمان وقوع الموت ـ كما عرفت ـ غير معلومٍ لدينا، فتكون كلّ ساعةٍ نعيشها يمكن أن تكون هي الساعة الواقعة قبل الموت، وهذه هي الواقعيّة التي يفرّ منها الكثيرون، وقد جاء في بعض المواعظ البليغة لرسول الله صلّى الله عليه وآله: «**أيّها الناس إنّ مَن في الدنيا ضيفٌ، وما في أيديهم عاريةٌ، وإنّ الضيف مرتحلٌ، والعارية مردودةٌ. ألا وإنّ الدنيا عرضٌ حاضرٌ يأكل منه البرّ والفاجر، والآخرة وعدٌ صادقٌ يحكم فيها ملكٌ عادلٌ قادرٌ، فرحم الله امرءاً نظر لنفسه، ومهّد لرمسه، مادام رسنه مرخياً، وحبله على غاربه ملقياً، قبل أن ينفد أجله وينقطع عمله**»(١).

---

(١) أعلام الدين في صفات المؤمنين، للشيخ الحسن بن أبي الحسن الديلمي: ص٣٤٤، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المقدّسة؛ بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٧٤ ص١٨٧.

أهميّة ديمومة التوبة وتجدّدها

مرّ بنا أهميّة ديمومة العمل الصالح وأنّها هي الضمان لحفظ التوبة النصوح من التراجع، وهنا نريد أن نعمّق فكرة التوبة، فربّما هنالك تصوّرٌ عامٌّ بأنّ التوبة تقع مرّةً أو مرّتين أو أكثر في حياة الإنسان، ولكنّ الصحيح هو أنّ التوبة لابدّ أن تكون مقرونةً مع كلّ ذنبٍ يقترفه الإنسان، ومَن أخّر توبته العامّة عن ذلك السيل الجارف من الذنوب فمقتضى حاله هو أن يتوب عن كلّ ساعةٍ مرّت عليه في اللهو ولم يُعلن توبته، بمعنى أن يصهر نفسه بلهيب تأخيره للتوبة، ولا يستكثر قبول التوبة المكرّرة منه، فالله تعالى ـ كما عرفنا ـ هو التوّاب، وهو قابل التوب، وقد روي عن أبي بصير أنّه قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً**﴾؟ قال: **هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً**. قلت: وأيّنا لم يعُد؟ فقال: **يا أبا محمّد إنّ الله يحبّ من عباده المفتَّن التوّاب**»(١)، والمفتنّ: هو الممتحن الكثير التوبة، يمتحنه الله بالذنب ثمّ يتوب، ثمّ يعود ثمّ يتوب(٢).

والخلاصة من ذلك هي ضرورة إبقاء التوبة وديمومتها، لا بمعنى الجرأة على الذنب والاعتماد على التوبة، فذلك من السخريّة بالنفس وبقيم القرآن والسنّة الشريفة، فمَن أذنب اعتماداً على التوبة إنّما هو من المسوّفين.

السرّ في سلب النعم والابتلاءات الجديدة (غير المسبوقة)

هاهنا أربعة مطالب، وهي:

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٤٣٢ ح٤. والشطر الأخير من الحديث مرويٌّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله. (انظر: مجمع الزوائد، مصدر سابق: ج١٠ ص٢٠٠).

(٢) انظر: لسان العرب، مصدر سابق: ج١٣ ص٣٢٠.

المطلب الأوّل: سرّ زوال النعم

كثيراً ما يبتلى الإنسان والمجتمع بسلب نعمٍ وفيرةٍ طالما تنعّموا بها، وكثيراً ما يُبتلى الإنسان والمجتمع بأمورٍ لا سابقة لها، أو لا عهد لهم بها، فما هو السرّ في كلّ ذلك؟ السرّ في ذلك يكمن في أمرين، هما:

الأوّل: اقتراف الذنوب، وارتكاب المعاصي، وقد روي عن أبي عمرو المدائني أنّه قد سمع الإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول: «**كان أبي عليه السلام يقول: إنّ الله قضى قضاءً حتماً ألّا يُنعم على العبد بنعمةٍ فيسلبها إيّاه حتّى يحدث العبد ذنباً يستحقّ بذلك النقمة**»[١].

وهذا المعنى له أصلٌ قرآنيٌّ صريحٌ، وهو قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ (الشورى: ٣٠)، وأيضاً في قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ**﴾ (النساء: ٧٩)، إذن فما نقترفه من ذنوبٍ هو السرّ الأوّل في زوال النعم، بل هو السبب الأكبر والأكثر وقوعاً، وما أحسن ما قيل[٢]:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارعَها   فإنّ المعـاصي تُـزيل النعم

الثاني: عدم شكر النعمة، وهنا تقع الكبوة الأخرى، فإنّ شكر النعم له وظيفتان، هما: حفظ النعم، وزيادة النعم، وبالتالي فإنّ عدم شكر النعم مُفضٍ إلى زوالها، وقد روي عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**زوال النعم بمنع حقوق الله منها وإهمال شكرها**»[٣]، وفي خبرٍ آخر: «**والتقصير في**

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٧٣ ح٢٢.

(٢) انظر: كشف الخفاء، للشيخ إسماعيل بن محمّد العجلوني: ج٢ ص٢١٣، رقم (٢٣١٨)، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، بيروت.

(٣) عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق: ص٢٧٦.

شكرها»[1].

المطلب الثاني: كيفيّة التخلّص من سنّة زوال النعم

وأمّا طريق الخلاص من سنّة زوال النعم فيكمن في الكفّ عن الأمرين السابقين، فيجتنب عن الذنوب، ويُديم شكر النعمة، فهذان مفتاحان معلومان لحفظ النعم من الزوال برعايتهما، ولزوال النعم عند الغفلة عنهما، فمع كلّ ذنبٍ لابدّ من توبةٍ، ومع كلّ نعمةٍ لابدّ من شكرٍ عليها.

المطلب الثالث: سرّ الابتلاءات الجديدة

وأمّا مسألة الابتلاءات الجديدة، غير المعهودة من قَبْل، فقد ورد في بيان سرّها خبرٌ عن العبّاس بن هلال الشامي أنّه قال: سمعت الإمام الرضا عليه السلام يقول: «**كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون**»[2].

توضيح ذلك: إنّ هنالك غفلةً إيجابيّةً من قِبَل الكثير من الناس بأنواع المعاصي والذنوب، فهم بحدود ثقافتهم ومحيطهم يعرفون ذنوباً معيّنةً، ولا يتجاوزنها لا لورعٍ منهم وإنّما لجهلهم بها، فإذا أحدثوا ذنوباً جديدةً لم تكن معلومةً لديهم فإنّ الله تعالى سوف يبتليهم ببلاءٍ لم يكونوا يعرفونه من قبل، كما هو الحال فيمن سافر لبلدٍ آخر فوجد أنواعاً جديدةً من الذنوب والمعاصي فيستغرق فيها، فإنّه مصداقٌ لذلك، وإذا ما رجع لبلده فإنّه يستحدث فيهم هذه الأنواع الجديدة من الفسق والفجور، كما هو الحال في أصناف المخدّرات والمسكرات والاختلاط المحرّم.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: ص١٠٠ ح١٧٢١.

(٢) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٧٥ ح٢٩.

أو أنّ أهل البلد أنفسهم يبتدعون طرقاً جديدةً للملذّات المحرّمة والمعاصي، كما هو الحال في قوم لوطٍ الذين استحدثوا فاحشةً ما سبقهم إليها أحدٌ؛ قال تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِن الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٠)، فكانت النتيجة الحتميّة لهم هي: ﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٢ـ٨٣).

إنّ المتفنّنين في الغيبة والبهتان، والسخريّة والاستهزاء، ثمّ الادّعاء بأنّهم بذلك يُحسنون صنعاً، وأنّهم يطلبون بذلك إظهار الحقائق، فهؤلاء هم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف: ١٠٤)، وبقدر ما أحدثوا من المعاصي سوف يبتليهم ربّهم؛ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٢).

المطلب الرابع: تشخيص الذنوب التي تزيل النعم

جاء في مقطعٍ من دعاء كميل المعروف: «**اللّهُمَّ اغفر لي الذنوب التي تُنزل النقم، اللّهُمَّ اغفر لي الذنوب التي تُغيّر النعم، اللّهُمَّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللّهُمَّ اغفر لي الذنوب التي تُنزل البلاء**»[١]، وفي دعاءٍ آخر: «**اغفر لي الذنوب التي تُزيل النعم، واغفر لي الذنوب التي تُنزل النقم**»[٢]، فما هي الذنوب التي تُزيل وتُغيّر النعم؟ هنا نجد بياناً من الإمام عليٍّ زين العابدين عليه

---

(١) مصباح المتهجّد، للشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ): ص٨٤٤، رقم (٢٥)، نشر: مؤسّسة فقه الشيعة، محفوظة الطبعة الأولى ١٤١١هـ، بيروت.

(٢) إقبال الأعمال، للسيّد رضيّ الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني: ج٢ ص١٩٧، تحقيق: جواد القيّومي الأصفهاني، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، قم المقدّسة.

السلام، يقول فيه: «**إنّ الذنوب التي تُغيّر النعم: البغي على الناس، والزوال عن العادة في الخير... وكفران النعم، وترك الشكر... والذنوب التي تُزيل النعم: التطاول على الناس، والاستهزاء بهم، والسخريّة منهم**»[١]، والله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِن نِسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الحجرات: ١١).

التوبة تستدعي العمل

في روايةٍ ـ نأخذ منها موضع الحاجة ـ: أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام قال لرجلٍ سأله أن يعظه بموعظةٍ غايةٍ في الإيجاز والتأثير: «**لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجئ التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين... يحبّ الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه... يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله... يستعظم من معصية غيره ما يستقلّ أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقّر من طاعة غيره... ويخشى الخلق في غير ربّه، ولا يخشى ربّه في خلقه**»[٢].

فهو يُرجئ التوبة، أي: يؤخّرها، ولا يعمل لها، فلديه أملٌ طويلٌ بالعيش، ولا يلتفت إلّا بعد فوات الأوان، وبعد ذلك تجده يرجو من الله

---

(١) عدّة الداعي، مصدر سابق: ص١٩٩.

(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٣٨، الخطبة رقم (١٥٠). يقول الشريف الرضي رحمه الله في توصيف هذه الموعظة البليغة: «ولو لم يكن في هذا الكتاب إلّا هذا الكلام لكفى به موعظةً ناجعةً وحكمةً بالغةً وبصيرةً لمبصرٍ وعبرةً لناظرٍ مفكّرٍ». (المصدر السابق).

تعالى العفو والمغفرة والجنّة.

يقول ابن أبي الحديد: «كثيرٌ من الناس يرجون الآخرة بغير عملٍ، ويقولون: رحمة الله واسعةٌ، ومنهم مَن يظنّ أنّ التلفّظ بكلمتَي الشهادة كافٍ في دخول الجنّة، ومنهم مَن يسوِّف نفسه بالتوبة، ويرجئ الأوقات من اليوم إلى غدٍ، وقد يخترم على غرّةٍ فيفوته ما كان أمله»[١].

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**﴾ (هود: ٥٢)، فالخير والبركات والقوّة، كلّها أمورٌ معلّقةٌ على صلاح أنفسنا، وصلاح أنفسنا إنّما يكون بالتوبة النصوح.
- «نزل رسول الله صلّى الله عليه وآله بأرضٍ قرعاء (لا نبات فيها) فقال لأصحابه: **ائتوا بحطبٍ**. فقالوا: يا رسول الله نحن بأرضٍ قرعاء ما بها من حطبٍ. قال: **فليأتِ كلّ إنسانٍ بما قدر عليه**. فجاءوا به حتّى رموا بين يديه بعضه على بعضٍ. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **هكذا تجتمع الذنوب**»[٢].
- عن زيد الشحّام قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **اتّقوا المحقّرات من الذنوب فإنّها لا تُغفر**. قلت: وما المحقّرات؟ قال: **الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لي لو لم يكن لي غير ذلك**»[٣].

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٨ ص٣٥٦، الخطبة رقم (١٤٦).
(٢) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٨٨ ح٣، باب (استصغار الذنوب).
(٣) المصدر السابق: ح١، وح٢.

خلاصة الدرس

- التوبة: هي الرجوع من الذنب، ومن التوبة اشتُقّ اسم التوّاب، أي: كثير الصفح والقبول للتوبة وإن تكرّر الذنب نفسه من التائب.
- اصطلح على «التوبة لله تعالى» بـ: الندم على ما فات، مشروطاً بعزم التائب على ترك المعاودة إلى مثل ذلك الذنب في جميع حياته.
- معنى «**كفى بالندم توبة**»: هو الندم المستتبع العمل على إصلاحٍ وتغيير.
- أبواب التوبة مشرعةٌ أمام الجميع وليس لهم أن ييأسوا من قبول توبتهم.
- اليأس من رَوح الله ورحمته ذنبٌ أعظم من أصل الذنوب المقترفة، بل هو ذنبٌ موجِبٌ للكفر.
- نستفيد من قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾: أنّه لا أحد في الوجود قادرٌ على ذلك غيره سبحانه.
- التوبة هي الطريق الفعليّ لغلق أبواب اليأس والقنوط.
- الذين لا يستجيبون لنداء التوبة واقعون تحت قوّة إدمان الذنوب.
- بعض الكبائر موجبةٌ للنأي عن التوبة، فكلّما همّ المرتكب لها بالتوبة حَكَمَته سنّة الاستدراج وسنّة التسويف، فلا يفقه ما هو فيه إلّا بعد فوات الأوان.
- من شروط التوبة: الندم والحسرة على ما وقع، والعزم على الترك.
- ردّ الحقوق والمظالم، لله تعالى وللعباد، من أهمّ الفقرات العمليّة للتوبة.
- ينبغي المسارعة في التوبة، لكي لا نقع في دائرة التسويف.
- للتوبة أوّلياتٌ تساعد في الشروع فيها، منها: الرغبة الواقعيّة بالتغيير.
- بحسب فلسفة الأخلاق الواقعيّة والتعليميّة لابدّ أن يسعى المذنب الطالب للتغيير، إلى التواجد في البيئة الطاهرة، والبحث عن النموذج الصالح.

- التوبة النصوح هي الصدق في التوبة والخلوص فيها، فيعزم على نحو القطع واليقين على عدم العودة.
- مداومة العمل الصالح والعمل بالأخلاق الحميدة، موجبٌ لزوال الآثار الوضعيّة التي تركتها الذنوب السابقة.
- لابدّ أن تكون التوبة مقرونةً مع كلّ ذنبٍ يقترفه الإنسان.
- المفتنّ: هو الممتحن الكثير التوبة، يمتحنه الله بالذنب ثمّ يتوب، ثمّ يعود ثمّ يتوب.
- إبقاء التوبة وديمومتها لا يعني الجرأة على الذنب والاعتماد على التوبة، فذلك سخريّةٌ بالنفس وبالقيم الإلهيّة، وفاعل ذلك مسوّفٌ.
- سرّ زوال النعم يكمن في أمرين، اقتراف الذنوب، وعدم شكر النعمة.
- بقدر ما يحدثه الإنسان من معاصٍ جديدةٍ، يبتليه ربّه بابتلاءاتٍ جديدةٍ غير مسبوقةٍ.

مذاكرة

- ما هي التوبة لغةً واصطلاحاً؟
- ما معنى الحديث الشريف: «**كفى بالندم توبةً**»؟
- هل أبواب التوبة خاصّةٌ بفئةٍ من الناس دون سواهم؟
- ما الذي يوجبه اليأس والقنوط من رَوح الله ورحمته؟
- ما هي النكتة اللطيفة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾؟
- ما هو الدرس القرآنيّ لمروّجي الدين في مسألة اليأس من روح الله؟
- ما هو سرّ عدم استجابة الكثير من المذنبين لنداء التوبة؟
- ما هي شروط التوبة؟ ما هو دور الشكر في تحقيق التوبة؟

- ما هو الحصن الواقي للتوبة وعمليّة الإصلاح من العود إلى أهواء النفس؟
- ما هي الأوّليّات التي تساعد على الشروع في التوبة؟
- ما هي أهميّة ظهور النموذج الصالح ورؤيته في حياة التائب؟
- ما هي أهميّة البيئة الطاهرة للتائب حديثاً؟
- ما هي التوبة النصوح؟ وهل هي كافيةٌ في التخلّص من ركام الماضي؟
- ما هي الآية التي استفدنا منها اصطلاح (التوبة النصوح)؟
- ما هي الأمور الموجبة لزوال الآثار الوضعيّة للذنوب السابقة؟
- ما هو السبب في عدم كفاية التوبة النصوح في التخلّص من ركام الماضي؟
- هل هنالك موضوعيّةٌ لتحديد زمانٍ خاصٍّ للتوبة؟ ولماذا؟
- ما هو السرّ في سلب النعم وحدوث ابتلاءاتٍ جديدةٍ غير مسبوقةٍ؟
- ما هي الذنوب التي تُزيل النعم؟ وكيف التخلّص من سنّة زوال النعم؟
- ما هي المعادلة الإلهيّة بين ما يُحدثه الإنسان من معاصٍ جديدةٍ وبين الابتلاءات الجديدة غير المسبوقة؟
- ما هو معنى الحديث الشريف: «**ويرجئ التوبة بطول الأمل**»؟

الدرس التاسع

المشارطة والمراقبة والمحاسبة

- أهداف الدرس
- تمهيد
- الدنيا سوق كبير
- بيان المراد من المشارطة وفائدتها
- بيان المراد من المراقبة
- أقسام المراقبة (الفرديّة، الأسريّة، الاجتماعيّة)
- فائدة المراقبة
- البعد المعنوي للمراقبة في كشف حقائق التوحيد
- بيان المراد من المحاسبة وفائدتها
- أحاديث حول المحاسبة
- محصّلة إتمام مقامات المرابطة (المشارطة والمراقبة والمحاسبة)
- مقام المعاتبة على الذنب والتقصير
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان المراد من المشارطة والمراقبة والمحاسبة وفائدها.
- بيان أقسام المراقبة والمحاسبة.
- بيان البُعد المعنويّ للمراقبة في كشف حقائق التوحيد.
- بيان محصّلة (المشارطة والمراقبة والمحاسبة).
- بيان مقام المعاتبة على الذنب والتقصير.

تمهيد

لا يكاد يخلو كتابٌ أخلاقيٌّ من ذكر هذه المفاهيم الثلاثة (المشارطة والمراقبة والمحاسبة)، أو الإشارة إليها؛ لما لها من تأثيرٍ عظيمٍ على حفظ توبة التائب من الانسلاخ، وحفظ إيمان المؤمنين والتزامهم بشريعة دينهم، فهي حصنٌ حصينٌ يقي الإنسان من الوقوع في الخطأ، وتحقّق له العمليّة الوقائيّة المستمرّة، ولذلك تجد أنّ من أولى علائم المذنبين: غياب هذه المفاهيم من حياتهم العمليّة، كما أنّ المؤمنين قد يغفلون أحياناً فتقع منهم الذنوب، صغيرةً وكبيرةً، نتيجة الغفلة عن المراقبة، أو التقاعس عن المحاسبة.

ونظراً للأهميّة الكبيرة لهذه المفاهيم الأخلاقيّة في بُعدها العمليّ في حياتنا، وأنّه لا غنى لنا عنها أبداً، فقد لزمت الحاجة الماسّة للحديث عنها بشيءٍ من التفصيل، وسيجد القارئ بياناتٍ جديدةً جديرةً بالاهتمام.

الدنيا سوق كبير

كلّ تاجرٍ يحتاج إلى رأسِ مالٍ وسوقٍ وأُناسٍ يُتاجر معهم، فيبذل قُصارى جهده لتحصيل الربح الوفير، واجتناب الخسارة، ولو نظرنا إلى

هذه الدنيا التي نعيش تفاصيلها سنجدها ـ كما ورد ـ سوقاً، ربح فيها قومٌ وخسر آخرون[1]، فهي سوقٌ كبيرٌ نعرضُ فيه بضائعَنا، وبضائعنا في علم الأخلاق هي: الطاعات والمعاصي، فإن تاجرنا بالطاعات كان الربحُ هو الجنّة، وإن تاجرنا بالمعاصي كان الخُسران المبين والنار والجحيم، وهذه المعادلة السهلة اليسيرة ليست خافيةً على الناس، لاسيّما المؤمنين منهم.

وهنا يُطرح هذا السؤال: ما هو السرّ في هذا الانجراف الكبير من كثيرٍ من المسلمين ـ فضلاً عمّن سواهم ـ إلى المعاصي، والفرار الغريب من الطاعات؟

سؤالٌ مهمٌّ يقتضي الإجابة عنه، وهو على أربع فقراتٍ، هي:

الفقرة الأولى: انعدام الرؤية الكونيّة أو ضعف تأثيرها

إنّ انعدام الرؤية الكونيّة الشموليّة للوجود والاستغراق في الجزئيّات، تجعل الإنسان بعيداً عن الآثار البعيدة لأفعاله، سواءٌ كانت طاعةً أم معصيةً، وبالتالي تقلّ المبالاة، وتزداد الأخطاء، بخلاف مَن يمتلك رؤيةً كونيّةً إلهيّةً فإنّها توجّهه نحو الفضيلة وتحذّره من الرذيلة، وقد يمتلك شخصٌ رؤيةً كونيّةً إلهيّةً ولكنّها ضعيفة التأثير فيه، فيستجيب لتأثيرها قليلاً ويخفق كثيراً، وبالتالي فإنّ هنالك حاجةً ماسّةً لتحصيل الرؤية الكونيّة الإلهيّة، فإنّها تجعل الإنسان متدبّراً، والتدبّر يجعل الإنسان قريباً من الفضيلة.

أتى رجلٌ إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله أوصني، فقال له: «**فإنّي أوصيك إذا أنت هممت بأمرٍ فتدبّر عاقبته، فإن يكُ رشداً**

---

(١) الحديث مرويٌّ عن الإمام عليّ الهادي عليه السلام. (تحف العقول عن آل الرسول، للشيخ الثقة أبي محمّد الحسن بن عليّ بن شعبة الحرّاني: ص٤٨٣، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي لجماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، قم).

فأمضه، وإن يكُ غيّاً فانتهِ عنه»[1].

الفقرة الثانية: وهم البقاء في الحياة الدنيا أو الغفلة عن محدوديّتها

وهنا يقع الكثير من الناس من الناحية العمليّة في وهمٍ قاتلٍ، وهو وهم البقاء في الحياة، فهو يصدّق بموت أمّه وأبيه، وقد يعاين ذلك بنفسه، ويصدّق بموت أصدقائه وأترابه، بل وحتّى بأبنائه، ولكنّه لا يكاد يصدّق بموته! وهذا هو وهم البقاء في الحياة، الذي يعمّق الحبّ لها وتمنّي الخلود فيها، ولم يدرك أنّها كماء البحر لا يزيد الظمآن إلّا عطشاً، وقد لا يعيش البعض هذا الوهم، ولكنّه غير مختلفٍ من حيث النتيجة؛ لغفلته عن محدوديّة الدنيا، بمعنى أنّه يعتقد بضرورة موته، ولكنّه يعتقد أيضاً بأنّه سيعيش طويلاً!

الفقرة الثالثة: غياب الحصانة في المشارطة والمراقبة والمحاسبة

وهنا ـ كما يُقال ـ تُسكب العبرات، فالإنسان السويّ يحبّ الفضيلة ويمقت الرذيلة، ويبذل قُصارى الجهد في تحقيق الطاعة والاجتناب عن المعصية، ولكنّه لا يمتلك صمّامات أمانٍ لحفظ ذلك الجهد، فتجده يخفق ويعود، ولهذا الإخفاق أسبابٌ كثيرةٌ، ولكنّ أهمّها غياب المشارطة والمراقبة والمحاسبة، وهي أمورٌ لا تنفكّ، فالسابق يقتضي اللاحق، واللاحق متوقّف على السابق.

الفقرة الرابعة: توهّم الكمال في المصداق الخاطئ

عادةً ما يطلب الإنسان لنفسه الخير والفضيلة، ولكنّه يُخطئ في المصداق، أو يتوهّم الطريق، ونظراً لغياب المراقبة والمحاسبة فإنّه يستغرق في الخطأ، وهذا المخطئ قد يكون أمره يسيراً؛ فهو بمجرّد الالتفات يعود للجادّة، ولكنّ

---

(١) الروضة من الكافي، مصدر سابق: ج٨ ص١٤٩ ح١٣٠.

هنالك من عشّاق الدنيا مَن يظنّ أنّ الحيلة في التجارة سبيل الربح، وبل هنالك مَن يظنّ أنّ الربا والسحت وبخسَ الناس حقوقَهم هي سُبلُ الربح الوفير، ولكنّ النتيجة الحقيقيّة لذلك السوق الكبير هي الخُسران المبين.

في ضوء هذه الفقرات يتبيّن سرّ الإخفاق الكثير والانصياع الغريب للإغراءات والمعاصي. إنّها سلطة ذلك السوق الكبير الذي خسر فيه قومٌ وربح آخرون؛ ولذا اقتضى الأمر وجود قوّةٍ مرابطةٍ ورادعةٍ، تُراقب وتُحاسب وتُعاقب، وهنا يأتي دور العقل والشريعة في تنبيه الإنسان من غفلاته، فالعقل وجودٌ نورانيٌّ يدعو للخير والفضيلة، فيكون هو المُشارط والمراقب والمُحاسب.

بعبارةٍ أُخرى: «كما أنّ التاجر يُشارط شريكه أوّلاً، ويراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، وإن قصّر في التجارة (بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال) يعاتبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس إلى أن يرتكب هذه الأعمال، ومجموع هذه الأعمال يسمّى بالمحاسبة والمراقبة، تسميةً للكلّ باسم بعض أجزائه، وقد يسمّى مرابطةً أيضاً»[1].

وأمّا الشريعة فإنّها بطبيعتها آمرةٌ ناهيةٌ، وبهذا تكون في عمليّة ردعٍ مستمرّةٍ، ولكنّ هذا الأمر إنّما يُؤتي أكله لَمَن كان متفقّهاً في دينه، أو كانَ يحترم الشريعة ويعمل على تطبيقها.

بيان المراد من المشارطة

المشارطة هي أوّل مقامات المرابطة، والمراد منها: «أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كلّ يومٍ وليلةٍ مرّةً ألّا يرتكب المعاصي، ولا

(١) جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٧٣.

يصدر منها شيءٌ يوجب سخَطَ الله، ولا يقصّر في شيءٍ من الطاعات الواجبة، ولا يترك ما تيسّر له من الخيرات والنوافل»(١).

ورغم أنّ المشارطة لا وقت خاصّ لها، إلّا أنّ أفضل أوقاتها هو بعد الفراغ عن صلاة الصبح وتعقيباتها، «فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرّغ قلبه ساعةً لمشارطة النفس، كما أنّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك يفرّغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس: ما لي بضاعةٌ إلّا العمر ومهما فني رأس المال حصلت الخسارة ووقع اليأس من التجارة، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله تعالى فيه، وأنسأني أجلي، وأنعم عليَّ به، ولو توفّاني لكنت أتمنّى أن يُرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتّى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنّك توفّيت ثمّ رُددت، فإيّاك ثمّ إيّاك أن تضيّعي هذا اليوم، فإنّ كلّ نَفَسٍ من الأنفاس جوهرةٌ لا قيمة لها»(٢).

فالصبح هو بداية اليوم الفعليّ، حيث يشترط على نفسه الاشتغال بوظائفه الشرعيّة من الطاعات المطلوبة منه في اليوم والليلة، وما يُستحبّ منها من النوافل والخيرات بقدر ما يستطيع، كما عليه أن يجدّد الاشتراط على نفسه بالاستقامة وعدم الانحراف، ويكون هو مسؤولاً أمام مشارطته، ولا ريب أنّ هذه الشروط سيكون مُفتقراً إليها في كلّ يومٍ حتّى يتعوّد ذلك، فإذا اعتادت النفس بتكرار المشارطة بالعمل بها، استغنى عنها؛ نظراً لتحوِّل المشارطة لديه إلى ملكةٍ، فيشتغل بالمراقبة.

وينبغي عليه أن يُمازج المشارطة بالتدبّر في عاقبة كلّ أمرٍ يرتكبه في هذا

(١) جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٧٤.

(٢) انظر: مجموعة ورّام، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٣؛ محاسبة النفس، مصدر سابق: ص١٤؛ جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٧٥.

اليوم والليلة، وقد مرّ بنا حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنّ الوقاية والنجاة إنّما تكون في التأمّل في عاقبة كلّ أمرٍ نرتكبُه، وبواسطة المشارطة والتدبّر نكون قد رسّخنا في نفوسنا العهد والميثاق من جهةٍ، والتخلّص من الغفلة والإهمال من جهةٍ ثانيةٍ.

فائدة المشارطة

وأمّا فائدة المشارطة فهي التخلّص من الغفلة والإهمال وعدم المُبالاة، كما أنّها تُعاجل في تدارك الأُمور، فضلاً عن فائدتها العمليّة الأُولى الكامنة في تعزيز دواعي العمل بالطاعات، والتذكير بذلك، كما أنّها تساعد الإنسان التائب والآيب والمنيب، وغيرهم من طالبي المراتب المعنويّة العُليا، على وضع برنامجٍ عمليٍّ لهم، فالمشارطة هي نفسها برنامجٌ عمليٌّ نتابع فقراته في ساعات اليوم، وفيها فوائد أخرى تتعلّق بتنمية الاستعداد، وفتق الطاقات والقدرات، فالإنسان بمتابعته ما اشترطه على نفسه يساعد نفسه على تحرير طاقاته واكتشاف ما كان غائباً عن خلده من القدرة على العمل والتطبيق.

بيان المراد من المراقبة

المراقبة هي ثاني مقامات المرابطة؛ والمراد منها: «أن يراقب نفسه عند الخوض في الأعمال، فيلاحظها بالعين الكالئة، فإنّها إن تركت طغت وفسدت، ثمّ يراقب في كلّ حركةٍ وسكونٍ، بأن يعلم أنّ الله تعالى مطّلعٌ على الضمائر، عالمٌ بالسرائر، رقيبٌ على أعمال العباد، قائمٌ على كلّ نفسٍ بما كسبت»[١].

وللمراقبة مصداقان أو مراقبان، الأوّل هو الإنسان نفسه، والثاني هو

(١) جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٧٥ ـ ٧٦.

الله تعالى، بمعنى: أن يجعل الإنسانُ نفسه على أفعاله رقيبةً، وهو كما قال تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤)، ويجعل الله تعالى رقيباً أيضاً، وهذه الرقابيّة هي واقعةٌ على كلّ حالٍ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١)، فلا تخفى عليه خافيةٌ، ولا يعزب عنه شيءٌ من قولٍ ومن عملٍ؛ قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق: ١٤)، كما قد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تراه فإنّه يراك**»[١]، وفي الحديث القدسيّ: «**إنّما يسكن جنّات عدنٍ: الذين إذا همّوا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انحنت أصلابهم من خشيتي**»[٢].

ولكنّ المطلوب في المقام هو أن يرى الإنسان ربّه عليه رقيباً؛ لكي يتّقيه ويحفظ نفسه من الوقوع في المهالك، فإنّ مراقبة الله لأعمالنا هي تعبيرٌ آخر عن خشيتنا منه، وأمّا مراقبتنا لأنفسنا فبصفتنا عقلاء فنرصد أفعالنا ونصحّح أخطاءنا.

أقسام المراقبة

للمراقبة أقسامٌ تتعلّق بالفرد نفسه وبأسرته وبمجتمعه، وهي:

أوّلاً: المراقبة الفرديّة، وفيها يراقب الإنسان نواياه وأقواله وأفعاله،

---

(١) مصنَّف ابن أبي شيبة الكوفي، مصدر سابق: ج٧ ص٢٠٨ ح٢٧؛ مسند الإمام أحمد، مصدر سابق: ج١ ص٥١؛ سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٤ ص٦ ح٢٦١٠.

(٢) الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي: ج٥ ص١٦٠، نشر: دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ، بيروت؛ إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٤ ص٣٩٧؛ جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٩٦.

وذهابه وإيابه، وحركاته وسكناته، وكلّ ما يصدر منه.

ثانياً: المراقبة الأسريّة، فهم رعية الأبوين، ولا تتوقّف المراقبة عليهما، فكلّ فردٍ في الأسرة هو رقيبٌ على نفسه وعلى أسرته، وقد روي أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ (التحريم: ٦)، جلس رجلٌ من المسلمين يبكي وقال: أنا عجزت عن نفسي كُلّفت أهلي، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عمّا تنهى عنه نفسك**»[(١)]، وعن أبي بصير في قول الله عزّ وجلّ: ﴿**قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**﴾: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: كيف أقيهم؟ فقال: **تأمرهم بما أمر الله، وتنهاهم عمّا نهاهم الله، فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم، وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك**»[(٢)].

ثالثاً: المراقبة الاجتماعيّة، انطلاقاً من الحديث النبويّ الشهير «**كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤولٌ عن رعيّته**»[(٣)]، وقوله صلّى الله عليه وآله: «**مَن أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلمٍ**»[(٤)]، وأقلّ ما نقدّمه في مراقبتنا الاجتماعيّة هو النصيحة للسائل والمخطئ، فلا نغشّ مسلماً في استشارةٍ، وقد روي عن سفيان بن عيينة أنّه قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **عليك بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعملٍ أفضل منه**»[(٥)].

---

(١) فروع الكافي، مصدر سابق: ج٥ ص٦٢ ح١.

(٢) المصدر السابق: ح٢.

(٣) صحيح البخاري، مصدر سابق: ج١ ص٢١٥.

(٤) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٦٣ ح١، باب (الاهتمام بأمور المسلمين).

(٥) المصدر السابق: ح٣، باب (الاهتمام بأمور المسلمين).

فائدة المراقبة

إنّ للمراقبة فوائد جمّةً، لا غنى للإنسان العاقل عنها، فنحن نلاحظ أنّ الفلّاح يُراقب ما يزرعه خشيةَ تعرّضِه إلى ما يُفسدُه، ونلاحظ الطبيب كيف يراقب مريضَه خشيةَ وقوعِه في انتكاسة صحّيّة، وهكذا الحال في المقام، فعلينا مراقبة نوايانا وأقوالنا وأفعالنا، والآثار المترتّبة على ذلك، فالمراقبة عمليّةٌ وقائيّةٌ وإجراءٌ صحّيٌّ يحمدُه العقلاء الذين أجمعوا على كون الوقاية خيراً من العلاج، والفائدةُ الأُخرى للمراقبة تكمن في تشخيص الأخطاء ورصدِ الإخفاقات ومن ثَمّ العمل على معالجتِها.

البعد المعنوي للمراقبة في كشف حقائق التوحيد

إنّ عوالم التوحيد لا يخطو فيها العبد إلّا بقدم الطاعة التامّة لله تعالى، في جميع أوامره ونواهيه، في العقيدة والشريعة والأخلاق، وهذه الطاعة لا يمكن تحقيق أركانها ورسومها إلّا بالمشارطة والمراقبة والمحاسبة، وإثر المراقبة التامّة والتوجّه إلى النفس سوف يختصر أمامنا مسافاتٍ طويلةً، فهنالك أربع مراتب من التوحيد على السالك تخطّيها، وهي: التوحيد الذاتيّ، والتوحيد الأسمائيّ، والتوحيد الصفاتيّ، والتوحيد الأفعاليّ.

وأشرف أقسام التوحيد هو التوحيد الأفعاليّ[1]، ففيه يتوجّه العبد إلى

---

(١) من حيث الكمال المعنويّ في المنازل الأولى، وعلى المستوى السلوكيّ، وأمّا على المستوى الشهوديّ فإنّ التوحيد الذاتيّ هو أشرف عوالم التوحيد، ففي هذا الشهود السامي سوف ينقطع التوجّه للأسماء والصفات، ولا يبقى في الشهود غير الموجود، وهو ما يسمّى بمقام نفي الصفات، ولا يتحقّق هذا المقام الشهوديّ إلّا بعد أن يكون السالك قد تخطّى وجوده، وصار فانياً في ذات الله تعالى. (منه دام ظلّه).

أنّ جميع أقواله وأفعاله مستندةٌ إلى نفسه، فنفسه هي مصدر أفعاله في الخارج، ثمّ يدرك أنّ نفسه قائمةٌ بذات الحقّ سبحانه، وأنّ نفسه هي نفخةٌ من الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ (الحجر: ٢٩)، فيستنتج من ذلك: أنّ جميع أفعاله تعود لله تعالى؛ فهو المُفيض والمانح لقدرة الفعل. وحيث إنّ الله تعالى لا يصدر منه إلّا الخير فما صدر من خيرٍ منك فهو منه وإليه، وما صدر منك من شرٍّ فهو منك وإليك؛ قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً**﴾ (النساء: ٧٩)[١].

بيان المراد من المحاسبة

المحاسبة هي ثالث مقامات المرابطة وأعمالها، وهي تقع بعد العمل، فإنّ العبد كما يختار وقتاً في أوّل يومه للمشارطة على النفس فإنّه ينبغي له أن يختار وقتاً آخر من يومه للمحاسبة، فالمحاسبة إنّما تكون بعد العمل، وكما أنّ المشارطة تكون في مطلع اليوم، والمراقبة تكون خلال اليوم، فإنّ المحاسبة ينبغي أن تكون في مُختتم ذلك اليوم[٢]، فيبدأ بمحاسبة نفسه على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجّار في آخر كلّ سنةٍ مع شركائهم. ولا ريب أنّ هذا الأمر لازمٌ على كلّ سالكٍ لطريق الآخرة معتقدٍ للحساب في يوم القيامة.

وبالمحاسبة يقف العبد على طاعاته التي وُفِّقَ لها في يومه وليلته فيشكر،

---

(١) لهذا البحث تفاصيل كثيرةٌ، لها أبعادٌ فلسفيّةٌ وعرفانيّةٌ، وقد تناولناها في دروسنا العُليا، وليس هنا محلّ عرضها. (منه دام ظلّه).

(٢) انظر: جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٧٧.

ويقف على معاصيه إن وقعت منه غفلةً أو تعمّداً، فيتوب لله تعالى ويستغفر.

قال الحسن البصري: «المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنّما خفّ الحساب على قومٍ حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنّما شقّ الحساب يوم القيامة على قومٍ أخذوا هذا الأمر من غير محاسبةٍ»(١). ثمّ إنّ محاسبة النفس نوعان هما:

النوع الأوّل: المحاسبة قبل العمل، حيث الوقوف عند أوّل همّنا بالعمل، فننظر أهو عملٌ لله تعالى أم لا؟ وهل هو موافقٌ للشريعة المقدّسة أم لا؟ فإن كان لله تعالى وموافقاً للشريعة، أو كان لأمرٍ دنيويٍّ ولكنّه موافقٌ للشريعة، مضينا به.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، حيث نحاسبها على الطاعات الواجبة هل جئنا بها على النحو المطلوب؟ فإن كنّا كذلك شكرنا الله تعالى، وإلّا صرنا إلى محاسبتها، ولابدّ أن تكون المحاسبة جديّةً وسطيّةً، لا قهريّةً ولا تماهليّةً، فإنّ النفس وما عوّدتها، ولكنّها بالقهر تنفر، وبالتماهل تعود حيثما كنت من الميل الغريزيّ، وقد ورد في ذمّ طاعة النفس عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام قوله: «**إنّ هذه النفوس طلعةٌ، إن تطيعوها تنزع بكم إلى شرّ غايةٍ**»(٢)، أي إنّها كثيرة التطلّع، فإن أطعتموها حيث تطلّعت كان الهلاك هو

---

(١) المصنَّف ابن أبي شيبة، مصدر سابق: ج٨ ص٢٥٧، رقم (٢٣)؛ الجواهر الحِسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) لأبي زيد عبد الرحمن بن محمّد الثعالبي: ج٥ ص٤٧٧، تحقيق: عبد الفتّاح أبو سنة وعليّ محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، بيروت؛ البداية والنهاية، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي: ج٩ ص٣٠١، تحقيق: عليّ شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، بيروت.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: ص١٣٧ ح٤٧٧٨؛ عيون الحكم والمواعظ،

المنتهى، ونعم ما قيل مِن شعرٍ في ذلك[١]:

وما النفس إلّا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تاقت وإلّا تسلّتِ

ونعمَ الحكمة ما جاد بها الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في قوله: «**لا تدَع النفس وهواها؛ فإنّ هواها في رداها، وترك النفس وما تهوى أذاها، وكفّ النفس عمّا تهوى دواها**»[٢]، فيكون هوى النفس مُردياً مهلكاً إن تركناه حاكماً، وإن ردعناها كان الردع دواءً لها.

بعبارةٍ أخرى: «إنّ النفس مائلةٌ إلى هواها، وهي منافع حاضرةٌ، ولذّاتٌ ظاهرةٌ، تقتضيها القوّتان الشهويّة والغضبيّة، مثل الشره والحرص وحبّ المال والجاه والرئاسة وإلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة والأعمال القبيحة، وهي وإن كانت لذّاتٍ بحسب الظاهر لكنّها حيّاتٌ مؤذيةٌ وأمراضٌ مرديةٌ مهلكةٌ بحسب الباطن، وحُجُبٌ مانعةٌ للنفس ممّا هو المقصود منها وهو اتّصافها بالصفات الملكيّة والأخلاق الروحانيّة»[٣].

فائدة المحاسبة

إنّ من أعظم فوائد المحاسبة: حفظ النفس من لوثات الذنوب التي تقع منّا غفلةً أو تعمّداً، فالمحاسبة هي أشبه بالمصفاة التي تقوم بتنقية الأعمال من الشوائب، فلا يُغادر العبد يومه من دون تصفيته من شبهاتٍ مرّت به، أو تجاوزاتٍ وقعت منه عن غضبٍ أو ضغينة، وبهذه التصفية لا

مصدر سابق: ص١٥١؛ وقريبٌ منه في شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١٠ ص١٨.

(١) شرح نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١٠ ص١٨.

(٢) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٣٣٦ ح٤.

(٣) شرح أصول الكافي، مصدر سابق: ج٩ ص٣٩١.

يسمح بتراكم الذنوب عليه، بل سيجلب لنفسه راحةً وطمأنينةً؛ فإنّ الذنوب تثقل الكاهل وتسبّب اضطراباتٍ وكآبةً وحزناً، وبالتالي فإنّ المعاجلة في درك الذنوب بالتوبة والاستغفار سوف تُسهّل على العبد المهمّة، فإذا ما تراكمت صعُبت وتعقّدت عليه المهمّة، وهذا من قبيل المعاجلة بمعالجة الأمراض في أوّل أوانها، فإن تُركت استعصت، واحتاجت من الوقت لمكافحتها أضعاف ما كنّا نحتاجه في أوّل وقتها، فقد يكون ترك المعاجلة ذنباً بحقّ النفس أكبر من أصل الذنب المراد معالجته؛ لأنّ الترك يجعل الذنب شيئاً مُستحسناً ومتمرّداً، والإنسان بطبعه مجبولٌ على مداهنة نفسه، فلا سبيل له سوى المحاسبة، وقد روي في ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَن تعاهد نفسه بالمحاسبة أمِن فيها المداهنة**»(١)؛ ولذلك نجد أهل الورع والتقوى لا يتركون فرصة المحاسبة، وإذا ما غفلوا عنها يوماً أقاموا لأنفسهم محكمةً قاسيةً على أصل الترك، فضلاً عمّا يكون قد وقع عنهم من تقصيرٍ أو قصورٍ، فيعاقِبون أنفسهم بما يحقّق الردع لها، من قبيل حرمانها من الطعام يوماً كاملاً، أو التصدّق بما عندهم، وغير ذلك.

قال الشيخ النراقي: «فإذا أكل لقمةً مشتبهةً ينبغي أن يعاقِب البطن بالجوع، وإذا اغتاب مسلماً يعاقِب اللسان بالصمت والذكر مدّةً كثيرةً، وكذلك يعاقِب كلّ عضوٍ من أعضائه إذا صدرت منه معصيةٌ بمنعه من شهواته، وإذا استخفّ بصلاةٍ ألزم نفسه بصلاةٍ كثيرةٍ بشرائطها وآدابها، وإذا استهان بفقيرٍ أعطاه صفو ماله، وهكذا الحال في سائر المعاصي»(٢).

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: ص٢٣٦ ح٤٧٤٧.

(٢) جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٧٩.

وقد قيل: إنّ العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتّى يحاسب نفسه أكبر من محاسبة الشريك لشريكه، وإنّ من لا يُحاسب نفسه إمّا معتوهٌ أحمق، أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة، والعياذ بالله تعالى[1].

أحاديث حول المحاسبة

سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله عن صحف إبراهيم عليه السلام فقال: «**كانت أمثالاً كلّها، وكان فيها: على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعاتٌ: ساعةٌ يناجي فيها ربّه عزّ وجلّ، وساعةٌ يحاسب فيها نفسه، وساعةٌ يتفكّر فيما صنع الله تعالى، وساعةٌ يخلو فيها بحظّ نفسه من الحلال، وإنّ هذه الساعة عونٌ لتلك الساعات، واستجمامٌ للقلوب، وتفريغٌ لها**»[2].

وأوصى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام، فكان فيما أوصى به إليه: «**يا بنيّ، للمؤمن ثلاث ساعاتٍ: ساعةٌ يناجي فيها ربّه، وساعةٌ يحاسب فيها نفسه، وساعةٌ يخلو فيها بين نفسه ولذّتها فيما يحلّ ويجمل**»[3].

محصّلة إتمام مقامات المرابطة (المشارطة والمراقبة والمحاسبة)

إذا ما أتمّ العبد مقامات المرابطة الثلاثة (المشارطة والمراقبة والمحاسبة)،

---

(١) انظر: انظر: جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٧٨.

(٢) الخصال، مصدر سابق: ص٥٢٥؛ معاني الأخبار، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي: ص٣٣٤، صحّحه: عليّ أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي، طبعة الرابعة، ١٤١٨هـ، قم المقدّسة؛ صحيح ابن حبّان، محمّد بن حبّان: ج٢ ص٧٨، ترتيب: الأمير علاء الدين عليّ بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، نشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، بيروت.

(٣) أمالي الطوسي، مصدر سابق: ص١٤٦ ح٥٣.

يكون ممّن جاهد نفسه، وطوبى له وحُسن مآب؛ فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**طوبى لعبدٍ جاهد في الله نفسه وهواه! ومَن هزم جُند هواه، ظفر برضاء الله، ومَن جاوز عقلُه نفسَه الأمّارةَ بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى، فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى**»(١).

ويكفينا في ثمرة هذه المرابطة المعنويّة أنّنا حقّقنا أعظم أهدافنا في الدنيا، وهو إصلاح النفس، فبالمحاسبة تظهر ثمرات الإصلاح، وقد روي عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**ثمرة المحاسبة إصلاح النفس**»(٢)، وعنه عليه السلام: «**مَن حاسب نفسه ربح، ومَن غفل عنها خسر**»(٣)، وهل هنالك أفضل من الوقوف على العيوب وإصلاحها؟ أَوَ ليس هذا من الزينة، والإنسان عاشقٌ لزينته؟ وما من سبيلٍ لذلك إلّا بهذه المرابطة، فعن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**مَن حاسب نفسه وقف على عيوبه، وأحاط بذنوبه، و استقال الذنوب، و أصلح العيوب**»(٤).

مقام المعاتبة على الذنب والتقصير

إنّ خاتمة مسك المرابطة المعنويّة الجامعة للمشارطة والمراقبة والمحاسبة

---

(١) مصباح الشريعة، المنسوب للإمام جعفر الصادق عليه السلام: ص١٦٩، باب (٨٠) في الجهاد والرياضة، نشر: مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، بيروت؛ بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٦٧ ص٦٩ ح١٥؛ مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ج١١ ص١٣٩ ح٧.

(٢) غرر الحكم، مصدر سابق: ص٢٣٦ ح٤٧٣٦؛ عيون الحكم، مصدر سابق: ص٢٠٨.

(٣) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٤٧ ح٢٠٨.

(٤) غرر الحكم، مصدر سابق: ص٢٣٦ ح٤٧٤٨.

تتمثّل بالمعاتبة، والمعاتبة مقامٌ شريفٌ لا يبلغه إلّا الأتقياء، الذين يحترمون أنفسهم ويريدون لها الشرف والرفعة، فيرفعون من مقامها إلى درجة المعاتبة، وكأنّهم متعجّبون ممّا صدر منهم من قصورٍ أو تقصيرٍ، أو يريدون أن يقولوا لأنفسهم بأنّها نفحةٌ من الله سبحانه، فكيف تتلوّث بالمعاصي. والمعاتبة تتجاوز ذلك لتشمل حتّى الأمور المباحة، كما لو أخّر أحدهم صلاته عن أوّل وقتها لا عن أصل وقتها، فيعاتبها لذلك، ولا تكون المعاتبة إلّا بعد المحاسبة، فيعثر على زلّةٍ في قولٍ أو خطلٍ في فعلٍ، فيكيل لها العتب الشديد، وبعد المعاتبة يتّخذ الإجراء المناسب في ردعها.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ (الذاريات: ٥٠)، أي: ففرّوا من عقابه إلى ثوابه ورحمته، وذلك بالإيمان بالله وبرسوله، واتّباعهما، والعمل بطاعتهما، وأقرب طريق نفرّ به إلى الله تعالى هو الصلاة، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله إذا أصابه أمرٌ فزع إلى الصلاة[(١)]، وكان أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام إذا هاله شيءٌ فزع إلى الصلاة[(٢)]، وروي عن الإمام الباقر عليه السلام في ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ**﴾ أنّه قال: «**حجّوا إلى الله عزّ وجلّ**»[(٣)]، وهذا كلّه فرارٌ إلى الله.
- روينا عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**حاسبوا أنفسكم بأعمالها،**

---

(١) سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني: ج١ ص٢٩٧ ح١٣١٩، تحقيق وتعليق: سعيد محمّد اللحّام، نشر: دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م، بيروت.

(٢) فروع الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٤٨٠ ح١.

(٣) المصدر السابق: ج٤ ص٢٥٦ ح٢١.

طالبوها بأداء المفروض عليها، والأخذ من فنائها لبقائها، وتزوّدوا وتأهّبوا قبل أن تُبعثوا»[1]، فالحياة الدنيا أشبه بالخزف يظنّه الرائي ذهباً، والحياة الآخرة أشبه بالذهب، ذلك المعدن الأصيل الذي لا يبلى، فكيف نتمسّك بالخزف الفاقد للقيمة والفاني، ونترك الذهب الواجد للقيمة؟ ولذا علينا أن نأخذ من فناء دنيانا وهي الخزف، إلى بقاء حياتنا وهي الذهب، فيكون همّنا الواقعيّ تلك الحياة الباقية، وليس في هذه الحياة الدنيا.

خلاصة الدرس

- لا يكاد يخلو كتابٌ أخلاقيٌّ من ذكر المشارطة والمراقبة والمحاسبة.
- الذين يغفلون فيذنبون، إنّما ذلك نتيجة عدم وجود مشارطةٍ، أو الغفلة عن المراقبة، أو التقاعس عن المحاسبة.
- الدنيا سوقٌ كبيرٌ، ربح فيها قومٌ، وخسر آخرون، وبضائعنا فيه: الطاعات والمعاصي.
- المشارطة أوّل مقامات المرابطة، وهي: أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد في كلّ يومٍ وليلةٍ مرّةً بأن تقوم بالطاعات، وأن لا ترتكب المعاصي.
- أفضل أوقات المشارطة هو بعد الفراغ عن صلاة الصبح وتعقيباتها.
- إذا اعتادت النفس بتكرار المشارطة بالعمل بها استغنى عنها؛ نظراً لتحوّلها إلى ملكةٍ، فيشتغل بالمراقبة.
- ينبغي ممازجة المشارطة بالتدبّر في عاقبة كلّ أمرٍ نرتكبه في اليوم.
- فائدة المشارطة هي التخلّص من الغفلة والإهمال وعدم المُبالاة، كما أنّها تُعاجل في تدارك الأُمور، وفتق الطاقات والقدرات.

---

(١) غرر الحكم، مصدر سابق: ص٢٣٦ ح٤٧٤٠.

- المراقبة هي ثاني مقامات المرابطة، وهي: أن يراقب نفسه عند الخوض في الأعمال، فيلاحظها بالعين الكالئة، فإنّها إن تُركت طغت وفسدت.
- للمراقبة مراقبان: الأوّل هو الإنسان نفسه، والثاني هو الله تعالى.
- للمراقبة أقسامٌ تتعلّق بالفرد نفسه وبأسرته وبمجتمعه.
- للمراقبة فوائد جمّةٌ، فهي عمليّةٌ وقائيّةٌ وإجراءٌ صحّيٌّ، تعمل على تشخيص الأخطاء ورصدِ الإخفاقات، ومن ثَمّ العمل على معالجتِها.
- إنّ عوالم التوحيد لا يخطو فيها العبد إلّا بقدم الطاعة، والطاعة لا يمكن تحقيقها إلّا بالمشارطة والمراقبة والمحاسبة.
- المحاسبة: هي محاسبة النفس على جميع حركاتها وسكناتها، فإن وجدت زلّةً استغفرت، وإن وجدت طاعةً شكرت.
- محاسبة النفس نوعان: المحاسبة قبل العمل، والمحاسبة بعد العمل.
- من أعظم فوائد المحاسبة: حفظ النفس من لوثات الذنوب التي تقع غفلةً أو تعمّداً، فهي مصفاة تقوم بتنقية الأعمال من الشوائب.
- المعاتبة خاتمة مسك المرابطة الجامعة للمشارطة والمراقبة والمحاسبة.

مذاكرة

- ما هي نتيجة عدم وجود مشارطةٍ ومراقبةٍ ومحاسبةٍ؟
- ما تعني لك هذه الكلمة (الدنيا سوقٌ كبيرٌ)؟
- ما هو سرّ انجراف الكثير إلى المعاصي، وفرارهم الغريب من الطاعات؟
- ما الذي يُفضي إليه انعدام الرؤية الكونيّة، أو ضعف تأثيرها؟
- ماذا يعني وهم البقاء في الحياة الدنيا؟ وما الذي يؤدّي إليه؟
- ما نعني بتوهّم الكمال في المصداق الخاطئ؟

- ما هو المراد من المشارطة؟ والمراقبة؟ والمحاسبة؟
- هل للمشارطة وقتٌ بعينه؟
- متى يمكن الاستغناء عن المشارطة؟
- ما هي علاقة المشارطة بالتدبّر؟
- ما هي فائدة المشارطة والمراقبة والمحاسبة؟
- ما هي مصاديق المراقبة؟ وما هي أقسامها؟
- من أيّ شيءٍ تنطلق المراقبة الأسريّة والمراقبة الاجتماعيّة؟
- ما هو البُعد المعنويّ للمراقبة في كشف حقائق التوحيد؟
- كيف فهمت هذا القول: «**لا تدع النفس وهواها فإنّ هواها في رداها، وترك النفس وما تهوى أذاها، وكفّ النفس عمّا تهوى دواها**»؟
- ما هي محصّلة إتمام مقامات المرابطة (المشارطة والمراقبة والمحاسبة)؟
- ماذا نعني بمقام المعاتبة على الذنب والتقصير؟

الدرس العاشر

عناية القرآن بإصلاح النفس

- أهداف الدرس
- تمهيد
- القرآن كتاب الحياة
- القرآن خلاصة النظريّات التربويّة والأخلاقيّة
- الرفق القرآنيّ بتربية الإنسان (المنهج الارتقائيّ)
- التوجيه المعرفيّ للقرآن في إصلاح النفس
- التوجيه المعنويّ للقرآن في إصلاح النفس
- النموذج القرآنيّ في تطهير النفس من الأمراض المعنويّة
- النموذج القرآنيّ في التربية والإصلاح هو النموذج الرساليّ
- أسرار قراءة القرآن وحفظه وفهمه والعمل به في مجال الإصلاح
- سرّ التنفّر القرآنيّ من الكفر والفساد
- القرآن حاضنة الإصلاح وبيئة التربية
- فلسفة الترغيب والترهيب (التخويف القرآنيّ)
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان حقيقة كون القرآن كتاب الحياة وخلاصة التربية.
- بيان الرفق القرآنيّ في التربية وتوجيهه المعرفيّ والمعنويّ.
- عرض النموذج القرآنيّ الرساليّ في الإصلاح.
- بيان معطيات رعايتنا للقرآن وأسرار تنفّره من الكفر والفساد.
- بيان كون القرآن حاضنةً للإصلاح وبيئةً للتربية السليمة.
- إبطال تصوير التخويف القرآنيّ في أسلوب الترغيب والترهيب.

تمهيد

يمكن القول بأنّ رسالات الأنبياء جميعاً قد جاءت من أجل إصلاح النفس الإنسانيّة، وقد جاء القرآن الكريم مستوعباً لخلاصة رسالات السماء، فكان دأبه هو إصلاح النفس، ولذلك من الممكن جدّاً أن نقرأ كلّ آيةٍ منه انطلاقاً من هذا الأصل، ولأجل هذه النكتة الجليلة كان من البديهيّ أن نخصّص لهذا الإصلاح القرآنيّ للنفس درساً خاصّاً، بل مقتضى الإنصاف أن نسطّر فيه كتاباً.

في هذا الدرس سنحاول اقتطاف بعض الثمرات القرآنيّة، معرفيّاً ومعنويّاً، والتي ما جاءت إلّا من أجل إصلاح النفس وتقويمها، لننتهي إلى نتيجةٍ حتميّةٍ جامعةٍ، وهي أنّ القرآن هو كتاب الحياة، وهو كتاب الإصلاح.

القرآن كتاب الحياة

لم يُنزّل كتاب الله ليتحكّم برقاب الناس، وإنّما جاء ليعتقهم من عبوديّة النفس، ويحذّرهم من الشيطان الغرور، وليكون لهم كتاب الحياة، فمَن أراد

أن يحيا حياةً طيبةً فعليه بالقرآن، قولاً وعملاً، فقول القرآن تهذيبٌ للّسان، والعمل به تهذيبٌ للجنان، وهو قرآن الفرد والأسرة والمجتمع، وقرآن المدنيّة والحضارة، وقرآن الفكر والثقافة، وقرآن الدنيا والآخرة، والقرآن كتاب الحياة، فإنّه جاء لكي يُصلح الحياة بعد إفسادها، وإصلاح الحياة يكون بإصلاح أنفسنا أوّلاً؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللّٰهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ (الرعد: ١١)، ولأنّ محور الإصلاح في الفرد والأسرة والمجتمع هو النفس الإنسانيّة، فإنّ رسالة القرآن قد كرّست في إصلاح النفس، فإن صلُحت صلُح كلّ شيءٍ، وإن فسدت فسد كلّ شيءٍ، وقد عبّر القرآن عن ذلك بالإحياء، فالقرآن مُحيي النفوس؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ (الأنفال: ٢٤)، وقد دعاهم الله ورسوله إلى القرآن الْمُخرِج لهم من الظلمات إلى النور، وأعمق ظلمة يعيشها الإنسان هي ظلمة النفس، فمنها ينشأ الكفر والفسق والتمرّد، وبقدر ما يزيح الإنسان من ظلمة نفسه يكون قد أنار قلبه.

القرآن خلاصة النظريّات التربويّة والأخلاقيّة

اجتمعت كلّ رسالات السماء على محورين أساسيّين، هما: التوحيد والأخلاق، والتوحيد هو طريق الخلاص من التشرذم والتشتّت، حيث يقضي على العبوديّات المظلمة، عبوديّات التيه والضياع، ويبدلها بالعبوديّة المنيرة، عبوديّة المعرفة والكمال والرقيّ، وأمّا الأخلاق فهي الترجمة العمليّة لدعوة التوحيد.

بعبارة أخرى: «إنّ روح التوحيد ساريةٌ في الأخلاق الكريمة التي يندب إليها هذا الدين، وروح الأخلاق منتشرةٌ في الأعمال التي يكلّف بها أفراد

المجتمع، فالجميع من أجزاء الدين الإسلامي ترجع بالتحليل إلى التوحيد، والتوحيد بالتركيب يصير هو الأخلاق والأعمال، فلو نزل لكان هي»[1]؛ قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

فالتوحيد والأخلاق وجهان لعملةٍ واحدةٍ، لا افتراق بينهما، فالتوحيد يُنتج أخلاقاً زكيّة، والأخلاق تُنتج توحيداً صفيّاً، وإذا ما وضعنا النفس الإنسانيّة بين هاتين المحصّلتين، محصّلة التوحيد ومحصّلة الأخلاق، نجدها لا تكون إلّا بهما، فإن شقّت لها طريقاً آخر لا تجتمع فيه المحصّلتان معاً وقع الفساد في الفكر والسلوك، والفكر والسلوك هما عماد الإنسان، وهل الإنسان إلّا فكرٌ وسلوكٌ؟ ولذلك جاءت رسالات السماء لتتعاطى مع الفكر والسلوك، فغذّت الفكر توحيداً خالصاً، وغذّت السلوك أخلاقاً حميدةً، وبالتالي فضالّتنا الحقيقيّة تكمن في الفكر والسلوك، أو قل: في التوحيد والأخلاق، أو قل: في القرآن الكريم، فهو الكتاب الأوحد الجامع لتينك المحصّلتين العظيمتين، فيكون القرآن الجامع لهما هو خلاصة النظريّات التربويّة والأخلاقيّة.

فما نترصّده وما نتأمّله في متابعاتنا الفكريّة والثقافيّة، وفي تجاربنا العمليّة والسلوكيّة، قد تجلّى بأرقى صوره وأعمق معانيه وأسلم طرقه في القرآن، فهو كما وصف نفسه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ (الإسراء: ٩).

الرفق القرآنيّ بتربية الإنسان (المنهج الارتقائي)

قلنا بأنّ الإنسان فكرٌ وسلوكٌ، والعمل على صناعة الفكر وتغيير خريطة التفكير، يحتاج إلى جهودٍ عظيمةٍ وإمكاناتٍ كبيرةٍ، ولمّا بُعث النبيّ

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٤ ص١٠٩.

صلّى الله عليه وآله في ذلك المجتمع الجاهلي كان لابدّ له من البدء من منطقة الفكر، ثمّ الانتقال إلى منطقة السلوك، فكان الفكر متجسّداً في القرآن المكّي، واستغرقت رحلة التغيير الأولى ثلاث عشرة سنةً، مليئةً بالتضحيات والآلام والأمل، لتنطلق بعدها رحلة الدفاع عن ذلك الفكر، وبناء السلوك القويم، فلم يأتِ القرآن بسلطة السيف والقتل والدماء في رحلة انتشار الفكر، فهو قرآنٌ بانٍ وليس كتاباً هادماً، والذين حمّلوا القرآن لغة السيف والقتل والذبح هم جهلةٌ به، بل هم جهلة القرون بأسرها.

إذن فالمسيرة الفكريّة المتبوعة بالمسيرة السلوكيّة تحكي لنا بوضوحٍ إرفاقيّة القرآن في بنائه للإنسان الجديد، فقد كان النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يمتلك في فترة الدعوة غير القرآن وأخلاقه الشريفة، ولمّا انتقل إلى مرحلة الدولة وبناء السلوك الإنسانيّ لم يكن معه غير القرآن ومكارم أخلاقه، ومن روائع السلوك الأخلاقيّ النبيل للنبيّ صلّى الله عليه وآله والذي يعكس إرفاقيّته في التربية، أنّه دخل ذات يومٍ أعرابيٌّ إلى المسجد فبال في ناحيةٍ منه! فصاح به أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله، وأرادوا أن يقيموه، فنهاهم النبيّ صلّى الله عليه وآله حتّى إذا فرغ أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله فأهريق على بوله ماءٌ، ثمّ قال له: إنّ هذا مكانٌ لا يُبال فيه، إنّما بُني للصلاة[1].

ولو لاحظنا مجمل الأحكام الشرعيّة فإنّها لم تُسنّ في آنٍ واحدٍ، فالصلاة

---

(١) انظر: مصنّف الصنعاني، مصدر سابق: ج١ ص٤٢٤ ح١٦٦٠؛ سنن النسائي، مصدر سابق: ج١ ص٧٥ ح٥٤.

والغريب أنّ جملةً من الفقهاء عندما يمرّون بهذه الرواية يسوقونها لأجل بيان كيفيّة تطهير المكان من البول، ولا يُشيرون إلى أبعادها الأخلاقيّة والتربويّة!

تقدّمت على الصوم، والحجّ جاء في السنوات الأخيرة، وفي الجانب التربويّ نجد القرآن يبدأ بإصلاح النفس خاصّةً، فعلى كلّ مسلمٍ أن يقوم بإصلاح نفسه، ثمّ تطوّر الأمر في الوظيفة الإصلاحيّة، حيث جعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه وعن أسرته، ثمّ ارتفع مستوى المسؤوليّة وارتقت لتبلغ أوجها في شمول المسؤوليّة للمجتمع نفسه، وهذا كلّه يندرج ضمن السياسة الإرفاقيّة للقرآن في بناء الإنسان.

التوجيه المعرفيّ للقرآن في إصلاح النفس

كنّا قد أجملنا الحديث عن دور القرآن في البناء الفكريّ والسلوكيّ للإنسان، وقد ظهر أنّ هنالك إرفاقيّةً في البناء والتربية، والآن نريد أن نوضّح هذه الفكرة البنائيّة والإصلاحيّة القرآنيّة للإنسان على المستويين، المعرفيّ الخاصّ بالجانب الفكريّ، والمعنويّ الخاصّ بالجانب المعنويّ.

لم ينفك القرآن الكريم عن الدعوة للعلم والتعلّم والتفقّه في الدين، ولم يرتضِ إيماناً بلا علمٍ، لأنّ الجهل لا يُنتج إيماناً واقعيّاً، ولذلك ميّز بين أهل العلم ومَن سواهم؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ (الزمر: ٩)، ثمّ فرّق بين أهل البصيرة ومَن سواهم؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الأنعام: ٥٠).

ولو تأمّلنا بدعوة القرآن للعلم والمعرفة لوجدناها كلّها تسير باتّجاه إصلاح النفس، فالتخلّص من الجهل هو إصلاحٌ معرفيٌّ، والتفقّه في الدين هو إصلاحٌ معرفيٌّ، وهذا العلم الإلهيّ هو المفضي لصلاح السريرة، ويجعل منهم أُناساً صالحين عابدين؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا**

﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ (الإسراء: ١٠٧)، وقد كان إبراهيم الخليل عليه السلام يدعو أباه على أساس علم تسلّح به، وبه تكون الهداية والسير على الصراط؛ قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ (مريم: ٤٣)، فإذا أردنا العمل على إصلاح النفس فلابدّ أن نستجيب لدعوة القرآن في تحصيل العلم، وأقلّه هو العلم بالعقيدة والشريعة.

التوجيه المعنويّ للقرآن في إصلاح النفس

وأمّا التوجيه القرآنيّ المعنويّ في إصلاح النفس فهو الشطر الثاني من رسالات الأنبياء عليهم السلام، حيث قدّم القرآن خلاصتها وذروتها، فعرض السلوك المعنويّ الوسطيّ، رافضاً الإفراط والتفريط، فلم يرتضِ سلوكيّة الرهبنة وهي الإفراط؛ قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٧)، فالآية تشير إلى رهبانيّةٍ كتبها الله تعالى عليهم طلباً لرضوانه، ورهبانيّةٍ أخرى هم ابتدعوها، أمّا التي كتبها عليهم فهي بعض العبادة في الليل، وقد جاء في خبرٍ عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام «أنّه قال في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللهِ﴾؟ قال: صلاة الليل»[(١)]، فلم يرعوا هذه العبادة حقّ رعايتها، حيث ابتدعوا رهبانيّةً خاصّةً بهم، وهي الانقطاع بالعبادة عن الناس، ولبس المسوح، وتحريم النساء عليهم، والسياحة في البراري، وغير ذلك، ولا ريب أنّ الرهبانيّة الأولى ـ صلاة الليل ـ هي شرف المؤمن، وهي الطريقة المقبولة، فهي طريقةٌ

---

(١) مَن لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج١ ص٤٧٢ ح١٣٦٢.

وسطيّةٌ، بخلاف الرهبنة الإفراطيّة، فإنّها ضربٌ من الهوس غير المبرّر، فضلاً عن كونها غير مقبولةٍ شرعاً.

إذن فالرهبانيّة الثانية التي ارتضاها الله تعالى لهم، غير الأولى المبتدعة، إلّا أنّه لّما اتّفق الاسمان فيهما كنّى عنهما بما تقدّم، وقام إعادة لفظهما مقامهما(١)، وذكر البعض توجيهاتٍ أخرى لم نجدها مناسبةً(٢).

جدير بالذكر: أنّ تلك الرهبانيّة المبتدعة إنّما صارت كذلك لأنّها عبّرت عمليّاً عن موت الحياة، وإلّا فهنالك في الشريعة شيءٌ قريبٌ من هذه الرهبانيّة المنقطعة عن الحياة، ولكنّه محدودٌ جدّاً، كما في سنّة الاعتكاف، فهي سنّةٌ شرعيّةٌ مباركةٌ، ينقطع فيها العبد لله تعالى، فيكفي أن يعتكف العبد في العام ثلاثة أيّامٍ، كما يكفيه التفرّغ للعبادة في العشر الأواخر من شهر رمضان؛ طلباً لليلة القدر المباركة، ويكفيه أن يكون ديدنه في الحياة:

---

(١) التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٩ ص٥٣٦.

(٢) عن قتادة أنّه قال في توجيه الآية: «وتقديره ورهبانيّةً ما كتبناها عليهم، إلّا أنّهم اتّبعوها ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقّ رعايتها». (مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٩ ص٤٠٣)، وإليه مال السيّد العلّامة، ولكنّه عرضه بطريقةٍ فنّيةٍ أخرى، فقال: «والمعنى: أنّهم ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانيّةً من غير أن نشرّعه نحن لهم. وقوله: ﴿إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، استثناءٌ منقطعٌ معناه ما فرضناها عليهم لكنّهم وضعوها من عند أنفسهم ابتغاءً لرضوان الله وطلباً لمرضاته فما حافظوا عليها حقّ محافظتها بتعدّيهم حدودها. وفيه إشارةٌ إلى أنّها كانت مرضيّةً عنده تعالى وإن لم يشرّعها، بل كانوا هم المبتدعين لها». (الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٩ ص١٧٣). والصحيح ما أثبته السيّد الأستاذ دام ظلّه؛ فالابتداع في العبادات أمرٌ محرّمٌ، ولا يمكن أن يكون محلّ رضوانه سبحانه، ولذلك فما جاؤوا بعباداتٍ منهم عبّر عنها بالابتداع، وقد سمّى القرآن العبادة المكتوبة بالرهبانيّة أيضاً لأنّها عبادةٌ فوق العادة.

أن يأكل من أجل أن يعيش لا أن يعيش من أجل أن يأكل، فهذه صنوفٌ من الزهد والرهبنة الشرعيّة.

وفي قبال الرهبانيّة المبتدعة لم يرتضِ القرآن سلوكيّة التفريط بالعبادات المكتوبة، والتخلّف عنها، تحت أيّ سببٍ كان، فذلك انحرافٌ خطيرٌ، ولذلك نجده يصرّ كثيراً على إقامة الصلاة؛ قال تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ (البقرة: ٤٣)، وقال تعالى: ﴿**فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾ (النساء: ١٠٣)، وقد طلب منّا الصلاة المقرونة بالتقوى؛ قال تعالى: ﴿**وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ**﴾ (الأنعام: ٧٢)، كما جعل الغاية الحقيقيّة من الصيام هي التقوى؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣).

كما طلب منّا أن نسعى لتحصيل نصيبنا من الحياة لا أن نستغرق في الحياة الدنيا، فعبّر عن ذلك بأجمل تعبيرٍ في قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (القصص: ٧٧)، وهذه الآية تشتمل على خريطةٍ موجزةٍ للتعاطي مع الدنيا والآخرة، فما عندنا من خيرٍ نطلب به وجه الله تعالى، وأن لا ننسى نصيبنا في الدنيا، من زواجٍ وطعامٍ وسائر المتع المباحة.

النموذج القرآنيّ في تطهير النفس من الأمراض المعنويّة

سنحاول أن نقف في هذا النموذج القرآنيّ لتطهير النفس من الأمراض المعنويّة على محورٍ أساسيٍّ في كلّ عمليّة إصلاحٍ للنفس، وهو الإيمان، بل هو

محور الإصلاح في الأسرة والمجتمع والحياة، ومحورٌ فرعيٌّ مترتّبٌ على الإيمان والإصلاح، وهو نفي الخشية على المصلح نفسه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأنعام: ٤٨)، وفي الآية ثلاثة مطالب، هي:

المطلب الأوّل: التبشير والإنذار استراتيجيّة الرسالات السماويّة

وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، فهم ـ بحسب التفسير التقليديّ ـ مبشّرون بنعيم الجنّة ومنذرون من عذاب النار، ولكنّنا لو تأمّلنا أكثر وانطلقنا من فذلكة رسالات السماء القائمة على أساس الهداية وإصلاح النفوس وبناء الإنسان، سنجد أنّهم إنّما أُرسلوا لأمّة الإنسان مبشّرين لهم بالهداية وإصلاح نفوسهم، وإنقاذهم من الجهل والتخلّف والأمراض المعنويّة كافّةً، ومنذرين لهم من البقاء على ما هم عليه من انحطاطٍ وتسفّلٍ، فرُسُل الله هم البصائر التي نُبصر بها طريقنا في إعمار الأرض وإصلاح نفوسنا؛ قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، وكلّ واحدٍ منّا هو على نفسه حفيظٌ بما جاءه من البشرى والإنذار، وعليه فالكُرة ـ كما يُقال ـ في ملعبنا، والمسؤوليّة منجّزةٌ علينا، والرؤية واضحةٌ، وليس أمامنا سوى المضيّ في عمليّة الإصلاح، ويبقى الاختيار سيّد الموقف؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (الجاثية: ١٥).

المطلب الثاني: ثنائيّة الإيمان والعمل الصالح

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾، فالإصلاح متفرّعٌ على الإيمان،

والإيمان بنفسه مفضٍ للإصلاح، فمَن ادّعى الإيمان ولم يصلح نفسه؛ فإيمانه صوريٌّ لا أثر له، ومَن أدّى به إيمانه إلى رحلة التغيير الواقعيّة؛ فذلك هو الإيمان الواقعيّ، وهذه الثنائيّة هي الضمانة في تحقيق الإصلاح الواقعيّ، فالإنسان قد يعمل على إصلاح نفسه وهو ليس بمؤمنٍ، ولكنّه إصلاحٌ دنيويٌّ محدودٌ، فالإنسان ما جاء ليخلد في الحياة الدنيا، ولن تنقطع حياته بالموت، فهنالك حياةٌ أكثر حضوراً وإشراقاً، حياةٌ باقيةٌ لا تزول، ونحن نريد هذا الإصلاح لنكون مهيّئين لتلك الحياة، من دون أن ننسى مقتضيات الحياة الدنيا، وبعبارةٍ أخرى: نحن لا نريد إصلاحاً جزئيّاً، وإنّما نسعى للإصلاح الكلّي، في الفكر والسلوك، بنحوٍ يضمن لنا السعادة في الدارين، ولذا فالثنائيّة هي ثنائيّة الإيمان والإصلاح، وهذه الثنائيّة القرآنيّة شكّلت شرطاً واقعيّاً لتحقيق الأمن والسعادة.

المطلب الثالث: نفي الخوف والحزن بتحقق الإيمان والإصلاح

ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾، وهنا يأتي جواب الشرط وجزاؤه لتلك الثنائيّة القرآنيّة، حيث الأمن والطمأنينة، والسعادة والسرور، ثنائيّةٌ واضحةٌ لا غموض فيها، وجزاءٌ واضحٌ جليٌّ، وما دمنا واجدين لأصل الثنائيّة، وسائرين في تحقيق تفاصيلها؛ فنحن في أمانٍ، وهذا الأمان ربّما يُفهم من ظاهر الآية بأنّه خاصٌّ بالدار الآخرة، حيث نكون في يوم القيامة في أمنٍ من الفزع الأكبر، ولكنّ الصحيح هو الأعمّ من ذلك، فالمؤمن المصلح لنفسه يعيش الأمن والطمأنينة في الدنيا قبل الآخرة؛ قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد: ٢٨).

النموذج القرآنيّ في التربية والإصلاح هو النموذج الرساليّ

لا ريب أنّنا بأمسّ الحاجة إلى وجود القدوة والأُسوة في عمليّة الإصلاح لأنفسنا، وقد قلنا بأنّنا ما دمنا واجدين لأصل الثنائيّة (الإيمان والإصلاح) وسائرين في تحقيق تفاصيلها، فنحن في أمنٍ وأمانٍ، وهذه التفاصيل تحتاج إلى محرّكٍ واقعيٍّ نتعايش معه، ونستمدّ منه، وهو القدوة والمثل الأعلى، فإنّ: «هذا المثل الأعلى هو الذي يحدّد الغايات التفصيليّة، وينبثق عنه هذا الهدف الجزئيّ وذلك الهدف الجزئي، فالغايات بنفسها محركاتٌ للتاريخ وهي بدورها نتاجٌ لقاعدةٍ أعمق منها في المحتوى الداخليّ للإنسان، وهو المثل الأعلى الذي تتمحور فيه كلّ تلك الغايات وتعود إليه كلّ تلك الأهداف»[1].

ولابدّ أن يكون هذا المثل الأعلى مرتبطاً بالسماء، مرتبطاً بالإمداد الذي لا ينتهي، وإلّا فكلّ مثلٍ أعلى غير مرتبطٍ بالسماء وليس له منصبٌ إلهيٌّ، فإنّه سوف يكون في المستقبل مثلاً تكرارياً، وتمثالاً لا حراك فيه، ووجوداً قابلاً للموت أو الانجماد، و«حينما يتجمّد هذا المثل الأعلى، حينما يستنفد طاقته وقدرته على العطاء، حينئذٍ يتحوّل هذا المثل إلى تمثالٍ، ولا يبقى مثلاً، وإنّما سوف يتحوّل إلى تمثالٍ، والقادة الذين كانوا يعطون ويوجّهون على أساسه يتحوّلون إلى سادةٍ وكبراء لا إلى قادةٍ، وجمهور الأمّة يتحوّل إلى مطيعين ومنقادين لا إلى مشاركين في الإبداع والتطوير»[2]، وهذه المرحلة

---

(١) المدرسة القرآنيّة، للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قدّس سرّه: ص١١٩، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، نشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية للشهيد الصدر قدّس سرّه، الطبعة الثانية المحقّقة، ١٤٢٤هـ، قم.

(٢) المدرسة القرآنيّة، مصدر سابق: ص١٣٨.

هي التي عبّر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ (الأحزاب: ٦٧)، وبالتالي فإنّ القدوة والمثل الأعلى سوف يكون حجر الزاوية في رحلة التغيير، «فبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشريّة صالحاً وعالياً وممتدّاً تكون الغايات صالحةً وممتدّةً، وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدوداً أو منخفضاً تكون الغايات المنبثقة عنه محدودةً ومنخفضةً أيضاً»[1]، وبالتالي فإنّ المحتوى الداخليّ للإنسان وعمليّة التغيير المطلوبة فيها مرتبطةٌ ارتباطاً وثيقاً بالمثل الأعلى.

ومن هذا المنطلق فقد اجتبى الله تعالى ثلّةً من البشر، فجعلهم أنبياء ورسلاً وأئمّةً؛ ليكونوا قدوةً ومثلاً أعلى لنا في الارتباط بالله تعالى، الذي هو المثل الأعلى المطلق، فجعل الله تعالى هذه الوسائط المعصومة طريقاً للوصول والاقتداء بالمثل الأعلى المطلق، وبالتالي فإنّ النموذج الواقعيّ في التربية والإصلاح لنا هو النموذج الرساليّ، وقد اختاره الله تعالى أن يكون مثلاً أعلى وقدوةً وأُسوةً لأنّهم القادة الواقعيّون في تحقيق الإيمان وإصلاح

---

(١) المدرسة القرآنيّة، مصدر سابق: ص١١٩.

يرى السيّد الشهيد الصدر قدّس سرّه أنّ هنالك ثلاثة أقسام للقدوة والمثل الأعلى، وهي:

القسم الأوّل: مثلٌ منخفضٌ تكراريٌّ يستمدّ تصوّره وكماله من الواقع نفسه.

القسم الثاني: مثل متوسّطٌ مشتقٌّ من طموح الأُمّة وتطلّعها نحو المستقبل، فهو ليس تكراريّاً لأنّه يُمثّل تحفّزاً نحو حالةٍ من الإبداع، ولكنّه غالباً ما ينتهي به المطاف إلى التكراريّة بعد انطفاء جذوته.

القسم الثالث: المثل الأعلى المطلق، وهو الله سبحانه، إنّه مثلٌ ليس من نتاج الإنسان، وليس إفرازاً ذهنيّاً له، بل هو مثلٌ أعلى له واقعٌ عينيٌّ، غير قابلٍ للانطفاء لأنّه مطلقٌ في ذاته، وغير قابلٍ للتكراريّة، لأنّه ليس نتاجاً بشريّاً. (المصدر السابق: ص١٢٢، ص١٣٦ـ١٣٧، ص١٤٦ـ١٤٧).

الأنفس؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١)، وحيث إنّ الإصلاح المنشود هو الإصلاح المتفرّع على الإيمان ـ كما تقدّم ـ فقد جاء في التذكير بالله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾، ويوم القيامة: ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، والارتباط الوثيق بالله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾.

أسرار قراءة القرآن وحفظه وفهمه والعمل به في مجال الإصلاح

الارتباط بالقرآن، بأيّ نحوٍ كان، هو تعبيرٌ آخر عن الارتباط بالله تعالى، والمستوى القيميّ لذلك الارتباط بالقرآن سينعكس فيه المستوى القيميّ للارتباط بالله تعالى، والله تعالى يتعاطى معنا بواقعيّةٍ مطلقةٍ، فيرتضي منّا أيّ نحوٍ من الارتباط الصحيح، ولكنّه لا يتوقّف عنده، ما دام في سعة المكلّفين؛ قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وحيث إنّنا نريد أن نحقّق شيئاً من واقعيّة الارتباط هذه، فإنّنا سوف ننطلق من القرآن الكريم، فإنّ الارتباط به هو الآخر على مستوياتٍ، وهي:

أوّلاً: قراءة القرآن، حيث تحقّق نوع ارتباطٍ ممهّدٍ لارتباطاتٍ أخرى، ولكنّه محدودٌ بزمن القراءة، فما دمنا في رحلة تصفّح وقراءة القرآن فهذا الارتباط موجودٌ، حتّى وإن كان صوريّاً، ولهذا الارتباط الصوريّ منافع جمّةٌ، منها أنّه يساعدنا على التعرّف على المفردات القرآنيّة، ويجعلنا نردّدها مع أنفسنا، فتكون بعض مفرداتنا قرآنيّةً.

ثانياً: حفظ القرآن، وهو مرتبةٌ أعلى وأسمى، فحفظ القرآن مشتملٌ على الكمال السابق، وفضيلته هو أنّنا زوّدنا خزائن الذاكرة بهذه المفردات والجمل القرآنيّة، وهذا الحفظ حتّى وإن كان صوريّاً فإنّ له تأثيره المباشر

على القلب والنفس، فإذا ما وقع شيءٌ لإنسانٍ في تفاصيل حياته فإنّ تلك المفردات والجمل القرآنيّة سوف تقفز أمامه، مبشّرةً ومنذرةً.

ثالثاً: فهم القرآن، وهو بلا ريب أشرف من المرتبتين السابقتين، ففيه تنتظم المسيرة الفكريّة، أو قل بأنّ الشطر الأوّل من الإصلاح، وهو الإصلاح الفكريّ سوف يتحقّق منه الشيء الكثير.

رابعاً: العمل بالقرآن الكريم، وهو أشرف المراتب السابقة بلا ريب، وفيه يتحقّق الشطر الثاني من الإصلاح، وهو السلوك، فالإنسان ـ كما قدّمنا ـ فكرٌ وسلوكٌ، وفهم القرآن إصلاحٌ لفكره، والعمل به إصلاحٌ لسلوكه، وبذلك تتمّ عمليّة إصلاح الإنسان لنفسه.

سرّ التنفّر القرآنيّ من الكفر والفساد

إنّ الإنسان ـ كما عرفت ـ فكرٌ وسلوكٌ، وكلّ شيءٍ يتعارض مع إصلاح الفكر والسلوك فهو ممقوتٌ من قبل القرآن الكريم، ولا ريب أنّ أبشع شيءٍ يقع فيه الإنسان على المستوى الفكريّ والعقديّ هو الكفر والشرك والإلحاد، فذلك هو المعوّق الحقيقيّ للإصلاح الفكريّ، كما أنّ أبشع شيءٍ يقع فيه الإنسان على المستوى السلوكيّ هو الفسق والفجور، فذلك هو المعوّق الحقيقيّ للإصلاح السلوكيّ، ولذلك حيث إنّ الكفر والفسق هما المعوّقان الحقيقيّان اللذان يقفان أمام الإصلاح الفكريّ والسلوكيّ فإنّنا نجد أكثر شيءٍ يتنفّر منه القرآن هذين الأمرين القبيحين؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ (لقمان: ١٣)، والعظيم هنا بمعنى أنّه ليس هنالك شيءٌ أعظم منه؛ لأنّه يفقده الصلة بالمثل الأعلى.

وأمّا الفسق فإنّ أقلّ ما فيه من سوءٍ هو أنّه يُنسي صاحبه ذكر الله؛ قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٩)، أي: ولا تكونوا كالذين نسوا طاعة الله تعالى فأنساهم أنفسهم، والفسق يؤدّي إلى ما هو أكثر وأبشع من ذلك، حيث يكون سبباً مباشراً للوقوع في الكفر بآيات الله؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (البقرة: ٩٩)، فمن جمع بين الشرّين معاً، الكفر والفسق، فإنّه سيكون أبعد ما يكون عن عمليّة الإصلاح المطلوبة، وهذا ما يجعل القرآن أكثر تنفّراً من أصحاب هذا النموذج السيّئ؛ قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ (الفتح: ٦).

القرآن حاضنة الإصلاح وبيئة التربية

من مجموع التوجيهات القرآنيّة في مجال الفكر والسلوك يتّضح أنّ القرآن الكريم هو حاضنة الإصلاح الحقيقيّ والواقعيّ، وهو بيئة التربية، وبعبارةٍ أخرى: إنّه الحصانة الفعليّة التي تقي الإنسان من الزلل، حصانةٌ من الانزلاق الفكريّ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ (الإسراء: ٤٥)، وحصانةٌ من الانزلاق السلوكيّ؛ قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤)، فما دمتم تتلون الكتاب فعليكم أن تبدأوا بأنفسكم، فهو وقايةٌ لكم من الانزلاق في حبّ التملّك، بل وشفاءٌ من كلّ مرضٍ؛ قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً﴾ (الإسراء: ٨٢)، فهو قاضٍ على بؤر الشكّ والريبة، وعلى كلّ ملامح الفسق.

فلسفة الترغيب والترهيب (التخويف القرآنيّ)

يعتبر أسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب القرآنيّة المشهورة، وقد استعمله القرآن كثيراً في بيانه العقيدة الصحيحة والأحكام الشرعيّة، حيث رغّب بها وحذّر من تركها، وهنا ربّما يُفهم خطأً: أنّ القرآن تقصّد سياسة التخويف، وأنّه أراد من العباد أن يكونوا خائفين وجلين، وهذا من التوهّمات الشائعة، كما قد تبدو هذه التخويفات القرآنيّة متّجهةً إلى تجميد طاقات الإنسان، فالإنسان الخائف لا يمكن أن يكون فاعلاً ومبدعاً، فكيف يتسنّى للإنسان أن يكون فاعلاً ومتفاعلاً، وعاملاً بالقرآن والسنّة الشريفة وهو يُزَقّ فكراً قائماً على أساس الخوف والرعب؟! كيف يمكن لنا أن نصنع إنساناً قرآنيّاً منتجاً وهو يلاحظ أنّ هنالك شرخاً واضحاً في مفرداته ومعانيها المتلقّاة من رؤىً قاصرةٍ، ولا تصلح أن تكون موجّهاً حقيقيّاً نحو الإصلاح؟

ولذلك نقول بأنّ القرآن جاء ليزرع في النفوس الأمل والتفاؤل، جاء ليدعوه للعمل والإنتاج، والتدبّر والإبداع، جاء لمنحه الحريّة المسلوبة من تخويفات الأسرة والمجتمع، تخويفاتٍ تربويّةٍ قائمةٍ على أسس خاطئةٍ، تجعل الإنسان خائفاً من كلّ شيءٍ، حتّى من نفسه! يزرعون في عقله ووجدانه هياكل لكائناتٍ خرافيّةٍ، وبهذه العقليّة التخويفيّة الخرافيّة يظهر عندنا علماء ومجتهدون ومفسّرون، فيسقطون خوفهم الخرافيّ على قراءة النصوص، ويصوّرون لنا القرآن بأنّه يمثّل سلطةً تخويفيّةً! سلطةً ما جاءت إلّا لتجميد طاقاتنا، وتجعل منّا نحلة عبادة يقف على رأسها جلّادون إن هي أخطأت أو تقاعست!

أليس هذا هو القتل الواقعيّ للحياة؟ أليس هو تعبيراً صريحاً عن إصابة الحياة بالشلل التامّ؟ يعيش الإنسان بانتظار موته!! وكأنّه قد وُجِد خطأً في

هذه الحياة، وأنّ تصحيح خطئه إنّما يكون بالموت!

فلِمَ كانت بعثة الأنبياء؟ أليست من أجل إثارة دفائن العقول[1]؟ أين هي بواعثُ الحياة، وتفعيل الطاقة، وتنمية الفكر، وجديّة العمل في بناء الحياة؟

كيف لنا أن نحارب الطغاة والمفسدين في الأرض ونحن خائفون وحذرون من كلّ شيءٍ؟ بل كيف يتسنّى لنا إنقاذ الحياة من العبث الخرافيّ والرؤى الظلاميّة المستشرية فيها ونحن خائفون من أنفسنا؟ خائفون من أمسنا وحاضرنا ومستقبلنا! خائفون من شيءٍ هو مصدر قوّةٍ لنا، وهو الموت!

إنّ النظرة الموضوعيّة لكلّ الآيات القرآنيّة التي تناولت موضوع الموت تُلزمنا بأنّها ما جاءت إلّا لتجديد الحياة، بل حتّى القصاص بالموت إنّما هو من أجل الحياة؛ قال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٧٩)، بل حتّى تحذيراته من الموت هو تعبيرٌ آخر عن الدعوة الجادّة للإصلاح، كما في قوله تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ (النساء: ٧٨)، فما دام أمامنا الموت فعلينا أن نكون نحلة عملٍ، ونحلة إصلاحٍ، بل ليس أمامنا سوى العمل على إصلاح أنفسنا وأُسرنا ومجتمعنا، لا أن نكون سلبيّين تجاه أنفسنا وأُسرنا والمجتمع، ولذلك نجد أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام، وهو من زعماء الإصلاح في العالم، يقول: «**ومَن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات**»[2]، وبهذا الوصف

---

(١) مرّ بنا قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصف وظيفة الأنبياء عليهم السلام بقوله: «**ويثيروا لهم دفائن العقول**». نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص٢٣، الخطبة الأولى.

(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٧ ح٣١؛ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس

الصريح للموت نفهم أنّ الموت في الرؤية الإلهيّة هو طريقةٌ مثلى لتنشيط الحياة، وليس لقتلها، وسنأتي على ذكر الموت وفلسفته ودوره الهامّ في إصلاح النفس(١).

إذن فالموت أسلوبٌ قرآنيٌّ لم يُرَد به ذلك الفهم الخاطئ من التخويف والإرهاب النفسيّ، وبالتالي فأسلوب الترهيب إنّما هو طريقةٌ واعيةٌ لشحن الإنسان بالطاعة ولتنشيط الحياة، فهو عنصر قوّةٍ لنا وليس عنصر ضعفٍ، فلو لم يكن هنالك موتٌ وتذكيرٌ به لكانت الحياة عبثيّةً وشريرةً، بنحوٍ سيضطرّ الإنسان العاقل فيها إلى شراء الموت بما يملك من مالٍ وجاهٍ.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (الزمر: ٢٧)، وضرب الأمثال القرآنيّة فيه بُعدان، فكريٌّ وسلوكيٌّ، وكلاهما يؤدّيان إلى إصلاح النفس الإنسانيّة وبنائها.
- قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**مَن أصلح سريرته أصلح الله علانيته. ومَن عمل لدينه كفاه أمر دنياه، ومَن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس**»(٢)، وكفى بها موعظةً لمَن ألقى السمع.

الدين أبو عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي: ج٢ ص١٩٩، رقم (٣٤٤٢)، تحقيق: عليّ محمّد البجاوي، نشر: دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ، بيروت؛ لسان الميزان، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: ج٣ ص٨٢ ، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، ١٩٧١م، بيروت.

(١) في الدرس السادس عشر من هذا الكتاب، وهو الدرس الأخير فيه.

(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٩٩، خطبة رقم (٤٢٣).

خلاصة الدرس

- قول القرآن تهذيبٌ للّسان، والعمل به تهذيبٌ للجنان، وهو قرآن الفرد والمجتمع، وقرآن المدنيّة والحضارة، والفكر والثقافة، والدنيا والآخرة.
- محور رسالات السماء يكمن في التوحيد والأخلاق، وهما وجهان لعملةٍ واحدةٍ، فالتوحيد يُنتج أخلاقاً، والأخلاق تُنتج توحيداً.
- الفكر والسلوك هما عماد الإنسان، بل الإنسان هو فكرٌ وسلوكٌ.
- إنّ رسالات السماء غذّت الفكر توحيداً خالصاً، والسلوك أخلاقاً حميدةً.
- ما نترصّده فكريّاً وثقافيّاً وسلوكيّاً، قد تجلّى بأرقى صوره وأعمق معانيه وأسلم طرقه في القرآن.
- المسيرة الفكريّة المتبوعة بالمسيرة السلوكيّة تحكي بوضوحٍ إرفاقيّة القرآن في بنائه للإنسان الجديد.
- لم ينفكّ القرآن الكريم عن الدعوة للعلم والتعلّم والتفقّه في الدين، ولم يرتضِ إيماناً بلا علمٍ، لأنّ الجهل لا يُنتج إيماناً واقعيّاً.
- دعوة القرآن للعلم والمعرفة تسير باتّجاه إصلاح النفس، فالتخلّص من الجهل إصلاحٌ معرفيٌّ، والتفقّه في الدين إصلاحٌ معرفيّ.
- لم يرتضِ القرآن سلوك الرهبنة، فهو إفراطٌ، كما رفض سلوك الانسلاخ عن التعبّد، فهو تفريطٌ.
- الرهبانيّة المبتدعة إنّما صارت كذلك لأنّها عبّرت عمليّاً عن موت الحياة.
- الإيمان والعمل الصالح نموذجٌ قرآنيٌّ لإصلاح النفس من الأمراض المعنويّة.
- الثنائيّة القرآنيّة بين الإيمان والعمل الصالح، شكّلت شرطاً واقعيّاً لتحقيق الأمن والسعادة، وطريقاً لنفي الخوف والحزن.

- النموذج الرساليّ هو النموذج القرآنيّ في التربية والإصلاح.
- لابدّ أن يكون المثل الأعلى مرتبطاً بالسماء والإمداد الذي لا ينتهي، وإلّا فكلّ مثلٍ أعلى آخر هو مثلٌ تكراريٌّ.
- المثل الأعلى هو حجر الزاوية في رحلة تغيير المحتوى الداخليّ للإنسان.
- الارتباط بالقرآن، بأيّ نحوٍ كان هو ارتباطٌ بالله تعالى، والمستوى القيميّ لذلك الارتباط بالقرآن سينعكس فيه المستوى القيميّ للارتباط بالله تعالى.
- يتعاطى الله تعالى معنا بواقعيّةٍ مطلقةٍ، فيرتضي منّا أيّ نحوٍ من الارتباط الصالح، ولكنّه لا يتوقّف عنده، ولا يكلّف إلّا بالمقدور.
- الارتباط بالقرآن على مستوياتٍ: قراءته وحفظه وفهمه والعمل به.
- كلّ شيءٍ يتعارض مع إصلاح الفكر والسلوك فهو ممقوتٌ من قبل القرآن الكريم، وأكثر ما يتنفّر منه القرآن هو الكفر والفسق.
- القرآن حصانةٌ فعليّةٌ تقي الإنسان من الزلل والانزلاق الفكريّ والسلوكيّ.
- لم يأتِ القرآن بسياسة التخويف، والإنسان الخائف لا يمكن أن يكون فاعلاً ومبدعاً، ولا عاملاً بالقرآن والسنّة.
- جاء القرآن ليزرع الأمل والتفاؤل، ويدعو للعمل والتدبّر والإبداع.
- النظرة الموضوعيّة للآيات القرآنيّة التي تناولت موضوع الموت تلزمنا بأنّها ما جاءت إلّا لتجديد الحياة.

مذاكرة

- ماذا نعني بقولنا: القرآن هو قرآن المدنيّة والحضارة، والفكر والثقافة، والدنيا والآخرة؟

- في أيّ شيءٍ يكمن محور رسالات السماء؟ وما هما عماد الإنسان؟
- بماذا غذّت رسالات السماء فكر الإنسان وسلوكه؟
- كيف يتسنّى لنا اكتشاف إرفاقيّة القرآن في بنائه للإنسان؟
- هل يُمكن للجهل أن يُنتج إيماناً واقعيّاً؟ ولماذا؟
- كيف تفهم قولنا: التخلّص من الجهل إصلاحٌ معرفيٌّ؟
- لماذا لم يرتضِ القرآن سلوك الرهبنة؟
- لماذا عبّر القرآن عن رهبانيّة النصارى بالمبتدعة؟ وماذا يعني ذلك؟
- ما هي الثنائيّة القرآنيّة التي شكّلت شرطاً واقعيّاً لتحقيق السعادة؟
- ما هو النموذج الذي قدّمه القرآن في التربية والإصلاح؟
- ما هي صفات المثل الأعلى الذي يصحّ لنا الارتباط به؟
- لماذا يشكّل المثل الأعلى حجر الزاوية في رحلة التغيير؟
- كيف تفهم قولنا: إنّ الله تعالى يتعاطى معنا بواقعيّةٍ مطلقةٍ؟
- ما هي مستويات الارتباط بالقرآن الكريم؟
- ما هو أكثر ما يتنفّر منه القرآن؟
- كيف يشكّل القرآن حصانةً فعليّةً من الانزلاق الفكريّ والسلوكيّ؟
- ما هو نوع التناسب (طرديٌّ أم عكسيٌّ) بين الخوف والإبداع؟
- هل للإنسان أن يكون عاملاً بالقرآن والسنّة وفكره قائمٌ على الخوف؟
- عن أيّ شيءٍ تكشف النظرة الموضوعيّة للآيات التي تناولت الموت؟

الدرس الحادي عشر

أهل البيت عليهم السلام وإصلاح النفس

- أهداف الدرس
- تمهيد
- أولويّة الإصلاح عند النبيّ وأهل بيته عليهم السلام
- تصوير النبيّ صلّى الله عليه وآله للمنقطع للعبادة
- التأكيد على الإرفاقيّة في الإصلاح والعبادة
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان أولويّة الإصلاح في سيرة أهل البيت.
- تصوير النبيّ صلّى الله عليه وآله للمنقطع للعبادة.
- التأكيد على الإرفاقيّة في الإصلاح والعبادة.

تمهيد

لم يترك أهل البيت عليهم السلام طريقة القرآن في إصلاح النفس والأسرة والمجتمع، والدعوة للوسطيّة، والابتعاد عن خطّي التطرّف ودائرتَي الإفراط والتفريط[1]، والتأكيد على الإرفاقيّة في العبادة والإصلاح معاً، وأنّهم كانوا مثلاً أعلى، وكانوا مصداقاً واقعيّاً للرحمة الإلهيّة، فهم عليهم السلام ورثةٌ حقيقيّون لرسول الله صلّى الله عليه وآله المبعوث رحمةً للعالمين.

وفي هذا الدرس سيتّضح لنا السير القرآنيّ في سيرة أهل البيت عليهم السلام في المسيرة الإصلاحيّة، وسوف نوجز هذا الدرس؛ نظراً لحضورهم عليهم السلام في معظم فقرات الدروس، وقد ناسب تشخيص سيرتهم في الإصلاح في درسٍ خاصٍّ بهم نظراً لكونهم تراجمة القرآن وعيبة علم الرسول صلّى الله عليه وآله، وهم أحد الثقلين الواردين في حديث الثقلين المستفيض.

أولويّة الإصلاح عند النبيّ وأهل بيته عليهم السلام

لم يتقدّم شيءٌ على الإصلاح في أولويّات الرسول صلّى الله عليه وآله

---

(١) سيأتينا في الدرس التالي تفصيل المسألة في الإفراط والتفريط.

وأهل بيته عليهم السلام، في الدعوة والتبليغ والجهاد، فأينما حلّوا كان الإصلاح هدفهم وشعارهم وعملهم، ولم يدّخروا جهداً في ذلك، حتّى أنّهم قد عرّضوا أنفسهم الشريفة للهتك والقتل في سبيل تحقيق الإصلاح، وصوت القرآن ينير دربهم، ولسان حالهم هو قوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلّا الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ (هود: ٨٨).

وبقي الإصلاح هو سنام دعوتهم، فالإمام عليٌّ عليه السلام في جميع الحروب المفروضة عليه، من الناكثين والقاسطين والمارقين، كان يطلب الإصلاح في ضمير الأمّة ووجدانها، وسائر أحوالها، ثمّ جاء الإمام الحسن عليه السلام ووقع على يديه صلحٌ بين فرقتين، ورفع السيف عنهم، ولمّا غدر الغادرون، وصيّروا الحكم إلى ملكٍ عضوض، ونصّبوا على رأس الأمّة شخصاً فاسقاً بإجماع الأمّة، نهض الإمام أبو عبد الله الحسين عليه السلام ليضع النقاط على الحروف، وليعرّي الإسلام الأمويّ، الذي أُريد له أن يحكم سائر أبناء الأمّة إلى أبد الدهر، فانتفض عليه السلام وشعاره: «**إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر**».

وهكذا مضى بقيّة أئمّة أهل البيت عليهم السلام في مسيرة الإصلاح، وبقيت الحلقة الأخيرة، وهي الحلقة الكبرى، والتي سينهض بها الإمام الحجّة بن الحسن عليه السلام، والذي سيتحقّق على يديه حُلُم الأنبياء عليهم السلام في إقامة دولة العدل الإلهيّ.

فقد كانت لهم عليهم السلام أدوارٌ مختلفةٌ، ولكنّهم يجتمعون على

هدفٍ واضحٍ وصريحٍ، وهو الهداية والإصلاح، ونحن ـ بصفتنا مقتدين بالقرآن والرسول صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ـ لابدّ لنا من الالتزام بسيرتهم الإصلاحيّة، فلا نكفّ عن إصلاح أنفسنا وأُسرنا ومجتمعنا، وبذلك نحرز المتابعة لهم، ويصدق علينا عنوان التمسّك بهم، المفروض علينا بحديث الثقلين.

تصوير النبيّ صلّى الله عليه وآله للمنقطع للعبادة

ذُكِر عند النبيّ صلّى الله عليه وآله رجلٌ، «فقيل له: خيرٌ، قالوا: يا رسول الله خرج معنا حاجّاً، فإذا نزلنا لم يزل يهلّل حتّى نرتحل، فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله حتّى ننزل، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: **فمَن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه؟** قالوا: كلّنا، فقال صلّى الله عليه وآله: **كلّكم خيرٌ منه**»[1].

وهنا مثالٌ واضحٌ وصريحٌ في رفض الرسول صلّى الله عليه وآله للشخص العابد المتطفّل على الآخرين، وكأنّه اتّخذ العبادة وظيفةً ويريد من الناس مجازاته على ذلك، مع أنّنا نطالع سيرة الأنبياء كافّةً، والأئمّة والصالحين، نجدهم كانوا يعملون، وهذا أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام كان يعمل فلّاحاً في أرضٍ له لأكثر من ثلاثين عاماً، ولم يترك الارتزاق على تلك الأرض حتّى في زمن خلافته، مع أنّ الدنيا بجميع ملذّاتها كانت بين يديه، ولكنّه إمامٌ مصلحٌ، وليس إماماً مغتصِباً لحقوق الناس.

وهذا ما ينبغي أن نسير عليه، في الاهتمام بإصلاح أنفسنا، ونهتمّ بعباداتنا كافّةً، ولكن لا نترك حياتنا ومعاشنا، وإلّا فإنّ مَن يعيلنا ويُنفق

---

(١) مكارم الأخلاق، مصدر سابق: ص٢٦٥.

علينا سوف يكون خيراً منّا، ولا فضيلة لنا عليه، وفي هذا درسٌ عظيمٌ لنا.

التأكيد على الإرفاقيّة في الإصلاح والعبادة

الهدف الظاهر من الإتيان بالعبادات هو الاستجابة والامتثال للأوامر الإلهيّة، وأمّا الهدف الواقعيّ والباطنيّ فهو طلب الكمال بها، فنحن نتكامل في العبادات، وبقدر ما نحسنه من العبادات نحصل على الكمال المطلوب، فإذا ما صارت العبادة فاقدةً لقدرة إعطاء الكمال، لا بما هي هي، وإنّما بالنحو الذي نأتي بها، كما لو أرهقنا أنفسنا بنحوٍ لم يعد عندنا شاغلٌ سوى العبادة، وعطّلنا سائر أعمالنا الأخرى، فمثل هذه العبادة لا تؤدّي وظيفتها، فالإرهاق في العبادة يُفقدها الأثر المطلوب، ولعلّ الأمر يصل إلى مستوىً خطيرٍ، وهو حصول النفرة والكراهيّة للصلاة والعبادة بشكلٍ عامٍّ، فلا نجني من سهرنا وقيامنا وركوعنا وسجودنا إلّا التعب، ولن نجني من صيامنا إلّا الجوع والعطش.

ولذا علينا أن نتعاطى بإرفاقيّةٍ عاليةٍ مع العبادات، وقد ورد عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **إنّ هذا الدين متينٌ، فأوغلوا فيه برفقٍ، ولا تكرّهوا عبادةَ الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبتّ، الذي لا سفراً قطع، ولا ظهراً أبقى**»[1].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**مرّ بي أبي وأنا بالطواف ـ وأنا حدث ـ وقد اجتهدت في العبادة، فرآني وأنا أتصابّ عرقاً، فقال لي: يا جعفر يا بنيّ إنّ الله إذا أحبّ عبداً أدخله الجنّة ورضي عنه باليسير**»[2].

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٨٦ ح١، باب (الاقتصاد في العبادة).

(٢) المصدر السابق: ح٤، باب (الاقتصاد في العبادة).

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾ (النساء: ١١٤)، أي: لا نفع في كثيرٍ من كلام الناس سرّاً فيما بينهم، إلّا إذا كان حديثاً داعياً إلى بذل معروفٍ، كالصدقة، أو كلمةٍ طيّبةٍ، أو إصلاحٍ بين أُناسٍ مختلفين فيما بينهم، فمَن يفعل ذلك قاصداً رضا الله تعالى، فإنّه سوف يكون موضعاً لرضوان الله ونيل ثوابه العظيم.
- ورد عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**إنّ الحازم مَن شغل نفسه بجال نفسه فأصلحها، وحبسها عن أهويتها ولذّاتها فملكها**»[١].

خلاصة الدرس

- لم يترك أهل البيت عليهم السلام طريقة القرآن في إصلاح النفس.
- سيرة أهل البيت قامت على الدعوة للوسطيّة، والابتعاد عن التطرّف ودائرتَي الإفراط والتفريط، والإرفاقيّة في العبادة والإصلاح معاً.
- لم يتقدّم شيءٌ على الإصلاح في أولويّات الرسول صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، في الدعوة والتبليغ والجهاد.
- كان الإمام عليٌّ عليه السلام في جميع الحروب المفروضة عليه يطلب الإصلاح في ضمير الأمّة ووجدانها وسائر أحوالها.
- كان الشعار في ثورة الإمام الحسين عليه السلام: إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق: ص٤٧٥ ح١٠٨٩٣؛ عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق: ص١٥٣؛ مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ج١١ ص٣٢٤.

- أهل البيت عليهم السلام كانت أدوارهم مختلفةً، وهدفهم واحداً واضحاً وصريحاً، وهو الهداية والإصلاح.
- نحن بصفتنا مقتدين بالقرآن والرسول صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام لابدّ لنا من الالتزام بسيرتهم الإصلاحيّة.
- بإصلاح أنفسنا سنكون مصداقاً واقعيّاً للتمسّك بالقرآن وأهل البيت.
- الأنبياء والأئمّة والصالحون كانوا يعملون، مع التزامهم بالعبادات.
- كان الإمام عليٌّ عليه السلام فلاحاً في أرض له لأكثر من ثلاثين عاماً، ولم يترك الارتزاق على تلك الأرض حتّى في زمن خلافته.
- ترك المعاش للعبادة يجعل مَن يعيلنا خيراً منّا، ولا فضيلة لنا عليه.
- الهدف الظاهر من العبادات هو الامتثال للأوامر الإلهيّة، وأمّا الهدف الباطن فهو طلب الكمال بها.
- بقدر ما نحسنه من العبادات نحصل على الكمال المطلوب، فإذا فقدت العبادة قدرة إعطاء الكمال فلن تؤدّي وظيفتها، كما في العبادات الإرهاقيّة، لا الإرفاقيّة.

مذاكرة

- ما هي طريقة أهل البيت عليهم السلام في إصلاح النفس؟
- على أيّ شيءٍ قامت سيرة أهل البيت؟
- ما هو أوّل شيءٍ في أولويّات الرسول وأهل بيته عليهم السلام؟
- لأجل أيّ شيءٍ قاتل الإمام عليٌّ عليه السلام في الحروب المفروضة عليه؟
- ما هو شعار الإمام الحسين عليه السلام في ثورته؟

- ماذا يجب علينا نحن بصفتنا مقتدين بالقرآن والرسول وآله عليهم السلام؟
- كيف نكون مصداقاً واقعيّاً للتمسّك بالقرآن وأهل البيت؟
- ماذا يعني لك أن يكون الإمام عليٌّ عليه السلام فلّاحاً لعقودٍ حتّى في خلافته؟
- إلى أيّ شيءٍ يفضي ترك المعاش من أجل العبادة؟
- ما هو الهدف الظاهر والباطن من العبادات؟
- كيف ترى العبادات الإرهاقيّة والعبادات الإرفاقيّة؟ وما أثرهما؟

الدرس الثاني عشر

إصلاح النفس بين الإفراط والتفريط

- أهداف الدرس
- تمهيد
- معنى الإفراط والتفريط
- السلوك القرآنيّ في رفض الإفراط والتفريط
- العبادة المعتدلة في سيرة الأنبياء والصالحين
- العبادة بمعناها الشموليّ
- العمل الصالح وسطيّ
- إعمار الحياة بالعمل والإنتاج النافع مصداق لإصلاح النفس
- معنى قتل النفس وإحيائها
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان معنى الإفراط والتفريط، وعرض السلوك القرآنيّ في ذلك.
- بيان العبادة المعتدلة وشموليّة العبادة.
- بيان أوسطيّة العمل الصالح.
- بيان كون إعمار الحياة بالعمل مصداقاً لإصلاح النفس.
- بيان معنى قتل النفس وإحيائها.

تمهيد

كلّنا يرمي إلى إصلاح نفسه وأسرته والمجتمع، ولكنّ الكثير منّا يُخطئ في طريقة الإصلاح نتيجة وقوعه في أخطر دائرتين فاسدتين، وهما دائرتا الإفراط والتفريط، ولذلك لابدّ من اتّخاذ الطريقة الوسطيّة في إصلاح أنفسنا وتهذيبها، فلا نكون متصوّفةً منعزلين عن الحياة وإعمارها، ولا نكون مستغرقين في تفاصيل الحياة غير مبالين بإصلاح أنفسنا، فكلا الأمرين غفلةٌ قاتمةٌ، الأولى غفلةٌ عن وظائفنا في الحياة، والثانية غفلةٌ عن أنفسنا، وهذه الوسطيّة المتوخّاة لا تقوم على الحبّ أو البغض، وإنّما على العلم والموضوعيّة والإنصاف، من هنا كان لابدّ أن نقف ونتأمّل في الطريقة الوسطيّة المُثلى في مسيرة الإصلاح، وما لم نكن وسطيّين فإنّنا ـ ولا ريب ـ متواجدون في إحدى دائرتَي الإفراط والتفريط.

معنى الإفراط والتفريط

الإفراط والتفريط دائرتان تكتنهان الانحراف والفساد، وغالباً ما يجتمع مع الإفراط تعصّبٌ وتجاوزٌ خطيرٌ على الطرف المقابل، فضلاً عن التجاهل

والإهمال له، كما أنّ التفريط هو الآخر غالباً ما يشتمل على فقدان الهويّة وتضييع الحقوق، ولذلك فكلتاهما دائرتان سيّئتان، وبينهما دائرةٌ وسطيّةٌ، فمَن أفرط في شيءٍ أعطاه من الخصائص والصفات ما ليست فيه، كما في الغلاة، ومَن فرّط في شيءٍ سلبه خصائصه وصفاته المعلومة فيه، كما في النواصب، والإفراط مشتملٌ على تفريطٍ، والتفريط مشتملٌ على إفراطٍ، فالتعصّب لأحدٍ في رفع منزلته، غالباً ما يلازمه تفريطٌ في حقّ الخصوم، فينزلهم من منازلهم التي هم فيها، وهكذا الحال في التفريط المستلزم للإفراط.

ولذلك فكلٌّ منهما هو إفراطيٌّ وتفريطيٌّ في آنٍ واحدٍ، وبقطع النظر عن الحقّ والباطل، فإنّ أصل الإفراط والتفريط ناتجٌ عن الجهل أو التجاهل، والغفلة أو التغافل، ولا شيء ممدوحٌ من ذلك، كما هو واضحٌ.

وحيث نحن بصدد الكلام حول إصلاح النفس فمَن أفرط في إصلاح نفسه فإنّه سيجد نفسه مقصّراً في مواضع أخرى، ومن فرّط في إصلاح النفس فتقصيره واضحٌ.

وحيث إنّ كلتا الدائرتين مرفوضتان تماماً، فلابدّ من سلوك الطريقة الوسطى، وهي الطريقة التي تقي من الزلل، فلا يترك نفسه نهباً للتسافل والسقوط فيكون مفرّطاً فيها، ولا يسلبها كلّ شيءٍ بحجّة إصلاحها فيكون أفرط بإصلاحها، وفرّط بحقّها، لما علمت من أنّ كلّ إفراطٍ يشتمل على تفريطٍ.

وقد كان أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام يصف طرفَي الإفراط والتفريط بالجهل، وأنّ الجهل هو علّة ذلك، حيث يقول عليه السلام: «**لا ترى الجاهل إلّا مُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً**»[1]، بمعنى: أنّه جامعٌ لهما وواقعٌ فيهما، ولذلك نجده

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص١٥، حكمة رقم (٧٠).

عليه السلام يحذّر منهما، لاسيّما في مسألة الانحياز له والانحياز عنه، فالمُفْرِط والمُفَرِّط كلاهما هالكٌ، حيث يقول عليه السلام: «**وسيهلك فيَّ صنفان: مُحبٌّ مُفْرِطٌ يذهب به الحبّ إلى غير الحقّ، ومبغضٌ مُفرِّطٌ يذهب به البغض إلى غير الحقّ، وخير الناس فيَّ حالاً النمط الأوسط، فالزموه**»(١)، ففي الإفراط والتفريط دائماً تغيب الحقيقة ويحضر الزور والبهتان.

وإذا غابت شمس الحقيقة حلّ الظلام الدامس، ولذلك فالإفراط والتفريط طريقان خاطئان لا يبلغان بصاحبهما الهدف أبداً، ففي كلّ خطوة إفراطٍ أو تفريطٍ لا يزداد إلّا بعداً، فهو كالعامل على غير بصيرةٍ(٢).

والاعتدال مطلوبٌ في كلّ شيءٍ، لاسيّما في العقيدة والإصلاح، فإذا فسدت العقيدة بالإفراط أو التفريط فسد كلّ شيءٍ في حياة الإنسان، كما إذا فسدت النفس بسلوكها طريق الإفراط أو التفريط فسد فيها كلّ شيءٍ(٣)،

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص٨، الخطبة رقم (١٢٧).

(٢) ورد في الأخبار ما يدلّ على ذلك، فعن طلحة بن زيد أنّه سمع الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلّا بعداً**». أصول الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٤٣ ح١.

(٣) الوسطيّة والاعتدال في العقيدة: هي عدم سلوك طريق الغلوّ، فهو إفراطٌ، ولا سلوك طريق النصب أو الشرك، فهو تفريطٌ، وكذلك لا نلتزم طريقة الجبر، فهي إفراطٌ، ولا طريقة التفويض، فهي تفريطٌ، كما لا نسلك طريق التشبيه والتجسيم في الصفات، فهذا إفراطٌ، ولا طريق التعطيل، فهذا تفريطٌ، وهكذا الحال في سائر الأمور العقائديّة والشرعيّة والأخلاقيّة. فلا نستغرق في العبادات على حساب وظائفنا العمليّة في الحياة ـ كما نبّه السيّد الأستاذ لذلك ـ ولا نشتغل بتفاصيل الحياة ونغفل واجباتنا الشرعيّة، ولا نترك طلب الكمال والمعنويّات ولا نستغرق في الأمور المادّية، وبعبارةٍ موجزةٍ وصريحةٍ: لا نكون رهباناً ولا فسّاقاً، لا متنسّكين عطلةً، ولا متهتّكين فسقةً، فنحن مسلمون، طريقتنا

وهذا يملي علينا ضرورة تفحّص أقوالنا وأفعالنا، ومراجعة سلوكيّاتنا العامّة والخاصّة، بل ومراجعة نظرتنا ورؤيتنا للآخر، سواءٌ على مستوى العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق.

السلوك القرآنيّ في رفض الإفراط والتفريط

أبرز القرآن الكريم وسطيّته في العبادة والمعاملة والتعاطي مع الناس، فأمَرَنا بحفظ حقوق الآخرين وعدم التفريط فيها؛ قال تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ (هود: ٨٥)، فقوله تعالى: ﴿**أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**﴾ تعبيرٌ واضحٌ وصريحٌ عن حفظ الحقوق، ورفض السلوك الإفراطيّ أو التفريطيّ، وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ**﴾ هو أبلغ تعبيرٍ في رفضه لسلوك الإفراط، وهكذا في المقطع الأخير من الآية، فهو ترجمةٌ للمقطعين السابقين، فمَن لم يفِ الكيل والميزان بالقسط أو بخَسَ الناس أشياءهم فهو من الذين يعيثون في الأرض فساداً.

إذن فالسلوك القرآنيّ واضحٌ في تبنّيه الوسطيّة، وفي رفضه للإفراط والتفريط، ولذلك نجده يعرض أمامنا نموذجين من الإفراط والتفريط في المعاملة، ويتوعّدهم بالويل، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾ (المطفّفين: ١ـ٣).

والأكثر من ذلك نجد القرآن يتدخّل أيضاً في تحييد العواطف، فلا

هي الوسطى، لا شرقيّةٌ ولا غربيّةٌ، فلسنا يهوداً مادّيين، ولسنا نصارى مترهّبين، ولعلّ ما نجده في شريعتنا السمحة من الأحكام الشرعيّة في تقسيمها إلى عباداتٍ ومعاملاتٍ هو تطبيقٌ راقٍ للاعتدال.

يأذن بأن تكون حكماً في التعاطي مع الآخرين؛ لأنّها في الغالب تُوقع الإنسان في إفراطٍ أو تفريطٍ؛ قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ (المائدة: ٨)، أي: لا يحملنا بُغْضُنا لقومٍ أن لا نكون عادلين معهم، وإنّما لابدّ من سلوك طريق العدل مع الناس، سواءٌ كانوا أعداءً أم أصدقاء؛ لأنّ العدل في نفسه فضيلةٌ، وسلوكه أقرب للتقوى والخشية من الله تعالى.

العبادة المعتدلة في سيرة الأنبياء والصالحين

إنّ التفرّغ للعبادة المخصوصة، من صلاةٍ وصيامٍ، ليس أمراً مطلوباً منّا، ولا يمثّل نموذجاً يُحتذى به، فسيرة الأنبياء والمرسلين والأئمّة والصالحين لم تشهد لهم بذلك، وإنّما كانوا يعيشون حياتهم لله تعالى ضمن وظائفهم الشرعيّة في التعليم والتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومخالطة الناس بالحسنى، وغير ذلك ممّا هو ثابتٌ بالتواتر عنهم، فلم نجد نبيّاً أو رسولاً أو إماماً منعزلاً عن الأمّة، وإذا ما كانت له فترة عزلةٍ في حياتهم فإنّها محدودةٌ جدّاً، وإذا ما كانت لهم خلوةٌ في أيّامهم فإنّها محدودةٌ أيضاً، فالنبيّ صلّى الله عليه وآله وهو الإنسان الكامل، وخير خلق الله أجمعين كان يقول: «**أما إنّي أصلّي وأنام، وأصوم وأفطر، وأضحك وأبكي، فمَن رغب عن منهاجي وسنّتي فليس منّي**»[1]، فالدين الإفراطيّ هو تعطيلٌ للحياة، ولم يكن الدين الإسلاميّ يوماً داعياً لتعطيل الحياة وترك أعمال الأرض، كيف ذلك وهو الدين القيّم الذي ارتضاه لنا الله ديناً؟

وهذا أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام، وهو العابد الزاهد يُنكر على أحد

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٨٥ ح١.

أصحابه طريقة الرهبنة والعزلة، حيث «قال له العلاء بن زياد الحارثي: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال: **وما له؟** قال لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا. قال: **عليَّ به.** فلمّا جاء قال: **يا عُدَيَّ** ـ تصغير عدوّ ـ **نفسه، لقد استهام بك الخبيث، أما رحمتَ أهلك وولدك؟ أترى الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك.**

قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك.

قال: **ويحك إنّي لست كأنت، إنّ الله فرض على أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعَفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره**»[1].

وقوله: «**لقد استهام بك الخبيث**»، يعني: استفرد بك الشيطان فجعلك هائماً، لا تدري وجه الرشد. وقوله: «**يقدّروا أنفسهم**»، معناه: يقيسوا أنفسهم بالضعفاء؛ ليكونوا قدوةً للغنيّ في الاقتصاد، وصرف الأموال في وجوه الخير والمنافع العامّة، وتسليةً للفقير على فقره. وقوله: «**حتّى لا يتبيّغ بالفقير فقره**» معناه: لا يهيج بالفقير ألم الفقر فيهلكه.

يقول الشيخ محمّد عبده: «وفي هذا الكلام بيان أنّ لذائذ الدنيا لا تُبعّد العبد عن الله لطبيعتها، ولكن لسوء القصد فيها»[2]، فتكون العزلة التامّة بحجّة التوجّه للعبادة مرفوضةً تماماً؛ لأنّها إفراطٌ وتفريطٌ، إفراطٌ في شيءٍ لم توجّه له الشريعة المقدّسة، وهو التفرّغ التامّ للعبادة، وتفريطٌ في شيءٍ لازمٍ علينا، وهو وظائفنا في الحياة، لاسيّما لَمن لديه زوجةٌ وعيالٌ، فإنّه يجني بعزلته غير الشرعيّة على أهله وعياله، وليس له من العبادة الحقّة شيءٌ، ولا خير في مَن ضيّع حقوق الآخرين وتنصّل عن مسؤوليّته التي هو غداً يُسأل عنها.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص١٨٧، الخطبة رقم (٢٠٩).

(٢) المصدر السابق.

العبادة بمعناها الشمولي

لا ريب أنّ العمل النافع عبادةٌ، فللعبادة معنىً أوسع وأشمل من معناها المخصوص، فهي ليست مجرّد صلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وزكاةٍ، وإنّما كلّ عملٍ صالحٍ هـو عبادةٌ، يستحقّ عليه الإنسان أجـراً في الآخرة، بل هنالك من الذنوب التي لا تكفّرها صلاةٌ ولا صومٌ، وإنّما يكفّرها الهمّ بطلب المعيشة، فيكون الهمّ بطلب المعيشة مصداقاً فعليّاً للعبادة بمعناها العامّ لا الخاصّ المتوقّف على نيّة القربة.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها الصلاة ولا الصيام ولا الحجّ ولا العمرة**. قالوا: فما يكفّرها يا رسول الله؟ قال: **الهموم في طلب المعيشة**»[1]، وقد ورد: أنّ التفكّر ساعةً خيرٌ من قيام ليلةٍ؛ فعن الحسن الصيقل، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: تفكّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ؟ قال: **نعم، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: تفكّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ**. قلت: كيف يتفكّر؟ قال: **يمرّ بالدار والخربة فيقول: أين**

---

(١) الدعوات، قطب الدين الراوندي: ص٥٦ ح١٤١، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، قم المقدّسة؛ المعجم الأوسط، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني: ج١ ص٣٨، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ؛ مجمع الزوائد، مصدر سابق: ج٢ ص٢٩١؛ الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: ج١ ص٣٧٦ ح٢٤٦١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، بيروت؛ كشف الخفاء، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٤، رقم (٧٨٣)؛ تاريخ مدينة دمشق، للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر: ٥٤ ص٢٠٠، دراسة وتحقيق: عليّ شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، بيروت.

بانوك؟ أين ساكنوك؟ ما لك لا تتكلّمين!»[١]، وعن الإمام عليٍّ الرضا عليه السلام أنّه قال: «**ليست العبادة كثرة الصيام والصلاة، وإنّما العبادة كثرة التفكّر في أمر الله**»[٢]، وعشرات الأخبار الواردة في هذا المقام.

ومن الواضح أنّ تمثيل الإمام الصادق عليه السلام للتفكّر بالمرور بالدور والخرائب ما هو إلّا توضيحٌ لأصل الفكرة، فهو تعريفٌ بالمثال والمصداق وليس بالمفهوم، ولذلك يدخل تحت مظلّة التفكّر ما لا يحصى من المصاديق، فالتفكّر في فهم آيةٍ قرآنيّةٍ أو روايةٍ هو خيرٌ من قيام ليلةٍ، بل حتّى التفكّر في نظريّةٍ علميّةٍ نافعةٍ هو من هذا القبيل، وهلمّ جرّاً.

إذن فمساحة العبادة أوسع من العبادات المخصوصة، وبالتالي يصحّ تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (الذاريات: ٥٦) بهذا المعنى الشموليّ للعبادة، لا خصوص العبادات المعلومة، من صلاةٍ وصومٍ وحجٍّ وزكاةٍ، وهذا هو دين الإسلام الذي هو دينٌ للدنيا والآخرة، ودين علمٍ وحياةٍ، ودين عبادةٍ وعملٍ.

العمل الصالح وسطيّ

كلّ عملٍ داخلٍ في إحدى دائرتَي الإفراط والتفريط، فإنّه ليس عملاً صالحاً؛ لاشتماله على مخالفاتٍ في نفسه أو في الطرف المقابل، كما عرفنا ذلك، وبالتالي فإنّ العمل الصالح هو وسطيٌّ أو أوسطيٌّ، ومنه يتّضح أكثر صحّة ما قدّمناه في العبادة المعتدلة، فكثرة الصلاة والصيام لَمن كانت له مسؤوليّةٌ

---

(١) المحاسن، مصدر سابق: ج١ ص٢٦ ح١؛ أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٥٤ ح٢؛ مصنَّف ابن أبي شيبة، مصدر سابق: ج٨ ص٢٥٨ ح٣٧.

(٢) تحف العقول، مصدر سابق: ص٤٤٢.

اجتماعيّةٌ ـ كزوجةٍ وأولادٍ، أو إعالةٍ لأبويه، أو غير ذلك ـ فيه كراهةٌ واضحةٌ، فالله تعالى لا يُطاع من حيث يعصى، ولذلك نجد في بعض الكتب الحديثيّة يعقدون باباً خاصّاً لكراهة لبس صاحب الأهل الخشن من الثياب وانقطاعه عن الدنيا[1]، ولو لاحظنا القرآن الكريم في ترشيده لعبادة الرسول صلّى الله عليه وآله في أوّل بعثته، حيث كان يرهق نفسه كثيراً في الصلاة في جوف الليل، والصيام في النهار، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه: ١ـ٢)، وفي سورة المزّمل يقرّ له اشتغاله في النهار عن العبادة المخصوصة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ (المزّمل: ٧)، أي: إنّ لك في النهار تصرّفاً وتقلّباً في مصالحك الشخصيّة، واشتغالاً واسعاً بأمور الدعوة والرسالة.

إعمار الحياة بالعمل والإنتاج النافع مصداق لإصلاح النفس

بالعمل الصالح يكون إعمار الحياة، وليس المقصود من العمل الصالح العبادات المخصوصة حصراً، كما أنّه ليس منحصراً بالأعمال الخيريّة التي يتبرّع بها الأغنياء من أهل السعة، وإنّما كلّ عملٍ نافعٍ في المجتمع هو عملٌ صالحٌ، فالمعلّم في تعليمه لتلامذته يقوم بعملٍ صالحٍ عظيمٍ، ومأجورٍ عليه، رغم أنّه يأخذ أجراً مادّياً عليه، وعمل الطبيب في مشفاه عملٌ صالحٌ ومأجورٌ عليه، والأمّ في تربية أبنائها تقوم بعملٍ صالحٍ، والفلّاح في أرضه

---

(١) انظر: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للشيخ الفقيه المحدّث محمّد بن الحسن الحرّ العاملي (ت: ١١٠٤هـ): ج٥ ص١١٢، الباب الثاني والسبعون (كراهة لبس صاحب الأهل الخشن من الثياب وانقطاعه عن الدنيا)، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة.

يقوم بعملٍ صالحٍ أيضاً، وعامل النظافة يقوم بعملٍ صالحٍ ومأجورٍ عليه، فهذه الأعمال وغيرها من الأعمال النافعة التي لا غنى للإنسان والمجتمع عنها هي أعمالٌ صالحةٌ وتستحقّ الأجر، ولعلّ منّا مَن يدخل الجنّة لا بصلاته وصومه وحجّه وزكاته، وإنّما بتعليمه لأولاده، أو بتربيته لعياله، أو بمعالجته لمرضٍ، أو بغرسه لفسيلة.

معنى قتل النفس وإحيائها

قال تعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾ (المائدة: ٣٢).

القتل والإحياء الحسّي هما أبرز مصاديقهما، وهما الظاهران في اللغة والعرف، ولكنّهما كمفهومين أوسع من هذا بكثيرٍ، كما أنّ الإحياء الحسّي المادّي ليس هو أفضل مصاديق الإحياء، وإنّما الأفضل والأشرف هو إحياء النفس بالعلم والمعرفة والخلق الحسن والهداية والطاعة لله تعالى ولرسوله صلّى الله عليه وآله.

عن سماعة، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قلت له: قول الله عزّ وجلّ: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾؟ قال: **مَن أخرجها من ضلالٍ إلى هدىً فكأنّما أحياها، ومَن أخرجها من هدىً إلى ضلالٍ فقد قتلها**»[1]، وهنا إحياءٌ وقتلٌ حقيقيّان، وليسا اعتباريّين، فالذي ضلّ يكون قد فقد بصيرته، ومَن فقد بصيرته فقد إنسانيّته، والذي اهتدى يكون قد وجد بصيرته، ومَن وجد بصيرته وجد إنسانيّته، ومَن فقد إنسانيّته مقتولٌ لا محالة، ومَن وجدها حيٌّ لا محالة.

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٠ ح١.

وعن فضيل بن يسار قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾؟ قال: **من حرقٍ أو غرقٍ**. قلت: فمَن أخرجها من ضلالٍ إلى هدىً؟ قال: **ذاك تأويلها الأعظم**»[١].

والدليل القرآنيّ على إرادة هذا المعنى أيضاً هو قوله تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾ (الأنعام: ١٢٢)، فمَن أصلح نفساً أو دلّها إلى الإيمان فقد أحياها[٢].

ومن لطائف هذه الآية الكريمة ﴿**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ...**﴾: التعبير البليغ ـ باعتباره قتل النفس الواحدة قتلاً لجميع النفوس، وإحياءها إحياءً لها جميعاً ـ للدلالة على كون النفس الإنسانيّة هي في الأصل نفساً واحدةً، فقتل نفسٍ واحدةٍ بغير حقٍّ هو من الناحية المعنويّة قتلٌ للنفس النوعيّة، كما أنّ أحياء نفسٍ واحدةٍ هو تعبيرٌ آخر عن إحياء النفس النوعيّة للإنسان، وهذا المعنى العميق والدقيق مقصودٌ للآية الكريمة، إن لم يكن هو المتعيّن بنفسه.

قال العلّامة الطباطبائي: «إنّ الفرد من الإنسان من حيث حقيقته المحمولة له التي تحيا وتموت، إنّما يحمل الإنسانيّة التي هي حقيقةٌ واحدةٌ في جميع الأفراد والبعض والكلّ، والفرد الواحد والأفراد الكثيرون فيه واحدٌ، ولازم هذا المعنى أن يكون قتل النفس الواحدة بمنزلة قتل نوع الإنسان، وبالعكس إحياء النفس الواحدة بمنزلة إحياء الناس جميعاً، وهو الذي تفيده الآية الشريفة»[٣].

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٠ ح٢.

(٢) انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٥ ص٣١٧.

(٣) المصدر السابق: ص٣١٦.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الجمعة١٠)، فهنالك عبادةٌ مخصوصةٌ (الصلاة) لابدّ من الإتيان بها، وهنالك عملٌ بعد العبادة، وحثٌّ عليه ﴿**وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ**﴾، وهنالك ذكرٌ لله تعالى، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ ذكر الله تعالى لابدّ أن يكون في نفس العمل، بمعنى: أن نراقب الله تعالى في أعمالنا، وليس المقصود هو التسبيح والتحميد اللفظيّ، فهذا وإن كان من مصاديقه إلّا أنّه بقرينة الانتشار في الأرض يكون المراد منه هو حسن المعاملة والإخلاص في العمل، ففي ذلك رعايةٌ لشرع الله تعالى، وهذا بعينه هو ذكرٌ لله تعالى.
- قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشبع كظّته البطنة، فكلّ تقصيرٍ به مضرٌّ وكلّ إفراطٍ له مفسدٌ**»(١)، أي: كلّ تفريطٍ بالطعام فهو تقصيرٌ مضرٌّ، وكلّ إفراطٍ فيه فهو مفسدٌ، وقد يكون الضمير عائداً للإنسان نفسه، فيكون المعنى: كلّ تفريطٍ وتقصيرٍ منه مضرٌّ به، وكلّ إفراطٍ منه مفسدٌ له.
- وفي موعظةٍ رشيدةٍ أخرى له عليه السلام يوصي بها واليه على مصر مالك الأشتر بالوسطيّة، يقول فيها: «**وليكن أحبّ الأمور إليك أوسطها**»(٢).

خلاصة الدرس

- الإفراط والتفريط دائرتان تكتنهان الانحراف والفساد.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٢٥، الخطبة رقم (١٠٨).

(٢) المصدر السابق: ج٣ ص٨٦، الخطبة رقم (٥٣).

- الكثير منّا يخطئ في طريقة الإصلاح نتيجة وقوعه في أخطر دائرتين فاسدتين، وهما دائرتا الإفراط والتفريط.
- غالباً ما يجتمع مع الإفراط تعصّبٌ وتجاوزٌ خطيرٌ على الطرف المقابل.
- مَن أفرط في شيءٍ منحه خصائص ليست فيه، ومَن فرّط سلبه خصائصه.
- أصل الإفراط والتفريط ناتجٌ عن الجهل أو التجاهل، والغفلة أو التغافل.
- في الإفراط والتفريط تغيب الحقيقة ويحضر الزور والبهتان.
- السلوك القرآنيّ رافضٌ للإفراط والتفريط في العقيدة والشريعة والأخلاق.
- التفرّغ للعبادة الخاصّة ليس مطلوباً منّا، ولا يمثّل نموذجاً يُحتذى به.
- للعبادة معنىً شموليٌّ يدخل فيه سائر الأعمال الصالحة والنافعة.
- التفكّر في فهم آيةٍ قرآنيّةٍ أو روايةٍ هو خيرٌ من قيام ليلةٍ.
- العمل الصالح هو وسطيٌّ أو أوسطيٌّ.
- العمل الصالح ليس منحصراً بالعبادات المخصوصة، ولا بالأعمال الخيريّة، وإنّما كلّ عملٍ نافعٍ في المجتمع هو عملٌ صالحٌ، فالمعلّم في تعليمه يقوم بعملٍ صالحٍ عظيمٍ، وهكذا الطبيب والمربّي والعامل والفلاح.
- الإحياء الحسّي هو أبرز مصاديق الإحياء، وليس أفضلها.
- الإحياء والقتل المعنويّان هما حقيقيّان وليسا اعتباريّين.
- مَن ضلّ فقد بصيرته ومَن فقدها فقد إنسانيّته، ومَن اهتدى وجد بصيرته، ومَن وجدها وجد إنسانيّته، وفاقد إنسانيّته مقتولٌ، وواجدها حيٌّ.
- قتل النفس الواحدة قتلٌ لجميع النفوس، وإحياؤها إحياءٌ لها جميعاً، وفي ذلك دلالةٌ على كون النفس الإنسانيّة هي في الأصل نفساً واحدةً.

مذاكرة

- لماذا يُخطئ الكثير منّا في طريقة إصلاح نفسه؟
- ما هي علاقة الإفراط والتفريط بالانحراف والفساد؟
- ما هي علاقة الإفراط والتفريط في تقييمنا للآخر؟
- عن أيّ شيءٍ ينتج الإفراط والتفريط؟
- ما هو معنى هذا القول: «لا ترى الجاهل إلّا مُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً»؟
- متى تتغيّب الحقيقة ويحضر الزور والبهتان؟
- ما هو السلوك القرآنيّ تجاه الإفراط والتفريط؟
- ما هي العبادة المعتدلة في سيرة الأنبياء والصالحين؟
- هل التفرّغ للعبادة المخصوصة أمرٌ مطلوبٌ؟
- ما هو المعنى الشموليّ للعبادة؟
- اذكر أمثلةً لأعمالٍ هي خيرٌ من قيام ليلةٍ؟
- ما نعني بقولنا: إنّ العمل الصالح وسطيٌّ أو أوسطيٌّ؟
- هل العمل الصالح منحصرٌ بالعبادات والأعمال الخيريّة؟
- ما هو أبرز مصداقٍ للإحياء وأفضل مصداقٍ له؟
- هل الإحياء والقتل المعنويّان اعتباريّان؟
- كيف توجّه القول بأنّ مَن ضلّ مقتولٌ، ومَن اهتدى حيٌّ؟
- كيف يكون قتل النفس الواحدة قتلاً لجميع النفوس؟

الدرس الثالث عشر

علاج مفاسد الأخلاق

- أهداف الدرس
- تمهيد
- نظرةٌ موجزةٌ حول طبيعة مفاسد الأخلاق
- مراتب مفاسد الأخلاق
- تصويرٌ لطيفٌ للأحوال الثلاثة (الحال والملكة والمقام)
- أبشع مفاسد الأخلاق
- التوجّه لأهواء النفس مفسدةٌ عظيمةٌ
- الخطوات السبع في معالجة الأخلاق الفاسدة
- أمور تُعين على مواصلة العلاج من مفاسد الأخلاق
- أهمّ عوامل الثبات في طريق الخلاص من مفاسد الأخلاق
- كلماتٌ على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان طبيعة مفاسد الأخلاق ووظائفها الخطيرة في النفس.
- بيان مراتب مفاسد الأخلاق مع عرض عيّناتٍ منها.
- التنبيه إلى خطورة التوجّه لأهواء النفس.
- بيان كيفيّة معالجة مفاسد الأخلاق.
- بيان طريق الثبات على مواجهة مفاسد الأخلاق.

تمهيد

من شروط إصلاح النفس وتهذيبها وتزكيتها: العمل بقاعدة التخلية، والتخلية هي عمليّةٌ طاردةٌ لجميع الأخلاق البذيئة ومكافحتها والقضاء عليها، فنُخلي النفس منها، وبالتالي ففي هذا الدرس الذي نبحث فيه كيفيّة علاج مفاسد الأخلاق الذي هو تعبيرٌ آخر عن قاعدة التخلية، تأتي بعدها القاعدة الأخلاقيّة الأخرى، وهي قاعدة التحلية، حيث يتزيّن الإنسان بالأخلاق الكريمة، وقد ناسب في هذا الدرس أن نبحث في طبيعة مفاسد الأخلاق وأبشع هذه المفاسد، ثمّ بيان طريقة علاجها.

نظرةٌ موجزةٌ حول طبيعة مفاسد الأخلاق

الأخلاق الفاسدة كثيرةٌ، وخطورتها لا تكمن في مردوداتها السلبيّة على الإنسان، كالكذب والعُجُب والرياء وغير ذلك فحسب، وإنّما لها خطورةٌ أخرى عظيمةٌ، وهي أثرها السلبيّ على نفس الأخلاق الكريمة، فالكذب مثلاً هو موبقةٌ بنفسه، ويُفقد الإنسان كرامته، ويجعله مهاناً في قرارة نفسه، ولكن له تأثيرٌ آخر ـ بما هو ملكة كذب ـ يكمن في مطاردته لبقايا الصدق؛

لأنّها هي الأخرى طاردةٌ له، وهكذا في سائر الأخلاق الفاسدة، وبالتالي فالموقف خطيرٌ جدّاً، كما أنّ هنالك أخلاقاً فاسدةً أخرى لها وظائف خطيرةٌ غير أثرها المباشر، فهي مفتاحٌ وحاضنةٌ لظهور ونموّ أخلاقٍ بذيئةٍ أخرى، من قبيل الكذب فهو يورث النفاق، وخَلق النميمة فإنّه طريقٌ للكذب والغدر والخيانة، بل كلّ خُلُقٍ بذيءٍ هو مفتاحٌ لخُلُقٍ بذيءٍ آخر، وهذا ما يُلزمنا من الناحيتين الشرعيّة والأخلاقيّة أن نفتّش في أنفسنا، وأن نتقصّى كلّ جذرٍ لها نابتٍ في أرض النفس، ثمّ العمل على مكافحته والقضاء عليه، وهذا ما يسمّى باصطلاح الأخلاقيّين بالتخلية.

إذن فلمفاسد الأخلاق ثلاثة آثارٍ خطيرة، وهي:

الأوّل: أثرها السلبيّ المباشر بما هي خُلُقٌ بذيءٌ.

الثاني: مطاردتها للأخلاق الكريمة، والعمل على القضاء عليها، ولن تكفّ عن عملها حتّى تذوب في أُتونها جميع الأخلاق الكريمة، ويتحوّل الإنسان إلى كائنٍ شيطانيٍّ بلباسٍ إنسانيٍّ.

الثالث: تشكيلها لحواضن جديدةٍ تحلّ فيها مفاسد أخلاقٍ جديدةٍ، فمَن نبت فيه خُلُقٌ بذيءٌ تابعته أخلاقٌ بذيئةٌ أخرى.

إنّ من صفات مفاسد الأخلاق النموّ السريع لها، فهي نشطةٌ، كثيرة الحراك، شديدة السطوة، بل هي أشبه بالوحش الكاسر، وهنا مركز قوّتها وخطورتها العظيمة، فهي تنمو تلقائيّاً من دون الحاجة لرعايتها، بخلاف الأخلاق الحميدة فإنّها لا تنمو إلّا بالعناية والرعاية، كما هو الحال تماماً بالنسبة للوَرد والشوك، فالوَرد ينمو ويكبر بالسقي والمداراة والرعاية، وأمّا الشوك فإنّه يتحرّر من القوّة إلى الفعل ويصل إلى كماله تلقائيّاً، ولا يتوقّف على رعايةٍ وعنايةٍ، ولذلك فإنّ الأخلاق الحميدة تُلزمنا بالرعاية المستمرّة

لها، لكي لا تذبل أو تموت، في حين أنّ الأخلاق الذميمة تحتاج إلى مطاردةٍ مستمرّةٍ، أي أنّها تحتاج إلى عنايةٍ مخالفةٍ لها، وإلّا استحكمت.

نعم، إنّ مفاسد الأخلاق لا تكون كذلك في صلابتها وقوّتها وقدرتها على الدفاع عن نفسها، والتوسّع في مساحات النفس، إلّا إذا بلغت مرتبة الملكة، فضلاً عن مرتبة المقام، وهذا ما ينبغي توضيحه.

مراتب مفاسد الأخلاق

جميع الأخلاق الذميمة والفاسدة تعبّر عن ملكاتٍ نفسانيّةٍ تتّصف بها النفس الإنسانيّة، والتعبير بكونها ملكاتٍ هو للإشارة إلى أنّها أصبحت متمكّنةً من النفس، من قبيل ملكة الكذب وملكة الحسد، ولذلك الأخلاق بقسميها ـ الحميدة والذميمة ـ لا تسمّى بذلك إلّا إذا بلغت مرتبة الملكة فما فوق، وأمّا ما دون ذلك فهي ليست أخلاقاً بالمعنى الاصطلاحيّ؛ نظراً لسهولة زوالها.

توضيح ذلك: هنالك أربع مراتب طوليّة للأخلاق، واحدةٌ يسيرةٌ، وواحدةٌ صعبةٌ معقّدةٌ، وواحدةٌ عسيرةٌ مستعصيةٌ، وواحدةٌ مستحكمةٌ، وهي كالتالي:

أوّلاً: مرتبة الحال، ويراد بها حصول حالةٍ معيّنةٍ لدى الإنسان بعد قيامه بعملٍ ما، ولكنّها سرعان ما تزول بزوال المؤثّر، فتكون من قبيل صفرة الخوف وحمرة الخجل، وأيضاً من قبيل سماع موعظةٍ في مسجدٍ، فتحصل له حالةٌ نفسيّةٌ معيّنةٌ كالرغبة في صلاة الليل، أو حبِّ الإنفاق، أو الخوف من الموت، فإذا خرج من المسجد واشتغل بتفاصيل الحياة، بدأ صوت تلك الموعظة يختفي شيئاً فشيئاً، حتّى تزول، فيكون ذلك التأثير

الإيجابيّ الجميل هو عينه الخُلق الحسن الذي لم يصل حدّ التلبّس، وهذا هو الحال الموصوف بعدم الثبات، ومثاله في مساوئ الأخلاق هو النظر إلى المرأة الأجنبيّة، فينشأ عن ذلك رغبةٌ غير شرعيّةٍ فيها، فإذا التفت إلى نفسه وتذكّر والتفت إلى خطئه تاب وعاد، وزال عنه ذلك الخاطر السيّئ، وبزواله يثبت أنّه كان مجرّد حالٍ، وأمّا إذا اعتاد النظر وتولّدت الرغبات غير المشروعة فيه، بل والتفكير بالإقدام على الخطيئة والاستجابة إذا تهيّأت الفرصة لذلك، فتلك هي الملكة.

ثانياً: مرتبة الملكة غير المستعصية، ويراد بها اشتداد الحالة السابقة (الحال) وقوّتها في وجود الإنسان، فيحصل نوعٌ من التلبّس، بحيث يصعب زوالها، كالتدخين وشرب الخمر وارتكاب الفواحش، حيث تنشأ هذه الملكة نتيجة تكرار العمل واعتياده، ولكن مع الالتفات إلى بشاعته، ووجود تفكيرٍ بتغييره، وأغلب الظروف التي تشكّل هذه الملكات السيّئة متعلّقةٌ برفقة السوء، حيث لا توجد دواعٍ شخصيّةٌ ونفسيّةٌ لهذه المخالفات، وإنّما بالمعاشرة والملاصقة مع رفقة السوء انتقلت العدوى.

ثالثاً: مرتبة الملكة المستعصية، ويراد بها اشتداد الحالة السابقة بنحوٍ تُشكّل فيه عرضاً غير مفارقٍ، وعدم الالتفات إلى بشاعة الأعمال السيّئة الناشئة عن تلك الملكات، فضلاً عن عدم التفكير بإزالتها، وهذه هي الملكة المستعصية، والتي يحتاج تغييرها إلى صدمةٍ عنيفةٍ أو موقفٍ يهزّه من الوجدان، فلا يملك إزاءه غير الاستجابة والتغيير، فيكون التغيير فيه شيئاً من الاضطرار.

وهذه المرحلة الخطيرة هي ما يعبِّر عنها القرآن بالرين؛ قال تعالى: ﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا**

يَكْسِبُونَ﴾ (المطفّفين: ١٣ـ١٤).

رابعاً: مرتبة المقام المستحكم، ويراد بها مرتبة الطبع على القلب، التي لا ينفع فيها شيءٌ، إلّا إذا حلّت معجزةٌ أو كرامةٌ، وإلّا بالوضع الطبيعيّ لقدرات الإنسان هنالك عجزٌ مطبقٌ، حيث تبلغ الشقوة بالإنسان إلى مستوى محو الإنسانيّة عن صفحات قلبه، ويتحوّل إلى شيطانٍ ماردٍ، ولذلك فصاحب المقام هذا يتلذّذ بالجرائم والمعاصي والموبقات، فيقدم على قتل أولياء الله وهو يعلم بأنّهم أولياء الله تعالى، ويزني لأجل الزنا والخطيئة لا لمجرّد المتعة، ويبلغ درجةً من العناد، ما يحمله الكِبَر والشقوة على إنكار البديهيّات، ولا يريد أن يعطي نفسه فرصةً للتفقّه والمعرفة، وكثيراً ما تأخذه العزّة بالإثم، فهو كما قال تعالى: **﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾** (التوبة: ٨٧)، والسرّ هو ما قاله تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾** (النحل: ١٠٧ـ١٠٨)، والطبع الإلهيّ هو عين الختم، فالمقام طبعٌ وختمٌ؛ قال تعالى: **﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾** (البقرة: ٧)، فهم بحسب التعبير القرآنيّ: **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾** (البقرة: ١٨).

والخلاصة في ذلك: أنّ هنالك حالاً عارضاً، ناشئاً عن تأثيرٍ محدودٍ، سرعان ما يزول، وهنالك نوعٌ من التلبّس ناشئٌ عن تكرار العمل، فيرى سوء عمله وله رغبةٌ في التغيير، ولكنّ إرادته ضعيفةٌ، فيتوب ويرجع، وهذه هي الملكة غير المستعصية، وهنالك نوعٌ أشدّ من التلبّس يبلغ درجة الرين، وهو نوعٌ من التطبّع يكون هو السبب المباشر فيه، ولا يتلفت إلى بشاعة عمله السيّئ ولا يفكّر في تغييره، وهذه هي الملكة المستعصية التي تحتاج إلى

صدمةٍ عنيفةٍ، وهنالك آخر يتحوّل فيه التطبّع إلى طبعٍ، وهو المقام، وهذا الطبع يكون من الله تعالى وليس منهم، لكنّهم بلغوا من السوء والخباثة حدّاً لم يبقَ له سوى الختم، والختم هو نفس الطبع الإلهيّ، وهذا هو المقام الذي لا زوال عنه.

تصويرٌ لطيفٌ للأحوال الثلاثة (الحال والملكة والمقام)

يمكن تقريب المراحل الثلاث أو الأربع، بحسب التقسيم[1]، بمثالٍ هو: لو أخذنا فحمةً سوداء ووضعناها على النار، سنجدها تمرّ بمراحل، هي:

المرحلة الأولى: تُصبح فيها الفحمة حارّةً، مع بقائها فحمةً سوداء، بحيث لو زالت النار عنها فسرعان ما ترجع إلى ما كانت عليه، وهذه مرحلة الحال.

المرحلة الثانية: يتحوّل فيها ظاهر الفحمة إلى نارٍ، ولكن مع بقاء باطنها فحمةً سوداء، بحيث لو زالت النار عنها فإنّ رجوعها إلى حالتها الأولى صعبٌ وبطيءٌ، وهذه هي مرحلة الملكة غير المستعصية.

المرحلة الثالثة: نفس الصورة السابقة، ولكن لو زالت النار عن الفحمة، فإنّها لا تعود لصورتها الأولى حتّى مع مضيّ زمنٍ طويلٍ، لأنّ مساحة النار والاحتراق فيها أكبر بكثيرٍ من المتبقّي منها، وهذه هي الملكة المستعصية.

المرحلة الرابعة: تحوّل الجمرة السوداء برمّتها إلى نارٍ، في ظاهرها وباطنها،

---

(١) يرى السيّد الأستاذ دام ظلّه كما تقدّم منه أنّ مرتبة الملكة هي نفسها على مرتبتين، الأولى غير مستعصيةٍ، والثانية مستعصيةٌ، والأولى يمكن تغييرها بالعمل والمثابرة، وأمّا الثانية فتحتاج إلى صدمةٍ عنيفةٍ، كما لو حصلت له مشاهدةٌ غيبيّةٌ ترجعه إلى رشده، وهي صورة التطبّع، وأمّا حالة الطبع والختم فهي المقام الذي لا مغادرة منه أبداً إلّا بمعجزةٍ، وقد صوّر لنا السيّد الأستاذ الصور الأساسيّة (الحال، الملكة، المقام).

بحيث زالت عنها خصوصيّة الجمريّة نهائيّاً، وحلّت محلّها الخصوصيّة الناريّة، وسرعان ما ستكون رماداً، وهذه هي مرحلة المقام.

جديرٌ بالذكر: أنّ هذه المراتب الأربع ليست مخصوصةً بمفاسد الأخلاق، وإنّما هي صادقةٌ على محاسن الأخلاق أيضاً، ففيها حالٌ وملكةٌ ومقامٌ، ومن صدقها في ذلك: صدقها على المجال المعرفيّ، فهنالك مجالٌ معرفيٌّ أوّليٌّ، وهنالك مجالٌ معرفيٌّ تحقيقيٌّ برهانيٌّ، وهنالك مجالٌ معرفيٌّ تحقّقيٌّ شهوديٌّ، وقد تناولنا ذلك في دراساتٍ أخرى ننصح بمراجعتها؛ لصلتها الوثيقة بهذا الموضوع[1].

أبشع مفاسد الأخلاق

نبّهنا إلى أنّ مفاسد الأخلاق كثيرةٌ جدّاً، ولكن لهذه المفاسد عيونٌ وأمّهاتٌ، فعندما نعتبر أنّ الخير كلّ الخير إنّما هو في الصدق، والشرّ كلّ الشرّ إنّما هو في الكذب، فذلك تعبيرٌ آخر عن كون الصدق هو حاضنةً للمحاسن الأخرى، وكون الكذب هو حاضنةً للمساوئ الأخرى، ومن هنا وقع اختيارنا، بحسب فهمنا وتحقيقنا، على هذه الصفات الخبيثة من مساوئ الأخلاق، فهي عيون ومفاسد كلّ مساوئ الأخلاق، وهي: (الكذب؛ النفاق؛ النميمة؛ العجب؛ الرياء؛ الحسد؛ الكبر؛ الغيبة؛ البهتان)، وسوف نوجز الحديث فيها.

الأوّل: الكذب

وهو القول أو الفعل بما يخالف الواقع، فهنالك كذبٌ قوليٌّ، وكذبٌ

(١) انظر: معرفة الله، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٥، الفصل الثالث (مراتب معرفة الله).

فعليٌّ، فقد يخبرنا الإنسان بقولٍ عن شيءٍ لا واقع له، وقد يخبرنا الإنسان بواسطة فعلٍ منه، كالابتسامة الكاذبة، التي تخبر عن حالٍ غير واقع.

والكذب إنّما يكمن شرّه الأكبر في كونه يستبطن شركاً بالله تعالى، وربّما كفراً أيضاً؛ لأنّ الكاذب يجد في كذبه نجاةً له، فيكون معتقداً بأنّ الكذب هو المنجي له وليس هو الله تعالى الآمر بالصدق، وهذا ضربٌ من الشرك، كما أنّه يستبطن سوء ظنٍّ بالله تعالى، فالإسلام يُعلّمنا أنّ النجاة في الصدق والهلاك في الكذب، والكاذب يسيئُ الظنّ فيرى أنّ النجاة في الكذب والهلاك في الصدق، ولا يعلم هذا الغافل إذا كان الصدق وهو الفضيلة لا ينجيه من المأزق، فكيف يُنجيه الكذب وهو الرذيلة؟ وكيف ينتفع الكاذب بكذبه ولا ينتفع الصادق بصدقه، والله تعالى يقول: ﴿**...هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (المائدة: ١١٩).

الثاني: النفاق

النفاق: من النفق المخفيّ الذي يمرّر منه الإنسان ما لا يريد إظهاره، ولذا فهو مخالفة السرّ والعلن، فيسرّ شيئاً ويعلن ضدّه، ويعلن شيئاً ويسرّ ضدّه، ولا يكون النفاق نفاقاً إلّا إذا كان المخفيّ هو السيّئ، والمعلن هو الأمر الحسن، كما فيمن يظهر الإيمان ويسرّ الكفر، أو يظهر الحبّ والمودّة ويخفي الحقد والعداوة، فيخالف ظاهره باطنه، وبالعكس، فيكون في الحالين ذا وجهين.

والنفاق من المهلكات العظيمة، لاسيّما في العقيدة، فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ**

لَهُمْ نَصِيراً﴾ (النساء: ١٤٥)، والظاهر من الآية هو صدقها على مَن أظهروا الإيمان وأخفوا الكفر والشرك، بدليل نزولها في عبد الله بن أُبيّ المنافق، وكان يُضمر الكفر في قلبه، فيكون المصداق كاشفاً عن ملاك المفهوم الصادق عليه، وبالتالي فمَن أضمر الكفر وأظهر الإيمان فالمفهوم القرآنيّ صادقٌ عليه، وأمّا مَن أظهر المحبّة والمودّة وأخفى البغض والكراهيّة، فهو وإن خالف ظاهره باطنه، إلّا أنّ المفهوم بقيوده غير صادقٍ عليه، لاسيّما إذا كان الفاعل لذلك يقوم بهذا العمل من باب المداراة لا من باب المداهنة، ومداراة الناس نصف العقل.

وقيل بأنّ أشدّ أنواع النفاق بعد كفر النفاق هو كون الرجل ذا وجهين ولسانين، فيمدح أخاه المسلم في حضوره، ويظهر له المحبّة والنصيحة، ثمّ يذمّه في غيبته ويؤذيه بالسبّ؛ والسعاية إلى الظالمين؛ وهتك عرضه؛ وإتلاف ماله؛ وغير ذلك[١]، وهو قولٌ صحيحٌ في حدود القيود المذكورة، فهي مهلكةٌ ولا ريب، وأمّا الصور العاديّة من النفاق الاجتماعيّ فأكثرها حاصلةٌ من باب المداراة والمجاملة، ولا يسع الإنسان المؤمن إلّا أن يكون من أهل المداراة والمجاملة، شرط أن لا يفضي ذلك إلى زوال الحقّ وإظهار الباطل.

ولا يخفى أنّ النفاق بجميع صوره مذمومٌ أخلاقيّاً، ومحرّمٌ شرعاً، ومنبوذٌ عرفاً، وقد ورد في الخبر عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال: «**لبئس العبد عبدٌ يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أُعطي حسده، وإن ابتلي خذله**»[٢].

---

(١) انظر: جامع السعادات، مصدر سابق: ج٢ ص٣١٨.

(٢) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٣٤٣ ح٢.

الثالث: النميمة

النميمة: هي نقل خبرٍ من طرفٍ لآخر بما يسوء الثاني، وبالعكس، فيسمع ذمّاً أو نقداً من شخصٍ لآخر، فينقله للآخر؛ بغية الإيقاع بينهما، أو لطلب المنزلة في قلب الآخر، فيكون مزيجاً من النميمة والرياء.

ومَن عرف حقيقة النميمة، يعلم أنّ النمّام شرّ الناس وأخبثهم، كيف وهو لا ينفكّ من الكذب، والغيبة والغدر والخيانة والغلّ والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة[١]. وبسعي النمّام للقطيعة بين عباد الله يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (البقرة: ٢٧)، فهو ممّن قطع ما يجب أن يوصل[٢]، كما هو مصداقٌ للقاطع الوارد في حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**لا يدخل الجنّة قاطعٌ**»، وفي خبرٍ آخر: «**لا يدخل الجنّة قاطعٌ بين الناس**»[٣]، ومن ثَمّ لا ينبغي أن نثق بقول نمّامٍ، فـمَن نمّ لك نمّ عليك، كما ورد في خبرٍ[٤]، وكما هو صحيحٌ في التجربة العمليّة مع مثل هؤلاء.

---

(١) رسائل الشهيد الثاني، للشهيد السعيد الفقيه زين الدين علي الجبعي العاملي: ٣٠٧، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، نشر: مؤسّسة بوستان كتاب، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، قم المقدّسة؛ جامع السعادات، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٣.

(٢) المصدران السابقان نفسهما.

(٣) مصنَّف الصنعاني، مصدر سابق: ج١١ ص١٦٩ ح٢٠٢٢٩؛ مسند أحمد، مصدر سابق: ج٤ ص٨٠؛ صحيح البخاري، مصدر سابق؛ ج٧ ص٧٢؛ مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ج٩ ص١٠٨ ح٩؛ رسائل الشهيد الثاني، مصدر سابق: ٣٠٧.

(٤) عن الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام. (انظر: رسائل الشهيد الثاني، مصدر سابق: ٣٠٧؛ بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٧٢ ص٢٧٠).

الرابع: العُجب والرياء

العُجب: هو أن يُعجب الإنسان بنفسه وعمله، وقد يداهمه شعورٌ بالتفوّق وعجز الآخرين عن أداء مثل عمله، فينقلب عُجبه إلى تكبّرٍ وعجرفة[1].

وصاحب العُجب لا يلتفت إلى شكر الله تعالى توفيقه في عمله، وإنّما يأخذه الزهو، وهذا الأمر فيه أنانيّةٌ، بدليل أنّه لا يرى حُسن عمله في عمل الآخرين، وهو مرضٌ نفسيٌّ، وأسوأ مصاديقه إذا وقع للإنسان في عباداته.

وأمّا الرياء فهو صنو العُجب، وفيه من معنى العُجب أيضاً، ولكن في الطرف الآخر؛ لأنّه يريد من الآخرين أن يُعجبوا به، ويتحدّثوا عنه، والرياء ـ في الاصطلاح ـ هو طلب المحبوبيّة والمنزلة في قلوب الناس، فيكون عمله في الخير ليس للخير نفسه، وإنّما ليقال عنه بأنّه فعل ذلك، فيمدحه الناس، وهذه هي المنزلة، ومنه يُفهم وجه الصلة بينه وبين العُجب، ومنه يُعلم أيضاً سرّ عرضنا للأمرين معاً في عنوانٍ واحدٍ، وأسوأ الرياء قاطبةً إذا وقع في العبادات، فإنّه لا يكتفي ببطلانها فقط، وإنّما سيجعل من صاحبه مشركاً، فالعبادات يجب أن يُقصد فيها وجه القربة حصراً إلى الله تعالى، فمَن قصد سواه في العبادة لطلب المنزلة في قلبه، فذلك ولا ريب شركٌ، غاية الأمر أنّه يسمّى بالشرك الخفيّ، وهو الشرك الذي كان يخاف منه رسول الله صلّى الله عليه وآله على أُمّته، فقد ورد في الخبر: «**إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟

---

(١) الفرق بين العُجب والتكبّر دقيقٌ جدّاً، فالمعجب بنفسه والمتكبّر كلاهما يشعر بالعزّة والتعظيم لنفسه، ولكنّ المتكبّر أسوأ حالاً لأنّه يرى نفسه فوق الآخرين، فينظر إليهم بعينٍ ضيّقةٍ واحتقارٍ، وينظر لنفسه بالعظمة والإجلال، في حين أنّ المعجب بنفسه يشعر بالزهو.

قال: **الرياء، يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فاطلبوا ذلك عندهم»**[١].

الخامس: الحسد

الحسد: هو تمنّي زوال النعم عن الشخص المحسود، فإن تمنيّت أن تكون لك مثلها ولم ترد زوالها عن صاحبها فهي الغبطة، والمؤمن يغبط ولا يحسد.

وقد نصّ القرآن على شرّيّة الحاسد والحسد بقوله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾ (الفلق: ٥)، وفي هذه السورة وردت الاستعاذة من أربعة أشخاص، وأشرّ هؤلاء هو الحاسد، وربّما صار كذلك لأنّ شرّه غير منقطع، فنِعمُ الله تعالى قائمةٌ ودائمةٌ، والحاسد يترصّدها، وبدوام النعم يدوم حسده ويدوم شرّه، ويدوم زوال حسناته، كما ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إيّاكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[٢]، وفي خبرٍ آخر عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّهما قالا: «**ولا تحاسدوا؛ فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب**»[٣].

---

(١) مسند أحمد، مصدر سابق: ج٥ ص٤٢٨؛ المعجم الكبير للطبراني، مصدر سابق: ج٤ ص٢٥٣؛ عدة الداعي، مصدر سابق: ص٢١٤.

(٢) سنن أبي داود، مصدر سابق: ج٢ ص٤٥٧ ح٤٩٠٣؛ الروضة من الكافي، مصدر سابق: ج ٨ ص٤٥ ح٨، حديث موسى عليه السلام؛ سبل السلام (شرح بلوغ المرام)، السيّد محمّد بن إسماعيل الكحلاني (ت:١١٨٢هـ): ج٤ ص١٨١ ح١، مراجعة وتعليق: محمّد عبد العزيز الخولي، طبع ونشر: مكتبة مصطفى الحلبي، الطبعة الرابعة، ١٩٦٠م، القاهرة؛ جامع الأخبار، للشيخ محمّد بن محمّد السبزواري: ص٤٥١ ح١٢٦٦؛ تحقيق: علاء آل جعفر.

(٣) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص١٥١، الخطبة رقم (٨٦)؛ أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٣٠٦ ح٢.

ثمّ إنّ تمنّي زوال النعمة دون مكسبٍ واقعيٍّ للحاسد دليلٌ على خسّة الحاسد وسوء باطنه، وانعدام بصيرته، وقد أرجع الأخلاقيّون رذيلة الحسد إلى القوّة الغضبيّة، فهنالك مَن يغضب لنيل الآخرين امتيازاً فيحسدهم، أي: يتمنّى زوالها، وهذا هو التعويض السلبيّ، في حين أنّ العمل على تحصيل مثل ما ناله الآخرون هو التعويض الإيجابيّ، والذي يقع في قبال الحسد والحاسد هو النصيحة والناصح، و «المعيار في كونك ناصحاً: أن تريد لأخيك ما تريد لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وفي كونك حاسداً: أن تريد له ما تكره لنفسك، وتكره له ما تريد لنفسك»[1].

وقيل بأنّ الحسد هو أشدّ الأمراض المعنويّة وأصعبها، وأنّه أسوأ الرذائل وأخبثها، ولكنّ الصحيح أنّ الكذب هو أسوأ الرذائل وأخبثها، فهو بوّابة كلّ شرٍّ، بل ما من موبقةٍ إلّا وللكذب فيها سهمٌ.

نعم، إنّ الحسد يكشف عن خسّة وسفالة صاحبه، فهو يحزن لنعمةٍ أصابت غيره، ويفرح لزوالها، وكأنّه يكشف عن انعدام تمنّي الخير للآخر، ولذلك فالحاسد في تصاغرٍ وتآكلٍ وصراعٍ طويلٍ وعميقٍ مع نفسه، ولن يفلح الحاسد في مبغاه، ففرحُه المؤقّت بزوال نعمة الآخر سرعان ما ينقلب عليه حزناً وغمّاً؛ حيث سيرى نفسه علّةً في زوال تلك النعمة، فيكون قد جمع بين الغمّين، ومصيبة الحاسد الكبرى هي عدم انقطاع الهمّ والحزن والغمّ عنه؛ لأنّ النعم التي يتمنّى زوالها كثيرةٌ، ونعم الله تعالى لا حصر لها، كما تقدّم منّا ذلك، فتدوم بذلك مقتضيات مصيبته، أو قل: فيدوم صراعه مع نفسه الخبيثة، علماً بأنّ الحسّاد هم في الغالب ممّن تلوّثت قلوبهم بالنفاق،

---

(١) جامع السعادات، مصدر سابق: ج٢ ص١٤٨.

وقد فضحهم القرآن بقوله الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا...﴾ (آل عمران: ١١٩ـ١٢٠).

السادس: الكبر أو التكبّر

وهنا تكمن الطامّة الكبرى، فالكبر هو المنّاع من كلّ خير، وهو السبب الأكبر في عدم استجابة كبراء قريشٍ لدعوة النبيّ صلّى الله عليه وآله، فكانوا يجادلون بالباطل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ (غافر: ٥٦).

والكبر هو الشعور بالعزّة والتعظيم والزهو بنحوٍ يرى نفسه فوق الآخرين، فينظر لنفسه بعين التعظيم، وينظر للآخرين بعين الاحتقار، وبهذا القيد الأخير يفترق العُجب عن الكبر، فالكبر شرّه أكبر، وخبثه أشدّ، ولذلك يرى الأخلاقيّون أنّ العُجب هو مقدّمةٌ للكبر، فمَن لم يعالج العُجب في نفسه انقلب إلى كبرٍ، والكبر مرضٌ عضالٌ يمنع صاحبه من سماع الحقّ فضلاً عن عدم الانصياع له، وللمتكبّرين قصصٌ كثيرةٌ في كتب التاريخ، كان لأبطالها جرأةٌ على الله تعالى، ولا يسع المقام ذكرها، وكفى بالكبر سوءاً وخباثةً أنّه يضطرّ صاحبه لفعل كلّ سوءٍ حفظاً منه على عزّته وأنفته، حتّى يبلغ صاحبه مرتبة الطبع والمقام الذي لا يزول عنه أبداً؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر٣: ٥)، ولن يصيب من الخير الواقعيّ شيئاً؛ قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ

الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

السابع: الغيبة والبهتان

الغيبة: ذكر عيبٍ خفيٍّ يُسيئ صاحبه وفي غيبةٍ منه، والبهتان نسبة عيبٍ إلى شخصٍ ليس فيه، سواءٌ كان غائباً أم حاضراً، وإذا كانت الغيبة هي أشبه بأكل الميتة، لشدّة قبحها، فإنّ البهتان أشدّ قبحاً.

التوجّه لأهواء النفس مفسدة عظيمة

لا ريب بأنّ الركون للنفس والتوجّه إليها والاستجابة لأهوائها بدلاً من التوجّه لله تعالى والاستجابة لأوامره ونواهيه، سيُوقع الإنسان في مفاسد عظيمةٍ، فالركون للنفس نقصٌ محضٌ، والركون لله تعالى كمالٌ محضٌ، ومنه يتّضح وجه المفاسد الواقعة، والمنافع الذاهبة، وعليه فكلّما استغرقنا في التوجّه للنفس وأهوائها ازددنا جهلاً ونقصاً، وكلّما ازددنا توجّهاً لله تعالى ازددنا معرفةً وكمالاً.

ولعلّ كلّ المفاسد أو أعظمها هي المفاسد الوليدة للتوجّه للنفس وأهوائها، والتوجّه لها لا يجدي الإنسان منفعةً واقعيّةً، فهي كماء البحر، من ازداد شرباً منه ازداد عطشاً.

الخطوات السبع في معالجة الأخلاق الفاسدة[1]

هنالك علاجاتٌ مشتركةٌ لجميع مفاسد الأخلاق، سواءٌ ما تحدّثنا عنها

---

(١) مرّ بنا بعض هذه الخطوات في الدرس الثامن (حقيقة التوبة وشروطها)، ولكنّها جاءت بصورةٍ عرضيّةٍ ومحدودةٍ، وهاهنا موردها الأصليّ في معالجة مفاسد الأخلاق بأسرها.

أو لم نتحدّث عنها، وهذه العلاجات تتوقّف على خطواتٍ سبعٍ لابدّ منها، هي:

الخطوة الأولى: الالتفات إلى وجود الخلق الفاسد والإقرار به، وعدم تبريره، فإذا ما أخذت الإنسان العزّةُ بالإثم، ونفى الخلق الفاسد عنه، فإنّه لن يصل إلى شيءٍ البتّة؛ لأنّ الخلاص من مفاسد الأخلاق يحتاج إلى تأييد إلهيٍّ وتوفيقٍ عظيمٍ، والاعتراف بالذنب يجعلنا قريبين من الله تعالى، وقريبين من عونه وتوفيقه، بل الاعتراف هو نفسه من أعظم وسائل القرب من الله تعالى، ونيل العفو، وإصلاح النفس.

ورد في مناجاةٍ للإمام السجّاد عليه السلام: «**سيّدي إن كان قد دنا منّي أجلي ولم يقرّبني منك عملي، فقد جعلت الاعتراف بالذنب أوجه وسائل عللي**»[1].

الخطوة الثانية: المبادرة والمسارعة في معالجة مفاسد الأخلاق، ومن دون ذلك سيجد الإنسان نفسه قابعاً في دائرة التسويف، والتسويف باختصارٍ شديدٍ هو عين الهلاك والإهلاك، وعلى جمراته الخافتة تتحوّل نوايانا الصادقة إلى مجرّد رمادٍ تذروه الرياح.

الخطوة الثالثة: التخلّص من رفقة السوء؛ فإنّ أصدقاء السوء لا يطيب لهم الإصلاح، ففيه نفاد بضاعتهم، ولذلك فهم لا يسمحون للتائب والساعي لإصلاح نفسه في معالجة أمراضه المعنويّة، بل سوف يواجهون كلّ عملٍ إصلاحيٍّ للنفس بالاستهزاء والسخرية، ولذلك يمكن القول بأنّهم هم العدوّ الخارجيّ الأوّل، فهم أدوات الشيطان في زعزعة التائب عن توبته، وتيئيس المتأمّل برحمة الله عن تأمّله، لاسيّما الأشخاص المصابين

---

(١) الصحيفة السجّادية، مصدر سابق: ص٤٥٥، رقم الدعاء (١٩٩).

بنفس الأخلاق الفاسدة المراد الخلاص منها، فالتائب عن شرب الخمر لا يفرح به أصدقاؤه المدمنون عليه، وسيسمعونه كلماتٍ جارحةً ومثبّطةً، ولذلك بمجرّد إعلان التوبة الصادقة بترك الذنب عليك أن تجتنب نهائيّاً ـ ولو لحين المعافاة من المرض ـ عن رفقة السوء، وقد قلنا سابقاً بأنّ رفقة السوء هم أسوأ من الذنب نفسه، فالذنب قد تتوب عنه، ولكن رفقة السوء هم السبب الحقيقيّ الكامن وراء العود للذنب والاستغراق فيه.

وإذا تمكّنت من التخلّص من رفقة السوء فعليك ثمّ عليك أن تبدلهم برفقة الخير، فإنّ رُفقاء الخير هم سبيلٌ للنجاة، وهم مرآتك الحقيقيّة التي تريك عيوبك وترشدك إلى طريق الخلاص.

الخطوة الرابعة: العزم القطعيّ والتوكّل على الله تعالى في رحلة الخير الوفير، وهي رحلة التخلية قبل التحلية، فمَن كان يكذب فعليه أن يمسك لسانه، ويعاقب لسانه بلزوم الصمت حال وقوع زلّةٍ منه، ونعم الورد هو الصمت.

وهكذا عليه أن يراقب نفسه، فيرصد الخطأ ويعاجل في إصلاحه، ولا يكترث حال توبته لثقل الذنب فالله تعالى هو الغفور الرحيم، ولا تحبطه كثرة ذنوبه، فربّ حسنةٍ واحدةٍ تمحق نصف ما اقترفه من ذنوبٍ، بل وربّ حسنةٍ تحوّل السيّئات إلى حسناتٍ، كالصلاة الخاشعة، وهذا هو الفضل العظيم؛ قال تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ (هود: ١١٤).

الخطوة الخامسة: الحرص على عدم التواجد في حواضن المعاصي، ونعني بها الأماكن الملوّثة التي تُغري بالمعاصي، فهنالك أجواء تزكم الإنسان بروائحها العفنة، وهي الأجواء النفاقيّة، والأجواء النفعيّة المصلحيّة، والأجواء الريائيّة،

والأجواء الحسديّة، وأجواء آكلة لحوم الموتى، وأجواء الكبر والجدال بالباطل، وغير ذلك، ومن الواضح أنّ التخلّص من أسباب المرض هو نصف العلاج، بل قد يكون في بعض الموارد هو العلاج كلَّه.

وعليه فإنّه في رحلة التخلّص من الكذب عليه أن لا يتواجد في أماكن ينتشر فيها الكذّابون، وفي رحلة القضاء على العُجب والرياء لابدّ أن يهرب من الأماكن التي ينتشر فيها المعجبون بأنفسهم والمراؤون؛ فإنّ البيئة الموبوءة بنفسها معديةٌ، وتجعل ساكنيها مستهينين بالمعاصي.

الخطوة السادسة: إدامة اللجوء إلى الله تعالى والتوسّل به، ولا يركن ولا يتّكل المصلح لنفسه على نفسه، فالاتّكال عليها يستبطن العود للمعصية، وإنّما عليك ـ بجملةٍ واحدةٍ ـ أن تلقي بكلّك في الحضرة الإلهيّة وتطلب العون، والله تعالى لن يردّ سائلاً أبداً؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٦).

الخطوة السابعة: مقارعة مفاسد الأخلاق بما يقابلها من محاسن الأخلاق، فيعالج الكبر بالتواضع، والحسد بتمنّي الخير، وهكذا.

أمور تُعين على مواصلة العلاج من مفاسد الأخلاق

أهمّ الأُمور المعينة على مواصلة طريق الخلاص من مفاسد الأخلاق هي:

أوّلاً: الالتزام بمقامات المرابطة الأربعة، والتي تقدّم الحديث عنها في درسٍ سابقٍ، وهي: المشارطة والمراقبة والمحاسبة والمعاتبة.

ثانياً: الحرص على التفقّه في الدين، والقراءة والمتابعة، وعدم الكفّ عن السؤال فيما يتعلّق بدينه، وهذا ما يشكّل له حصانةً نوعيّةً، ومنه يتّضح وجه

التأكيدات الكثيرة على مواكبة العلماء ومزاحمتهم بالسؤال عن أمور الدين[(١)].

ثالثاً: الإكثار من التواجد في المساجد والأماكن المقدّسة، فإنّ فيها بركةً عظيمةً، تُذكّر بالله تعالى وبالصالحين من خلقه، وتدعو إلى مواكبة الإصلاح بالعبادة، وليس هنالك مكانٌ تطمئنّ فيه النفس أكثر من المسجد.

وهنالك أمرٌ آخر يُعين العبد في رحلته على الخلاص من مفاسد الأخلاق، وهو التطبّع، فإنّه في ذلك يكافح الخُلق الفاسد بالتطبّع على الخلق الحسن؛ فإذا ما زاول عمله بالتطبّع انقلب التطبّع إلى طبعٍ، وتخلّص من تبعات الذنوب السابقة، ولا يخفى أهميّة الصبر والتحمّل للخروج من طائلة الأخلاق الفاسدة.

أهمّ عوامل الثبات في طريق الخلاص من مفاسد الأخلاق

من أهمّ عوامل الثبات في طريق التخلّص من مفاسد الأخلاق:

أوّلاً: الصدق في نيّة الإصلاح، والصدق في القول والصدق في العمل؛ فإنّ الصدق في ذلك هو المفتاح الحقيقيّ لفكّ عُقد الماضي، والتخلّص من تبعات الماضي، وبقدر صدقنا في هذه المراتب الثلاث (النيّة والقول والعمل)، نكون قد أنجزنا مهمّة الإصلاح والخلاص من مفاسد الأخلاق، ولذلك إذا ما صاحب رحلتَنا إخفاقٌ وإحباطٌ ما، فذلك كاشفٌ عن مساحة صدقنا في تلك المراتب، ونظراً لأهميّة موضوع الصدق في النيّة والقول والعمل فسوف

---

(١) أوصى لقمان الحكيم ابنه: «يا بنيّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإنّ الله يُحيي القلوب بنور الحكمة، كما يُحيي الله الأرض الميتة بوابل السماء». (الموطّأ، للإمام مالك بن أنس: ج٢ ص١٠٠٢ ح١، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، بيروت؛ الدرّ المنثور، مصدر سابق: ج٥ ص١٦٥؛ تفسير القمّي، مصدر سابق: ج٢ ص١٦٣؛ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مصدر سابق: ج١ ص٢٠٤ ح٢٢).

نقف عند ذلك تفصيلاً في الحلقة القادمة من هذه السلسلة الأخلاقيّة.

ثانياً: الثقة بالله تعالى، فإنّه مَن تقدّم له شبراً تقدّم الله له ذراعاً، وهذه الثقة سوف تقف دعامةً وقوّةً مانعةً من السقوط في دائرة التراجع والإحباط، فكلّما تهبط به المواجهة وتقرّبه من التراجع، تنتشله الثقة بالله تعالى وتعيد له همّته ورغبته بالتواصل والانتصار.

ثالثاً: رؤية التغيير الظاهر على أقولنا وأفعالنا، وطبيعة علاقاتنا مع الله تعالى ومع الناس، فإنّ هذا التغيير الملحوظ سوف يرفع من المعنويّات كثيراً، حيث يقارن المصلح لنفسه والساعي في القضاء على مفاسد الأخلاق، كيف أنّه صارت لديه أوقاتٌ خاصّةٌ للّقاء بالله، في الصلوات المفروضة وفي المناجاة، بعد ما كانت تضيع أوقاته الثمينة هدراً، وكيف أنّه صارت لديه صحبةٌ من الأخيار والأتقياء والمتفقّهين في الدين، بعد ما كانت صحبة الأشرار ورفقة السوء تعصف به وبأيّامه ولياليه.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ٩٠)، هذه الآية تأمرنا بثلاث خصالٍ، وتنهانا عن ثلاثٍ، وكلّ مفاسد الأخلاق تدخل في الفحشاء والمنكر والبغي، كما أنّ محاسن الأخلاق تدخل في العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، فتكون الآية آمرةً بمحاسن الأخلاق، وناهيةً عن مفاسد الأخلاق.
- قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**ثلاث خصالٍ من كُنّ فيه أو واحدةٌ منهنّ، كان في ظلّ عرش الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: رجلٌ أعطى الناس من**

نفسه ما هو سائلهم، ورجلٌ لم يقدّم رِجْلاً ولم يؤخّر رِجْلاً حتّى يعلم أنّ ذلك لله رضىً، ورجلٌ لم يُعِب أخاه المسلم بعيبٍ حتّى ينفي ذلك العيب عن نفسه، فإنّه لا ينفي منها عيباً إلّا بدا له عيبٌ، وكفى بالمرء شغلاً بنفسه عن الناس»[1].

خلاصة الدرس

- الأخلاق الفاسدة كثيرةٌ، وخطورتها أبعد من مردودها السلبيّ المباشر.
- هنالك أخلاقٌ فاسدةٌ هي حاضنةٌ لظهور ونموِّ أخلاقٍ بذيئةٍ أخرى.
- لمفاسد الأخلاق ثلاثة آثارٍ خطيرةٌ: أثرها السلبيّ المباشر، ومطاردتها للأخلاق الكريمة، وتشكيلها لحواضن تحلّ فيها مفاسد أخلاقٍ جديدة.
- هنالك أربع مراتب طوليّةٌ للأخلاق، هي: مرتبة الحال؛ ومرتبة الملكة غير المستعصية؛ ومرتبة الملكة المستعصية؛ ومرتبة المقام المستحكم.
- الحال يزول بزوال المؤثّر فيه، والملكة غير المستعصية تحتاج إلى عملٍ دؤوبٍ للتحرّر منها، والمستعصية تحتاج إلى صدمةٍ، والمقام لا علاج له إلّا بعناية خاصّة.
- في مرتبة المقام يحصل الطبع والختم، ولا تبقى من الإنسان إلّا صورته.
- يمكن تقريب المراحل الأربع، بمثال الفحمة السوداء الموضوعة على النار، فبحسب طبيعة التغيير فيها تكون المرتبة.
- المراتب الأربع ليست مخصوصةً بمفاسد الأخلاق، وإنّما هي صادقةٌ على محاسن الأخلاق أيضاً، ففيها حالٌ وملكةٌ بقسميها ومقامٌ.
- أبشع مفاسد الأخلاق هي: الكذب والنفاق والنميمة والعُجب والرياء

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٤٧ ح١٦.

والحسد والكِبر والغيبة والبهتان، بل هي عيونُ وأمّهاتُ المفاسد.

- الكذب يكمن شرّه الأكبر في استبطانه للشرك بالله تعالى، وربّما كفراً.
- النفاق لا يكون نفاقاً إلّا إذا كان المخفيّ هو السيّئ، والمعلن هو الحسن.
- ما يسمّى بالنفاق الاجتماعيّ أكثره حاصلٌ من باب المداراة والمجاملة، ولا يسع الإنسان المؤمن إلّا أن يكون من أهل المداراة والمجاملة، شرط أن لا يُفضي ذلك إلى زوال الحقّ وإظهار الباطل.
- النمّام شرّ الناس وأخبثهم، فهو لا ينفكّ عن الكذب والرياء، والغيبة والبهتان، والغدر والخيانة.
- المُعجَب بنفسه وعمله قد يداهمه شعورٌ بالتفوّق وعجز الآخرين عن أداء مثل عمله، فينقلب عُجبه إلى تكبّرٍ وعجرفةٍ.
- الرياء صنو العُجب، وفيه معنىً منه، ولكن في الطرف الآخر؛ لأنّه يريد من الآخرين أن يُعجبوا به، ويتحدّثوا عنه.
- الحسد تمنّي زوال النعم عن الشخص المحسود، فإن تمنيّت مثلها ولم تُرِد زوالها عن صاحبها فهي الغبطة، والمؤمن يغبط ولا يحسد.
- تمنّي زوال النعمة من دون مكسبٍ واقعيٍّ للحاسد، دليلٌ على خسّة الحاسد وسوء باطنه وانعدام بصيرته.
- الكذب أسوأ الرذائل وأخبثها؛ فهو بوّابة كلّ شرٍّ، بل ما من موبقةٍ إلّا وللكذب فيها سهمٌ.
- الكِبَر هو المنّاع من كلّ خير، وهو السبب الأكبر في عدم استجابة كبراء قريشٍ لدعوة الحقّ.
- التوجّه لأهواء النفس لإشباعها، كالشرب من ماء البحر لا يزيدنا إلّا عطشاً.

- هنالك علاجاتٌ مشتركةٌ لجميع مفاسد الأخلاق.
- رفقة السوء أسوأ من الذنب نفسه، فالذنب قد تتوب عنه، ولكن رفقة السوء هم السبب الحقيقيّ الكامن وراء العود للذنب والاستغراق فيه.
- ربّ حسنةٍ تمحق نصف ما اقترف الإنسان من ذنوبٍ، وربّ حسنةٍ تحوّل السيّئات إلى حسناتٍ، كالصلاة الخاشعة، وهذا هو الفضل العظيم.
- التخلّص من أسباب المرض هو نصف العلاج، وقد يكون هو العلاج كلّه.
- أهمّ الأُمور المُعينة على الخلاص من المفاسد: الالتزام بمقامات المرابطة الأربعة؛ والتفقّه في الدين؛ والتواجد في المساجد والأماكن المقدّسة.
- أهمّ عوامل الثبات في طريق الخلاص من المفاسد: الصدق في نيّة الإصلاح؛ والصدق في القول والعمل؛ والثقة بالله؛ ورؤية التغيير الظاهر علينا.

مذاكرة

- ماذا يعني أن تكون بعض الأخلاق الفاسدة حاضنةً لظهور ونموّ غيرها؟
- ما هي الآثار الثلاثة لمفاسد الأخلاق؟
- ما هي المراتب الأربع الطوليّة للأخلاق؟ مثّل لها.
- ما هو الفرق بين الملكة غير المستعصية والملكة المستعصية؟
- ماذا نعني بالطبع والختم على القلب، وفي أيّ مرتبةٍ تكون؟
- هل المراتب الطوليّة الأربع مخصوصةٌ بمفاسد الأخلاق؟ وضّح ذلك؟
- ما هي أبشع مفاسد الأخلاق؟ ولماذا هي كذلك؟
- أين يكمن الشرّ الأكبر في الكذب؟
- متى يكون النفاق نفاقاً واقعيّاً؟ ومتى ينقلب العُجب إلى كِبَر؟
- ما صلة النفاق الاجتماعيّ بالنفاق الواقعيّ؟ وما صلة ذلك بالمجاملة؟

- لماذا النمّام هو شرّ الناس وأخبثهم، والكذب هو أسوأ الرذائل وأخبثها؟
- ما هو الفرق بين الحسد والغبطة؟ وبأيّ شيءٍ يتّصف المؤمن؟
- عن أيّ شيءٍ يكشف تمنّي زوال النعمة من الآخرين؟
- ما هو القيد الذي به يفترق العُجب عن الكِبَر؟
- ما هي العلاجات المشتركة لجميع مفاسد الأخلاق؟
- لماذا لا يطيب لأصدقاء السوء إصلاح نفس واحدٍ منهم؟
- كيف تفهم أنّ رفقة السوء هي أسوأ من الذنب نفسه؟
- ما هي أهمّ الأُمور المُعينة على مواصلة الخلاص من مفاسد الأخلاق؟
- ما هي أهمّ عوامل الثبات في طريق التخلّص من مفاسد الأخلاق؟

الدرس الرابع عشر

التخلّص من مكائد الشيطان

- أهداف الدرس
- تمهيد
- أهمّ ملامح وصفات الشيطان
- الشرّ هو التوقّع الحتمي من الشيطان
- سرّ حتميّة المواجهة مع الشيطان
- كيفيّة النجاة من عدوٍّ غير مرئيّ
- النفس الأمّارة بالسوء هي ألعوبة الشيطان
- معنى الفتنة والتزيين الشيطانيّ
- الإيمان واليقين سلاحان قاطعان لحبائل الشيطان
- معنى إماتة الشيطان في أنفسنا
- ملامح المواجهة مع الشيطان وظروف الانتصار عليه
- سُبل التخلّص من مكائد الشيطان الرجيم
- الانقياد للشيطان سبب واقعيّ للاستغراق في الغفلة
- سبيل التخلّص من هوى النفس الأمّارة بالسوء ووسوستها
- دور الاقتداء بالقرآن والمعصومين عليهم السلام في مواصلة الطريق
- كلمات على الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان أهمّ ملامح الشيطان.
- بيان كون الشرّ هو التوقّع الحتميّ من الشيطان.
- بيان سرّ حتميّة المواجهة مع الشيطان.
- بيان كيفيّة النجاة من عدوٍّ غير مرئيٍّ.
- تصوير معنى كون النفس الأمّارة بالسوء هي ألعوبة الشيطان.
- إثبات كون الإيمان واليقين سلاحين قاطعين لحبائل الشيطان.
- بيان معنى إماتة الشيطان في أنفسنا، وملامح المواجهة معه.
- بيان سُبل التخلّص من مكائد الشيطان، والتخلّي من هوى النفس.
- إثبات كون الانقياد للشيطان سبباً واقعيّاً للاستغراق في الغفلة.
- بيان دور الاقتداء بالقرآن والمعصومين عليهم السلام في مواصلة الطريق.

تمهيد

هنالك عدوّان رئيسيّان للإنسان، هما: النفس والشيطان، وجميع مفاسد الأخلاق، بلا استثناءٍ، هي حبال النفس والشيطان معاً، ونحن لا نستطيع اتّخاذ أنفسنا عدوّاً؛ لأنّها أنفسنا التي بين جنبينا، وإنّما علينا إصلاحها، بخلاف الشيطان فعلينا أن نتّخذه عدوّاً لا تسامح معه أبداً، فهو شرٌّ مطلقٌ، ولا يصدر منه خيرٌ مقصودٌ منه البتّة، وهو المترّبص بنا، وقد أُمرنا باتّخاذه عدوّاً؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ (فاطر: ٦)، وقد مرّ علينا في معظم الدروس الآنفة كيفيّة مواجهة النفس، وكيفيّة التعاطي مع شرورها، وكيفيّة العمل

على إصلاحها، وأمّا في هذا الدرس ـ ما قبل الأخير ـ فسوف نتحدّث عن المواجهة الثانية، والخطيرة أيضاً، وهي مواجهتنا مع الشيطان المسمّى بإبليس، الذي أبى السجود لآدم حسداً وحنقاً عليه، وهو يريد أن يمنعنا من السجود لله تعالى.

أهمّ ملامح وصفات الشيطان

للشيطان الغويّ اللعين عشرات الملامح والصفات، سنذكر الأهمّ منها، وهي:

أوّلاً: الكِبَر والاستكبار، وكان هذا هو السبب الأوّل في امتناعه عن إطاعة الأمر الإلهيّ بالسجود لآدم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة: ٣٤)، والسبب الثاني هو الحسد، فهو قد تكّبر عن السجود لآدم عليه السلام، ومخالفة الأمر الإلهيّ، حسداً منه لآدم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ (الأعراف: ١٢).

ثانياً: الغواية والغرور؛ قال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (الحجر: ٣٩)، فهو الغاوي الكبير، والغيّ: هو الضلال والخيبة[1]، والغواية هي: الانهماك في الجهل، ويقع في قبالها الرشد، والشيطان يريد من الإنسان أن ينهمك في جهالاته ليفقد رشده، ويكون من الغاوين؛ قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ (الأعراف: ١٧٥)، وأمّا كونه غَروراً؛ فما جاء

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة، مصدر سابق: ج٦ ص٢٤٥٠.

في قوله تعالى: ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان: ٣٣)، أي: لا يغرّنكم الشيطان، والغرور من التغرير، وهو نوع خداعٍ ومكرٍ وإطماعٍ بمتاع الدنيا، وبالباطل[١].

ثالثاً: العداوة الشديدة للإنسان، وسعيه الحثيث ليكون الإنسان في السعير، وهذا ما كشف عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: ٦)، وعداوته واضحةٌ صريحةٌ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾ (الإسراء: ٥٣).

رابعاً: الخداع والمكر والتدرّج في التضليل، ولذلك ورد النهي عن اتّباع خطواته؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة: ١٦٨).

خامساً: البخل والتبخيل، ولذلك فهو يعد المتصدّقين بالفقر، فيحاول زلزلتهم عن العطاء، في حين أنّ الله تعالى يعد بنموّ مال المتصدّق؛ قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

سادساً: الإبلاس واليأس من رحمة الله، فهو من القانطين، فيكون دوره زراعة هذا الإبلاس واليأس والحيرة في قلوب المؤمنين، ومن هذه الصفة اشتقّ اسمه العلم (إبليس)؛ قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ﴾ (ص: ٧٥)، فهو اليائس من رحمة الله، الحزين على ما أصابه[٢]، والتلبيس هو إظهار الباطل

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة، مصدر سابق: ج٢ س ٧٦٨؛ لسان العرب، مصدر سابق: ج٥ ص١١، باب (غرر).

(٢) انظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي: ج٧ ص٢٦٢، انتشارات هجرت،

في صورة الحقّ، وهذه هي صفة إبليس[1]، فيلبّس على الإنسان في نواياه ومقاصده، فهو عنصر كلّ شكٍّ في داخل الإنسان، ولذلك فالتشكيك والتلبيس صنعته.

سابعاً: الوسوسة والنزغ؛ قال تعالى: ﴿**مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾ (الناس: ٤ـ٥)، والوسوسة هي الصوت الخفيّ، تجده في كلماته وخواطره من دون سماع صوته، فإذا استعذت بالله تعالى خنس وسكت، إذ لا يصمد أمام الاستعاذة بالله والتهليل والتسبيح والحمد والشكر.

وقد بيّن القرآن الكريم: أنّ الشيطان هو الذي وسوس لأبينا آدم عليه السلام من قبل؛ قال تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾ (الأعراف:٢٠)، فكانت العقوبة خروج آدم عليه السلام من الجنّة، وأمّا في نزغه بالشرّ والشكّ، فكما في قوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأعراف: ٢٠٠)، وهو الذي نزغ لإخوة يوسف عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿**...أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي...**﴾ (يوسف: ١٠٠)، فأغراهم بقتله وإلقائه في البئر.

ثامناً: الكذب ومخالفة الوعد، وزرع الأماني الكاذبة؛ قال تعالى: ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلّا غُرُوراً**﴾ (النساء: ١٢٠)، فهو يعد أتباعه

١٤١٠هـ، الطبعة الثانية، قم المقدّسة؛ الصحاح تاج اللغة، مصدر سابق: ج٣ ص٩٠٩؛ لسان العرب، مصدر سابق: ج٦ ص٢٩.

(١) انظر: تلبيس إبليس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزي: ص٥٠، تحقيق: الدكتور السيّد الجميلي، نشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، بيروت.

بالوعود الكاذبة، ويغريهم بالأماني الباطلة والخادعة، فيجعلهم يسرحون ويمرحون في خيالاتٍ باطلةٍ، ولا يقبضون منه إلّا ما يقبضه الظامئ من السراب.

تاسعاً: صاحب البضاعة الفاسدة، وهي الأماني الضالّة، والأماني كما ورد في خبرٍ: هي بضاعة الأحمق، فمَن يشتري الأماني من سوق الشيطان غير الحمقى؟!

وغير ذلك من الصفات الخبيثة والخسيسة التي يتمتّع بها الشيطان على نحو المقام الذي لا يزول عنه، كالشيطنة والنفاق وقول الزور ونشر الفتنة والعداوة والبغضاء بين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ (المائدة: ٩١).

وكفاه شرّاً وانحطاطاً أنّه أظهر الإيمان والتوحيد في السجود لله تعالى وحده وأخفى الكفر والعصيان، لترك معادلةٍ مغلوطةٍ أوقعت بعض المسلمين في خطأٍ فاحشٍ، في قبال المعادلة الإلهيّة العظيمة، وهي أنّ الله تعالى إنّما يُعبد من حيث هو يريد لا من حيث نحن نريد، فجاء الشيطان واخترع له عبادةً من حيث هو يريد، فكانت عبادته شركاً وكفراً، أمّا الشرك فإنّه أطاع نفسه في قبال طاعة الله تعالى، وأمّا الكفر أنّه خالف أمر الله تعالى في السجود لآدم عليه السلام، وهنالك في المسلمين مَن يريد خداع الناس بهذا النوع من التفرّد في العبادة، دفاعاً عن التوحيد، ولم يلتفتوا إلى أنّ دعوة الشيطان كانت قائمةً على فكرة الدفاع عن التوحيد برفضهم السجود لغير الله تعالى. ونظراً لكون هذا الموضوع له بعدٌ عقائديٌّ واضحٌ ودقيقٌ فنُرجئه إلى محلّه.

الشرّ هو التوقّع الحتمي من الشيطان

ممّا تقدّم اتّضح أنّ الشيطان هو العدوّ الخارجيّ الأوّل للإنسان، وأنّ دوره وعمله وديدنه في الحياة هو العمل على غواية الإنسان وإضلاله، فلا يدّخر وسعاً في ذلك، هو وجنوده من أبالسة الجنّ والإنس، ولذلك فمن الحمق والجنون أن نتوقّع منه خيراً ما، بل من الحمق والجنون أن نتوقّع منه الكفّ عن الشرّ والغواية، فالشرّ والغواية هي أكثر من العرض الذاتيّ له، بل هي بدرجة الفقريّة الذاتيّة لكلّ الممكنات، فهو فقيرٌ في ذاته وشرٌّ وغويٌّ في ذاته، لا بمعنى أنّه خُلِق كذلك، وإنّما نتيجة اندكاكه بالشرّ صار هو الشرّ بعينه.

ولذلك فمن المنطقيّ أنّنا عندما نريد العمل على إصلاح أنفسنا سنجد الشيطان على أبوابنا، يتصيّد الفرصة للإيقاع بنا، وهو لا يستثني أحداً؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: ٨٢)، حتّى أنّه كان يطمع في غواية الأنبياء عليهم السلام؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحجّ: ٥٢)، ولكنّه عاجزٌ عن ذلك؛ فالأنبياء مخلَصون؛ قال تعالى: ﴿إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٣)، بل ما دام العبد عبداً حقيقيّاً لله تعالى فلا سلطة للشيطان عليه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٢).

سرّ حتميّة المواجهة مع الشيطان

إنّ هنالك صراعاً تاريخيّاً واقعاً في الأرض، كان طرفاه الإنسان والشيطان، حيث كان الشيطان يطمع بمنصب الخلافة الإلهيّة، ولمّا أمره الله تعالى بالسجود فأبى واستكبر ـ كما مرّ ـ فإنّه لقي نصيبه الذي يستحقّه في الدنيا، وهو أنّه رجيمٌ،

أي: المطرود من الجنّة ومن كلّ خيرٍ؛ قال تعالى: ﴿**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**﴾ (الحجر: ٣٤)، ومن هنا انطلقت شرارة العداوة الشيطانيّة للإنسان، فصار يتقصّد آدم عليه السلام وذرّيته، واستطاع أن يغوي قابيل ـ وهو أوّل مولودٍ على الأرض من آدم وحواء عليهما السلام ـ فأوحى له بقتل أخيه هابيل. وحيث إنّ الغواية والشرّ هما بطانة إبليس، وإنّ الهداية والخير هما بطانة الإنسان، فإنّ الصراع التاريخيّ سيبقى قائماً، قيام الصراع بين الهداية والضلالة، وبين الخير والشرّ، وبين العـلم والجـهل، وبين النور والظُّلمة، وهكذا.

فهنالك جبهةٌ تاريخيّةٌ يقف في خندقيها الإنسان وإبليس، فمَن أغواه الشيطان وسلبه نور فطرته صار من جنوده، ومَن لم يتمكّن الشيطان منه، فإنّه لن يكفّ عنه أبداً حتّى في ساعة احتضاره؛ حيث يطمع بإزالة الإيمان من قلب الإنسان قبل وفاته! ولذلك لا فرار لنا من هذه المواجهة الحتميّة، ولابدّ لنا أن ننتصر في هذه المعركة المصيريّة، وإلّا صرنا من جنوده والعياذ بالله تعالى.

كيفيّة النجاة من عدوٍّ غير مرئيّ

وهنا مكمن الخطورة العظيمة، فنحن في مواجهةٍ مستمرّةٍ مع الشيطان، ولكنّها مواجهةٌ مع عدوٍّ غير مرئيٍّ؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ**﴾ (الأعراف: ٢٧)، فهو يأتينا عن طريق المال، وعن طريق الأهل والأخوان، وعن طريق الزوجة والولد، فهو لا يترك طريقاً إلّا وسلكه، فكيف النجاة منه؟ ونحن مرئيّون له وهو غائبٌ عنّا؟

الجواب واضحٌ، وهو: أنّ الله تعالى قد عرّفنا الحقّ والباطل، والهداية والضلالة، والخير والشرّ؛ قال تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ (البلد: ١٠)، أي: بيّنّا له سبيلَي الخير والشرّ معاً، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا**

كَفُوراً﴾ (الإنسان: ٣)، وأرسل الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ونصّب الأئمّة عليهم السلام، ومنحنا عقلاً راجحاً، وعرّفنا بهويّة الشيطان وعظيم عداوته لنا، وبيّن لنا مداخل الشيطان، وأنّه يستغلّ نقطة الضعف فينا وهي النفس الأمّارة بالسوء، وبيّن لنا أنّ تهذيب النفس وتطهيرها هو الطريق السويّ لمواجهة الشيطان، وأنّ إيمان المؤمن أعظم وأقوى من كيد الشيطان، وأمرنا بمقاتلته؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ (النساء: ٧٦)، وفوق ذلك كلّه بيّن الله تعالى بأنّه ـ وهو مالك الملك ولا يعزب عن ملكه شيءٌ ـ بأنّه وليّ المؤمن ودعامة المؤمن؛ قال تعالى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، وأنّه هو المدافع عن المؤمن وناصره؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحجّ: ٣٨)، وغير ذلك من مواطن القوّة التي في جانب المؤمن، ومواطن الضعف في جانب الشيطان وجنوده، فلا خشية حقيقيّة مع الإيمان والعمل الصالح وإدامة تهذيب النفس، إنّما الخشية كلّ الخشية في الغفلة عن الله تعالى والعمل الصالح، وستأتي بعض التوضيحات لذلك.

النفس الأمّارة بالسوء هي أُلعوبة الشيطان

كما قدّمنا بأنّ هنالك عدوّين للإنسان، الأوّل داخليٌّ، وهو النفس الأمّارة بالسوء، والثاني هو الشيطان، ولولا النفس لما استطاع الشيطان أن يخدع الكثير من الناس، ويجعلهم أُلعوبة، ولذلك فالنفس الأمّارة بالسوء هي الحاضنة الحقيقيّة لوسوسة الشيطان، فإذا أردنا أن نغلق الأبواب نهائيّاً بوجه الشيطان فعلينا بالنفس، ومنعها من ارتداء ثوب الأمّارة بالسوء، والعمل دائماً على

الاستجابة للنفس اللوّامة، والسعي الحثيث لتحكيم النفس المطمئنّة.

إنّ من الحقائق الصارخة والمزعجة: أنّ الشيطان لم يمت ولا يموت إلى يوم القيامة أو الوقت المعلوم؛ قال تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤ـ١٥)، وفي موضع آخر:﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (الحجر: ٣٦ـ٣٨)، وقد وقع خلافٌ في كون الوقت المعلوم هو يوم القيامة أم هو يوم قيام القائم من آل محمّد صلوات الله عليهم، فيلقى حتفه، أو يجمد كيده، فيفقد سلطانه؟ وعلى الاحتمالين معاً، فلا القيامة قامت ولا الإمام المهديّ عليه السلام قد ظهر، وبالتالي فنحن واقعون تحت مراصد الشيطان والنفس الأمّارة، وهنا يكمن سرّ دوام الجهاد الأكبر، لاسيّما وأنّ الغويّ اللعين قد توعّدنا؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦)، ولم يكن وعيده فارغاً، فإنّه له مكنةٌ؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧)، ولكن كما قلنا بأنّ كيده ضعيفٌ، وأنّه يخشى أمرين، هما الإيمان والعمل الصالح، ومنه نفهم سرّ التأكيدات القرآنيّة على التذكير بهذه الثنائيّة المباركة ـ الإيمان والعمل الصالح ـ فبذلك نكبح جماح النفس، ونغلق الأبواب بوجه الشيطان.

معنى الفتنة والتزيين الشيطانيّ

للفتنة معانٍ كثيرةٌ، وقد تعرّض القرآن الكريم لكثيرٍ منها، فقد تكون بمعنى الاختبار والامتحان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥)، أي: الاختبار والابتلاء، وقد

أطلق القرآن عنوان الفتنة على الأموال والأولاد، بمعنى الاختبار والابتلاء؛ قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٢٨)، وقد تكون الفتنة بمعنى الكفر والشرك والنفاق؛ قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾ (الأنفال: ٣٩)، ومعانٍ أخرى يطول المقام بذكرها.

ومن المعاني الواضحة والصريحة للفتنة: مكر الشيطان وخداعه وإلقاؤه العداوة والبغضاء، أي: إنّ الفتنة هي كلّ ما جاء في صفات الشيطان، وخلاصة المحنة والابتلاء لنا، ففتنة الشيطان في أمّة الإنسان هي عين المحنة والابتلاء لهم؛ قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (الحجّ: ٥٣)، ونحن لسنا بمأمنٍ من فتنة الشيطان والوقوع في المحنة والامتحان والابتلاء، فما دمنا في الحياة الدنيا فنحن في محنةٍ وابتلاءٍ، فمنّا مَن يخرج منتصراً، ومنّا مَن يخرج خائباً.

وأمّا التزيين فهو التحسين والتجميل، فيُزيّن الشيطان للإنسان الفواحش والسوء، فيجعل من الخمر النجس عيناً، والكريه في رائحته، والخبيث في مفعوله، يجعله جميلاً لذيذاً في نظر الإنسان الضعيف، ويجعل الفحشاء ـ الزنا ـ في منتهى اللذّة لضعاف النفوس، ويُخفي عنهم قبح ذلك، ولو اطّلعوا على قبح الفاحشة لولّوا منها فراراً، ولكنّها كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحجّ: ٤٦)، والشيطان يزيّن الفواحش والسوء للقلوب الضعيفة والقاسية؛ قال تعالى: ﴿وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٤٣)، وما دمنا نرى الدينار جميلاً في أعيننا وعزيزاً في أنفسنا فنحن صرعى لتزيين الشيطان، وما دمنا نستسيغ المنكر، حتّى وإن لم نفعله، فنحن صرعى لتزيين الشيطان ومكره.

الإيمان واليقين سلاحان قاطعان لحبائل الشيطان

تقدّمت إشاراتٌ طيّبةٌ حول ثنائيّة الإيمان والعمل الصالح في مواجهة كيد الشيطان ووسوسته، وضعف النفس ووسوستها، وهنا نريد أن نذكر توضيحاتٍ أخرى تتعلّق بالبُعدين النظريّ والعمليّ.

أمّا البُعد النظريّ فنريد توطيده بالإيمان واليقين، وأمّا البُعد العمليّ فنريد توطيده بالتوبة والعمل الصالح، ففي هذه الثنائيّة (النظريّة والعمليّة) نشكّل جبهةً رصينةً، وحصناً منيعاً، لا يمكن للشيطان اختراقه، وإذا ما وقع اختراقٌ خطيرٌ منه لنا فعلينا مراجعة تلك الخطوط النظريّة والعمليّة في جبهتنا، وحيث إنّ المعصومين عليهم السلام شكّلوا جبهةً منيعةً غير قابلةٍ للخدش فإنّهم انتصروا على الشيطان في جميع معاركهم، وعلينا الاقتداء بهم في توطيد جبهة المواجهة، لاسيّما في البُعد النظريّ، فإنّ التوبة والعمل الصالح عظيمان جدّاً ولكنّهما سيذبلان سريعاً وينطفئ أثرهما إذا لم يسبقهما إيمانٌ متينٌ ويقينٌ قاطعٌ، ولذلك نركّز على الإيمان واليقين لأنّهما مفضيان للتوبة النصوح والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً**﴾ (التحريم: ٨)، ولذا أشدّ ما يكون على الشيطان هو الإيمان واليقين، فلا مجال لكفره في قبال إيماننا، ولا مجال لشكّه في قبال يقيننا.

معنى إماتة الشيطان في أنفسنا

قد يُفهم من قتل الشيطان في أنفسنا: القتل الفسلجيّ، وهذا غير ممكنٍ أبداً، وإنّما هو الإماتة بمعنى غلق باب الاستجابة، فنكون له بمثابة الميّتين، ويكون لنا بمثابة الميّت، وهذا المقام الرفيع لا يكون بالأماني، فالأماني هي

الأخرى ـ كما صحّ في القول ـ بضاعة الشيطان، وإنّما بتلك الثنائيّة المتقدّمة (النظريّة والعمليّة) بواقعيّتها المشتملة على الإيمان واليقين والتوبة والعمل الصالح، حيث سيموت صوت الشيطان فينا، ولن يجد أذناً صاغية، وإذا ما سمعناه فنحن على يقظةٍ والتفاتٍ كبيرٍ، وهنا ينبغي التحذير والتأكيد أنّ هذه الإماتة هي أشبة بإماتة الفيروس، فهو لا يموت حقيقةً، وإنّما يتوقّف نشاطه وتكاثره، فإنّه من الناحية العمليّة ميّتٌ، فإذا ما تهيّأت له الظروف والبيئة الحاضنة، فإنّه سرعان ما يستيقظ ويمارس نشاطه بقوّةٍ، وهكذا هو الشيطان، يتبع الفيروس اتّباع القُذّة بالقُذّة، وبالتالي فأيّ غفلةٍ منّا سوف يجد منها الشيطان منفذاً، للحصول على موطئ قدم، ولذلك ورد التنبيه والحثّ على الحرص على حسن العاقبة، وأنّ الأعمال بالخواتيم، وما نقرؤه في السيرة شاهدٌ عظيمٌ على أهميّة حسن العاقبة والخاتمة، فهنالك الكثير من المؤمنين المجاهدين الذين سقطوا في أوّل فتنةٍ وقعوا فيها، فاصطفّوا في خندق الطلقاء وقاتلوا أولياء الله، فلا عاقبة حسنى لهم، وإنّما العاقبة للمتّقين؛ قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (القصص: ٨٣).

ملامح المواجهة مع الشيطان وظروف الانتصار عليه

تقدّمت عدّة إشاراتٍ إلى أنّ جهاد النفس المسمّى روائيّاً بالجهاد الأكبر هو جهادٌ مستمرٌّ، ولا ينتهي إلّا حين مفارقة الإنسان للحياة، وأنّ إماتة الشيطان في النفس هو تعطيلٌ لأثره لا إماتةٌ لشخصه، وعليه فإنّ السجال مع الشيطان باقٍ لا ينقطع ما دمنا أحياءً، وحتى الذين طهّروا أنفسهم وزكّوها وصاروا من الأتقياء والصالحين، فإنّهم على خطرٍ ممّا هم فيه، فالإنسان كلّما

ازداد إيمانه وتقواه فإنّ الشيطان يطمع في إغوائه أكثر، وقد عرفنا بأنّ له مطمعاً في الأنبياء عليهم السلام فكيف بمَن سواهم؟

من هنا يمكن أن نسجّل أهمّ ملامح المواجهة مع الشيطان، وهي:

أوّلاً: استمرار المعركة من حيث الزمان والمكان، ففي كلّ وقتٍ وفي كلّ مكانٍ نحن في مواجهة الشيطان، نخوض معه معارك صغيرةً وكبيرةً، ننتصر في بعضها ونخفق في البعض الآخر، ففي كلّ طاعةٍ نحقّق انتصاراً، ونكسب جولةً، وفي كلّ معصيةٍ نخسر معركةً وجولةً.

ثانياً: اتّساع مساحة المعركة، في العلم والعمل، نظريّاً وعمليّاً، وغالباً ما يبدأ الصراع بفكرةٍ، وينتهي بواقعةٍ خارجيّةٍ، وما دمنا محافظين على إيماننا ويقيننا فنحن منتصرون، وما دمنا مديمين للتوبة والعمل الصالح فنحن غالبون.

ثالثاً: المعركة مع الشيطان في كرٍّ وفرٍّ، فلا يُحبط أحدنا إذا أخفق في معركةٍ معه، إذ عليه أن يعاجلها بالتوبة والتعويض الصحيح، كما لا ينبغي أن نغترّ بنصرٍ حقّقناه على الشيطان، فالغرور نفسه خسارةٌ لنا وانتصارٌ للشيطان.

رابعاً: لابدّ من محو جميع حواضن الشيطان في أنفسنا، والقضاء على أجندته، وهذه الحواضن هي الآثار الوضعيّة التي تركتها الذنوب السابقة، والتي تُبنا عنها ولكنّها لم تُمحَ من قلوبنا، والتوبة ـ كما عرفنا ـ لا تمحو آثار الذنوب، فإنّ هذه الآثار تحمل في بواطنها بذور وجذور تلك الذنوب، فهي من سنخها، فيأتي الشيطان ليزرع في نفس الإنسان ـ التائب المتزلزل في توبته ـ حنيناً لتلك الأيّام الخوالي، وقد كان البعض ممّن أظهر الإسلام والإيمان في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله يعصف به الحنين للماضي السحيق، ماضي الجاهليّة الجهلاء، ولذلك علينا الانتباه من أن يقودنا الشيطان من حيث لا نعلم فيجعل الواحد منّا منساقاً إلى ماضيه الملوّث بالمعصية، وكلّما عاجلنا بمحو تلك الآثار الوضعيّة

من قلوبنا فإنّنا نكون قد قضينا على تلك الحواضن والقلاع المخيفة.

خامساً: إنّ هذه المعركة الطويلة الضروس لا يمكن أن نحقّق فيها انتصارنا الأخير من دون الرجوع لله تعالى والتوسّل به، فهذا هو إكسير الانتصار.

سُبل التخلّص من مكائد الشيطان الرجيم

نقتصر على جملةٍ من أساليب التخلّص من مكائد الشيطان، منها:

الأوّل: أسلوب المخالفة السريعة لإغراءاته وإغواءته.

الثاني: أسلوب المعاجلة في أداء الواجبات في أوقاتها، والإكثار من أعمال البرّ، وقد صحّ ما قيل: خير البرّ عاجله، وإنّ العمل الصالح في أوّل وقته كالجزور، وفي آخره كالعصفور؛ ولذا فالتماهل في أداء الواجبات، والتواكل في عمل البرّ سيكون طريقاً لإفراغها من محتواها وتأثيرها، وهذا من كيد الشيطان.

الثالث: أسلوب المراقبة والمحاسبة، وهما من مواطن المرابطة، كما تقدّم.

الرابع: أسلوب المشورة والاستعانة بأهل العلم وعلماء الأخلاق لأخذ النصيحة منهم، فكلّ حالةٍ لها علاجها الخاصّ بها.

الخامس: التمسّك بالقرآن، تلاوةً وحفظاً وفهماً وعملاً، وبالسنّة الشريفة، فهما المنجى من كلّ هلاكٍ، والمنقذ من كلّ ضلالٍ[١].

الانقياد للشيطان سبب واقعيّ للاستغراق في الغفلة

لا ريب أنّ من أعظم أسباب الغفلة عن الله تعالى: الانقياد للشيطان، والانصياع لأهواء النفس الأمّارة بالسوء، وهنا تقع المفارقة الكبرى، وهي

(١) المراد من السنّة الشريفة هو قول وفعل وإمضاء المعصومين الأربعة عشر، وهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليّ وفاطمة الزهراء والسبطان الحسن والحسين والتسعة المعصومون من ذرّية الحسين صلوات الله عليهم أجمعين.

أنّ الإنسان يتّخذ من عدوّه اللدود صديقاً حميماً!!

فلو فتّشنا في الطاعة الإراديّة فإنّها في الغالب لا تكون إلّا لَمن نحبّ، وهذا الحبّ قد لا يكون للشخص وإنّما لأفعاله وإراداته، وهذا ما يفعله الإنسان المنصاع لوسوسة الشيطان ولأهواء نفسه، فإنّه بذلك يكون مطيعاً وعبداً وضيعاً للشيطان ولنفسه الأمّارة بالسوء، سواءٌ علم بذلك أم جهل، مع أنّ المطلوب منه هو أن يتّخذه عدوّاً، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾ (فاطر: ٦)، ولعلّ هذه الطاعة العمياء للشيطان، والغفلة المطبقة عن استغفاله، هي التي جعلت الإمام جعفر الصادق عليه السلام يسأل ويتعجّب من ذلك، حيث يقول: «**وإن كان الشيطان عدوّاً فالغفلة لماذا؟**»[1].

سبيل التخلّص من هوى النفس الأمّارة بالسوء ووسوستها

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦)، فالنفس لها وسوسةٌ كما للشيطان وسوسةٌ، وهذه النفس الأمّارة إنّما تأمر بالسوء لجهلها بالعواقب، ولجهلها بما عند الله تعالى، وهنا يدخل العقل والفهم والتدبّر، ليوجد القناعة في نفسه من أنّ ما تبتغيه النفس من متعٍ وملذّاتٍ إنّما هو انتحارٌ حقيقيٌّ، فهي متعٌ ممزوجةٌ بالألم وعدم الاستقرار النفسيّ، حتّى للمدمن عليها، وأنّ هنالك ما ينتظرها من العقاب الشديد على ارتكاب الموبقات، فيعالِج نفسه بالترهيب لها ممّا ظنّته حسناً وممتعاً، ثمّ يُفهمها بأنّ هنالك مُتعاً في الحياة الدنيا، شرعيّةً ومباحةً، فحبّ النساء ـ على سبيل المثال ـ يعالَج بالزواج الشرعيّ، ثمّ

---

(١) مَن لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج٤ ص٣٩٣ ح٥٨٣٦؛ الأمالي، للشيخ الصدوق، مصدر سابق: ص٥٦ ح٥؛ توحيد الصدوق، مصدر سابق: ص٣٧٦ ح٢١.

يرغّبها بما عند الله من نعيمٍ ورضوانٍ للصابرين في الدنيا، والنفس ما لم ترتدع وتُبصّر بالعوض الشرعيّ وتبشّر بنعيم الآخرة، فإنّها لا تستجيب بسهولةٍ، على أنّ التقوى تغني عن كلّ متعةٍ لَمن أبصر حقيقتها، وأسدّ طريق لوقاية النفس من الكيد والأهواء هو لزوم التقوى، فهي خير اللباس وخير الزاد؛ قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٧)، وقد كان أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام يقول: «**وإنّما هي نفسي أروضها بالتقوى؛ لتأتي آمنةً يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق**»[١].

دور الاقتداء بالقرآن والمعصومين عليهم السلام في مواصلة الطريق

وهذا ما سجّلناه في النقطة الخامسة من بحث (سُبل التخلّص من مكائد الشيطان الرجيم)، فإنّه السبيل الأصيل الذي لا غطش فيه، والضمانة الحقيقيّة من الضلال والإضلال، كما هو صريح حديث الثقلين الذي نتيجته هي: ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً.

إنّ الحاجة للقرآن وللمعصومين عليهم السلام في رحلة تهذيب النفس وتطهيرها قد تكون لها بدايةٌ، وهي حين الرجوع لله تعالى بالتوبة النصوح، ولكنّها لا تتوقّف حتّى سكرات الموت، وبالتالي دورهم أساسيٌّ في تهذيب أنفسنا، وإذا ما أردنا ـ والعياذ بالله تعالى ـ الاستغناء عنهم عليهم السلام فإنّنا سنفقد تلك الضمانة، ومهما كانت لنا من إرادةٍ متينةٍ، وعلمٍ وافرٍ، وصدقٍ في النيّة، فإنّ السور الحصين وصمّام الأمان سيبقى مفقوداً، وبعبارةٍ أخرى: سنصبح في مهبّ الريح في كلّ آنٍ.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص٧١، الخطبة رقم (٤٥).

وعليه فدور القرآن والمعصومين عليهم السلام في تهذيب أنفسنا من جميع الموبقات، ليس دوراً ثانويّاً، ولا دوراً تكميليّاً، وإنّما هو دورٌ أساسيٌّ، وإذا جاز لنا التعبير نقول: إنّ دورهم هو متن رحلة التهذيب وليس هامشاً عليه.

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٧)، أي: لا يفتنكم الشيطان فيخرجكم من الجنّة الموعودة للمؤمنين، كما أخرج أبوينا (آدم وحوّاء عليهما السلام) من الجنّة، ولم تجدِ مكانتهما عن النزول والهبوط من الجنّة إلى الكدح والأذى والفتنة، فقد خلقنا الله تعالى وجعل موعدنا الجنّة، فلا نخلف المواعدة معه، فالمخالفة هي هدف الشيطان.
- قيل للإمام الصادق عليه السلام: قومٌ يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو، فلا يزالون كذلك حتّى يأتيهم الموت، فقال: «**هؤلاء قومٌ يترجّحون في الأماني، كذبوا، ليسوا براجين، إنّ مَن رجا شيئاً طلبه، ومَن خاف من شيءٍ هرب منه**»[(١)]، الترجّي هو الميل، بمعنى أنّهم قد مالت بهم أمانيّهم الكذّابة عن الاستقامة.

خلاصة الدرس

- عدوّان رئيسيّان للإنسان، هما: النفس والشيطان، وجميع مفاسد الأخلاق بلا استثناءٍ، هي حبال النفس والشيطان معاً.
- ليس منطقيّاً اتّخاذ أنفسنا عدوّاً، لأنّها أنفسنا، وإنّما علينا إصلاحها،

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٦٨ ح٥؛ تحف العقول، مصدر سابق: ص٣٦٢.

بخلاف الشيطان فهو العدوّ ولا تسامح معه البتّة.

- من صفات الشيطان: الكِبر والغواية وعداوة الإنسان، والخداع والإبلاس والشيطنة، والنفاق والوسوسة والكذب، وبضاعته هي الأماني الضالّة.
- الكِبر سببٌ أوّل في امتناع الشيطان عن إطاعة أمر الله بالسجود لآدم.
- الإبلاس يأسٌ من رحمة الله، وهو حقيقة الشيطان ومصيره المحتوم.
- الوسوسة صوتٌ خفيٌّ، يبثّه الشيطان في نفوسنا فيستجيب له الهوى، ومواجهته الأولى والسريعة بالاستعاذة بالله تعالى.
- كفى الشيطان شرّاً وانحطاطاً أنّه أظهر الإيمان والتوحيد في عدم السجود إلّا لله وحده، وأخفى الكفر والعصيان.
- ترك الشيطان معادلةٌ مغلوطةٌ أوقعت البعض في خطأٍ فاحشٍ، وهي أن يعبدوا الله من حيث يريدون، في قبال أنّ الله يعبد من حيث هو يريد.
- الشرّ هو التوقّع الحتميّ من الشيطان، فلا يمكن أن يصدر خيرٌ منه.
- من المنطقيّ عندما نريد إصلاح أنفسنا أن نجد الشيطان على أبوابنا.
- هنالك صراعٌ تاريخيٌّ واقع في الأرض، كان طرفاه الإنسان والشيطان.
- الصراع التاريخيّ بين الإنسان والشيطان سيبقى قائماً، قيام الصراع بين الهداية والضلالة، وبين الخير والشرّ، وبين العلم والجهل.
- إنّ الله تعالى عرّفنا الحقّ والباطل، وأرسل رسلاً، ونصّب أئمّةً، ومنحنا عقلاً راجحاً، وعرّفنا بالشيطان وبغضه لنا، فلم يبقَ إلّا مكافحته.
- لولا النفس لما استطاع الشيطان أن يخدع الكثير منّا، وجعلهم أُلعوبة.
- النفس الأمّارة بالسوء هي الحاضنة الحقيقيّة لوسوسة الشيطان.
- الإنسان واقعٌ تحت رصد الشيطان ونفسه، وهنا سرّ دوام جهاده الأكبر.
- للفتنة معانٍ، منها: الاختبار والمحنة، والكفر، ومكر الشيطان.

- الإيمان واليقين والتوبة والعمل الصالح تشكّل جبهةً رصينةً، وحصناً منيعاً لا يمكن للشيطان اختراقه.
- الإماتة للشيطان في أنفسنا هي بمعنى غلق باب الاستجابة له، فنكون بمثابة الميّتين له، ويكون بمثابة الميّت لنا.
- من أهمّ ملامح المواجهة مع الشيطان: استمرار المعركة من حيث الزمان والمكان، واتّساع مساحتها، في العلم والعمل، وأنّها تشتمل على كرٍّ وفرٍّ.
- لابدّ من محو جميع حواضن الشيطان في أنفسنا، والقضاء على أجندته، وهذه الحواضن هي الآثار الوضعيّة التي تركتها الذنوب السابقة.
- لا يمكن أن نحقّق انتصاراً نهائيّاً على الشيطان من دون الرجوع لله تعالى والتوسّل به، فهو إكسير الانتصار.
- من أساليب التخلّص من كيد الشيطان: مخالفته السريعة، ومعاجلة أداء الواجب، وإكثار عمل البرّ، والمراقبة والمحاسبة، والتمسّك بالثقلين.
- أعظم أسباب الغفلة عن الله انقيادنا للشيطان، وانصياعنا لهوى النفس.
- سبيل التخلّص من هوى النفس الأمّارة بالسوء ووسوستها هو تعريفها بحقيقة المتاع الفاني والمتاع الباقي، مستخدماً الترهيب والترغيب.
- الحاجة للقرآن والمعصومين في رحلة تهذيب النفس لها بدايةٌ، وليس لها نهايةٌ في حياتنا، فهما متن رحلة التهذيب وليست هامشاً عليها.

مذاكرة

- مَن هما العدوّان الرئيسيّان للإنسان؟ وما علاقة مفاسد الأخلاق بهما؟
- مَن هو العدوّ الحقيقيّ والعدوّ العرضيّ للإنسان؟
- ما هي أشهر ملامح وصفات الشيطان؟

- ما هو السبب الأوّل في امتناع الشيطان عن إطاعة أمر الله بالسجود لآدم؟
- ما هو الإبلاس؟ وما هي علاقته بحقيقة الشيطان ومصيره؟
- ما هي الوسوسة؟ وكيف نواجهها؟
- ما هي المعادلة المغلوطة التي تركها الشيطان؟ وفي قبال أيّ شيءٍ؟
- ماذا يعني: أنّ الشرّ هو التوقّع الحتميّ من الشيطان؟
- ما هي أطراف الصراع التاريخيّ الذي وقع على الأرض؟ وما مدّة بقائه؟
- ما هو منفذ الشيطان لخداع كثيرٍ من الناس، وجعلهم أُلعوبة؟
- ما هي الحاضنة الحقيقيّة لوسوسة الشيطان؟
- أين يكمن سرّ دوام الجهاد الأكبر مع النفس والشيطان؟
- ما هي معاني الفتنة؟ وما صلة الشيطان بها؟
- ما هي الأمور التي تشكّل جبهةً رصينةً وحصناً منيعاً بوجه الشيطان؟
- ماذا نعني بإماتة الشيطان في أنفسنا؟
- ما هي أهمّ ملامح المواجهة مع الشيطان؟
- ما هي حواضن الشيطان في أنفسنا؟
- ما هو إكسير الانتصار على النفس والشيطان؟
- ما هي أساليب التخلّص من مكائد الشيطان؟
- ما هو أعظم أسباب الغفلة عن الله تعالى؟
- ما هو سبيل التخلّص من هوى النفس الأمّارة بالسوء ووسوستها؟
- كيف تفهم وجه الحاجة للقرآن والمعصومين في رحلة تهذيب النفس؟
- ماذا يعني قولنا: إنّ دور القرآن والمعصومين هو متن رحلة التهذيب؟

الدرس الخامس عشر

ذكر الموت وعلاقته بإصلاح النفس

- أهداف الدرس
- تمهيد
- الحلقة الوجوديّة للموت
- أسباب الخوف من الموت
- معنى الاستعداد للموت
- التفكّر بالموت تفكّر بالحياة
- صور لتنقية الحياة بالموت من التعطيل والكسل
- الموت سبيل للإصلاح
- ضابطة تمنّي الموت في الكشف عن الإيمان والصلاح
- الموت نعمة ونقمة، ويسر وعُسر
- رادعيّة الموت للطغيان والتمرّد
- خلفيّة توهّم الأُنس بعالم الكثرة، والوحشة من عالم الوحدة
- وجاءت سكرة الموت
- محبوبيّة جوار الله تعالى والصالحين من خلقه
- كلمات في الطريق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان الحلقة الوجوديّة للموت، ومعنى الاستعداد للموت.
- تصوير التفكّر بالموت تفكّراً بالحياة وتنقيةً من التعطيل والكسل.
- بيان كون الموت سبيلاً للإصلاح وكشّافاً عن الإيمان والصلاح.
- تصوير كون الموت نعمةً ونقمةً، ويسراً وعُسراً.
- إثبات رادعيّة الموت للطغيان والتمرّد.
- بيان خلفيّة توهّم الأُنس بعالم الكثرة والوحشة من عالم الوحدة.
- بيان فضيلة طلب جوار الله تعالى والصالحين، وهول سكرة الموت.

تمهيد

لا تكاد تخفى ثقافة الخوف من الموت، فالإنسان بوجوده النوعيّ خائفٌ من الموت، ويضطرب لسماعه، حتّى تشكّلت عندنا رؤيةٌ ضبابيّةٌ عن ذلك الطائر العنقاء الذي يعيش تحت ظلّ أجنحتنا ونخشى النظر إليه!

كلّنا يعلم بأنّه سوف يموت، عاجلاً أم آجلاً، فلا مفرّ منه؛ قال تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ (النساء: ٧٨)، ولكنّنا نجهل الزمان والمكان والكيفيّة، فما الذي يؤرّقنا؟ هل هو الجهل بحقيقة الموت أم الجهل بوقوعه؟ وهل يمكن استثمار الموت في بناء الحياة وإصلاح النفس؟ وهل يمكن أن يكون رافداً لنفس الحياة؟ هذا ما نريد الوقوف عنده في هذا الدرس الأخير من هذه الحلقة المتعلّقة بتهذيب النفس وإصلاحها.

الحلقة الوجوديّة للموت

هنالك تصوّرٌ عامّيٌّ خاطئٌ للموت، وهو أنّه أمرٌ عدميٌّ، وقد فهموا ذلك من خلال لازمه لا من خلاله نفسه، فهو قاضٍ على الحياة، وهو بحسب التعبير الروائيّ هادم اللذّات ومفرّق الجماعات، فعن رسول الله صلّى الله عليه وآله في وصف الموت: «**هذا هادم اللذّات، ومفرّق الجماعات، هذا مرمّل الأزواج، ومؤتّم الأولاد، هذا مُخرِّب الدور، وعامر القبور، هذا ملك الموت...**»[١]، وعن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**ألا فاذكروا هادم اللذّات، ومنغّص الشهوات، وقاطع الأمنيات، عند المساورة للأعمال القبيحة**»[٢].

وهو تصويرٌ روائيٌّ صحيحٌ ودقيقٌ، ولكنّه لا يعني البتّة أنّه أمرٌ عدميٌّ، فكيف للعدم أن ينفي وجوداً وهو لا شيئيّة له، وبطلانٌ محضٌ وهلاكٌ محضٌ[٣]؟ ولذلك فالموت له صفةٌ وجوديّةٌ خُلقت لتكون ضدّ الحياة الدنيويّة، فالعلاقة بين الحياة والموت علاقة تضادٍّ وليست علاقة تناقضٍ[٤]، وما دام بينهما تضادٌّ فهما أمران وجوديّان، وقد نصّ القرآن على وجوديّته،

---

(١) المعجم الكبير، مصدر سابق: ج٣ ص٦٢.

(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص١٩٢، الخطبة رقم (٩٩).

(٣) قرّروا في الفلسفة أنّ: «الشيئية تساوق الوجود، والعدم لا شيئية له، إذ هو بطلانٌ محضٌ لا ثبوت له». (بداية الحكمة، للسيّد العلّامة محمّد حسين الطباطبائي: ص٢٥، الفصل التاسع، صحّحه وعلّق عليه: الشيخ عبّاس الزارعي السبزواري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، الطبعة السادسة عشر، ١٤١٩هـ، قم).

(٤) التضادّ يقع بين أمرين وجوديّين، مثل التضادّ بين الألوان، فكلّها وجوديّةٌ، ولكنّها لا تجتمع على شيءٍ واحدٍ، فلا يكون الشيء الواحد أبيض وأسود في آنٍ واحدٍ، وأمّا التناقض فيقع بين أمرين وجوديٍّ وعدميٍّ، كالتناقض بين الوجود والعدم.

وأنّه مخلوقٌ من مخلوقات الله؛ قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: ٢)[1]، فالموت وجوديٌّ، بل حتّى لازمه الذي أدخل التوهّم بعدميّته هو الآخر ليس عدماً، فالعدم هو اللاشيء، والمفروض بالموت أنّه ينقل أرواحنا وأنفسنا من عالم المادّة إلى عالمٍ آخر، وقد قُرّر في الفلسفة أنّ الموت نوع استكمالٍ لا انعدام وزوال[2].

وأمّا أجسادنا فهي الأخرى لا تفنى من الناحية الفيزيائيّة، وإنّما تتبدّل أشكالها وتعود إلى عناصرها الأوّليّة، فالموت مادّياً وروحيّاً، ذاتاً ولوازم لا يمتّ بصلة للعدم، بل هو أمرٌ وجوديٌّ خاصٌّ، بل ووجوده أشرف من الوجود الدنيويّ المادّي، سواءٌ بقيامه بملك الموت المنتمي إلى عالم الملكوت والتجرّد، أو بما هو هو، كسرٍّ من أسرار الله تعالى، وبالتالي فهو يمثّل حلقةً وجوديّةً شريفةً، أشرف من وجودنا المادّي، بل أشرف رتبةً من الوجود المادّي بأسره.

وحيث إنّ الموت بذاته وبلوازمه وبالقائم به هو من الأمور الوجوديّة ـ بخلاف التصوّر الخاطئ عنه ـ إذن فهو يمثّل حلقةً وجوديّةً في سلسلة الوجود العامّ[3]، وهذا ما يجعلنا نقترب من التعرّف على حقيقة الموت، كما

---

(١) ولذلك صحّ ما قيل في تعريف الموت من أنّه: «صفةٌ وجوديّةٌ خُلقت ضدّ الحياة». (انظر: التوقيف على مهمّات التعاريف، محمّد عبد الرؤوف المناوي: ص٢١١، تحقيق: محمّد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت؛ روح المعاني، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٦). أو هو: «صفةٌ وجوديّةٌ مُضادّةٌ للحياة». (انظر: مفاتيح الغيب «تفسير الرازي»، مصدر سابق: ج٣٠ ٤٨٣).

(٢) انظر: بداية الحكمة، مصدر سابق: ص٣١.

(٣) ونعم ما قاله في وجوديّة الموت شاعر التشاؤم، ورهين المحبسين، أبو العلاء المعرّي:

خُلِق الناس للبقاء فضلّت   أمّـةٌ يحسـبونهم للـنفاد
إنّما يُنقلون مـن دار أعـمالٍ   إلى دار شقوةٍ أو رشـاد

انظر: تاريخ بغداد، مصدر سابق: ج٤ ص٤٦٤.

يجعلنا نقلّل من درجة الخوف منه.

أسباب الخوف من الموت

للخوف من الموت أسبابٌ كثيرةٌ، بعضها قائمٌ على رؤىً خاطئةٍ أو مشوشّةٍ، وبعضها صحيحٌ في نفسه وواقعيٌّ، ولكنّه مبالغٌ فيه، وأمّا الأسباب فأهمّها:

الأوّل: الجهل بحقيقة الموت، وتوهّم أنّه يمثّل إعداماً للإنسان.

الثاني: حبّ الدنيا والاستغراق في ملذّاتها، حتّى وإن كانت مباحةً.

الثالث: الخشية من المصير المجهول (عالم ما بعد الموت).

الرابع: عدم الاطمئنان بقبول الأعمال الصالحة، والخشية من ردّها والعقوبة على ما مضى.

الخامس: حبّ الحياة والخلود، وأنّ الموت يبدو متناقضاً مع ما فُطرنا عليه من حبّ البقاء والخلود، فنحن نهرب من الموت لأنّنا نريد الهروب من الفناء المناقض للخلود.

السادس: ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب، وهنا يوجد تناسبٌ طرديٌّ، فكلّما كثرت الذنوب ازداد الخوف من الموت، وكلّما قلّت الذنوب قلّ الخوف من الموت، وهو ما قد يُعبّر عنه بإعمار الدنيا وتخريب الآخرة، أي الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة، ولعلّ هذا هو من أكثر الأسباب انتشاراً في الخوف من الموت.

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**جاء رجلٌ إلى أبي ذرّ فقال: يا أبا ذرّ! مالنا نكره الموت؟ فقال: لأنّكم عمّرتم الدنيا وأخربتم الآخرة، فتكرهون أن تُنقلوا من عمران إلى خرابٍ، فقال ـ الرجل ـ: فكيف ترى**

قدومنا على الله؟ فقال: أمّا المُحسن منكم فكالغائب يقدم على أهله، وأمّا المُسيء منكم فكالآبق يُردّ على مولاه...»[١].

وواضحٌ: أنّ عمران الدنيا بالمعاصي[٢]، وخراب الآخرة مع الجهل بحقيقة الموت، سوف يزيدان درجة الخوف من الموت والكراهيّة له، فهم أخلدوا إلى الأرض واثـّاقلوا، وبذلك يصير الموت لهم خصماً وعدوّاً؛ قال تعالى: ﴿**...اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ**﴾ (التوبة: ٣٨)، أوثقوا أنفسهم بقيود النقص، ودسّوا رؤوسهم في التراب، ووأدوا أنفسهم، ولكن لا يشعرون، فقست قلوبهم كالحجارة، بل هي أشدّ، ولم تعد الموعظة مؤثّرةً فيهم، بل صاروا كارهين لها، متنفّرين منها، فلا يكادون يسمعون من الحقّ شيئاً، فهم الأموات حقّاً؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ (فاطر: ٢٢)[٣].

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٤٥٨ ح٢٠. الآبق: هو العبد الذي هرب من سيّده.

(٢) من الواضح أنّه ليس عمراناً للحياة، بل هو خرابٌ لها، وفسادٌ في الأرض، وقد قال تعالى: ﴿**وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**﴾ (الأعراف: ٥٦)، وإنّما جاء التعبير بالعمران لأنّ الحياة هي دار الغرور، ودارٌ يقع فيها اللهو واللعب، وقد أنفق هذا البائس عمره في هذه الأمور، فملأ حياته بتلك المعاصي، أو قل: أثّث داره الدنيا بتلك المعاصي، فهو إعمارٌ للّهو واللعب، وإعمارٌ لدنياه بهذا النحو الخاطئ.

(٣) للشاعر كُثير عزّة أبياتٌ جميلةٌ تنطبق على هذا الواقع المرير، حيث يقول:

فلا تبعد فكلّ فتىً سيأتي ... عليه الموت يطرق أو يغادي
وكلّ ذخيرةٍ لابدّ يوماً ... وإن بقيت تصير إلى نفادِ
لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ... ولكن لا حياة لمن تُنادي
ولو ناراً نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رمادِ

وليتهم قد تمتّعوا فيها طويلاً لتقلّ الحسرة على الفراق، ولكنّه متاعٌ قليلٌ، وسريع الزوال، إنّه شبعٌ يتبعه جوعٌ، ورويٌّ يتبعه عطشٌ، وهلمّ جرّاً حتّى تنقضي الحياة الدنيا؛ قال تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٩٧)[1].

والخلاصة: أنّه من مجموع ذلك يتّضح أنّ التصوير الخاطئ الذي تلقّيناه من خلال الرؤية الكلاميّة، والتوجيهات المشوشّة للنصوص القرآنيّة والروائيّة، كلّ ذلك قد أفقدنا الصلة بالموت معرفيّاً، وعمّق درجات الخوف منه، بنحوٍ يبلغ إلى درجة الهلع والجزع الشديد.

إنّه هروب ـ باصطلاح المعاصرين ـ إلى الأمام، ولهذا الهروب من الفناء والتمسّك بالخلود المزيّف علائم كثيرةٌ في حياتنا، من قبيل أنّ البعض منّا تجده حريصاً على جمع المال الكثير؛ ظنّاً منه بالخلود أو البقاء الطويل، والبعض نجده يُكثر من الزوجات والأولاد؛ ظنّاً منه بتحقيق وجهٍ من وجوه الخلود، أو توسيع رقعة وجوده الطوليّ، والنيل الأكبر من فسحة الحياة، مع أنّه يعلم في صميم ذاته ووجدانه وفطرته أنّه راحلٌ، وأنّه لابدّ من الموت.

إنّه يحاول ترجمة بقائه وخلوده بوسائل شتى، لكنّه يرى الموت عائقاً

معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: ج٥ ص٤٢٨، نشر: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ، بيروت.

(١) فعلاً إنّه متاعٌ قليلٌ بالقياس إلى متاع الآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨)، على أنّ متاع الدنيا ممزوجٌ بالغصص والألم، ومتاع الآخرة لذّةٌ لا تنقطع، ونعيمٌ لا يبلى، بأصنافٍ لا تخطر على بال أحدٍ، قال تعالى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الواقعة: ١٨ـ٢٤).

يحجبه عن هدفه، ولذلك يكون جزعاً من الموت، بل وحانقاً ومبغضاً له، فيتخيّل أنّه بإمكانه الفرار من هذه الحقيقة بكثرة المال والأولاد! وهو مجرّد تعويضٌ صوريٌّ، فكيف للفاقد أن يستمدّ وجوداً من فاقدٍ مثله؟!

إذن نحتاج أن نفهم بأنّ الموت هو نهايةٌ للدنيا لا الحياة نفسها، والحياة هي أوسع من ذلك بكثيرٍ، وما دمنا نجهل هذه الحقيقة أو نتجاهلها، فإنّنا سنبقى على خوفنا وهلعنا من الموت؛ عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**الناس أعداء ما جهلوا**»(١)، فمع ارتفاع الجهل والتوجّس سنجد أنفسنا قريبين من هذه الحقيقة الوجوديّة، ونتعاطى معها بإيجابيّةٍ كبيرةٍ.

بعبارةٍ أخرى: إنّ حقيقة الجهل الذي يقع فيه الكثير من الناس إنّما يكمن في تشخيص مصداق البقاء، فالإنسان نتيجة ارتباطه بالدنيا وتعلّقه المادّي بها، يتبادر إلى ذهنه أنّ مصداق البقاء هو هذه الحياة الدنيا، مع أنّها دار زوالٍ وانتقالٍ، وأنّه بنفسه شاهدٌ على هذا كلّه، حيث يشاهد ويعاين بنفسه عشرات الموتى في حياته، فيغفل عن هذه الحقيقة الشاخصة، وعن حقيقة الخلود في الدار الآخرة، وهكذا يعيش في خلطٍ بين مصداق البقاء ومصداق الفناء، وهذا التصوّر الخاطئ يجعل خوفه من الموت مبرّراً، وإن كان في أصله خاطئاً، ولو أدرك الحقيقة لتغيّر الموقف تماماً.

سئل الإمام محمّد الجواد عليه السلام عن علّة كراهيّة الموت فقال: «**لأنّهم جهلوه فكرهوه، ولو عرفوه وكانوا من أولياء الله عزّ وجلّ لأحبّوه، ولعلموا أنّ الأخرى خيرٌ لهم من الدنيا...**»(٢)، وهذا هو حال المؤمن، فإنّ كلّ مؤمنٍ هو

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٤٢، الخطبة رقم (١٧٢).

(٢) معاني الأخبار، مصدر سابق: ص٢٩٠ ح٨، باب (معنى الموت).

وليٌّ لله تعالى بالمعنى اللغويّ، أيّ محبٌّ لله وناصرٌ له[١].

ولذلك نشاهد صورةً أخرى عمّن انجلت له الحقيقة، كما هو الحال بالنسبة للإمام الحسين عليه السلام، حيث يقول: «**ليرغب المؤمن في لقاء الله، فانّي لا أرى الموت إلّا سعادةً**»[٢]، وقد صوّر لنا الإمام عليٌّ الهادي عليه السلام برواية ولده الإمام الحسن العسكري عليه السلام طبيعة الموت، وكيف أنّه طهارة وتطهيرٍ للمؤمن، فقال: «دخل عليّ بن محمّد عليه السلام على مريضٍ من أصحابه وهو يبكي ويجزع من الموت، فقال له: **يا عبد الله تخاف من الموت لأنّك لا تعرفه، أرأيتك إذا اتّسخت وتقذّرت وتأذّيت من كثرة القذر والوسخ عليك وأصابك قروحٌ وجربٌ وعلمت أنّ الغسل في حمّامٍ يُزيل ذلك كلّه، أمّا تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك، أوَما تكره أن لا تدخله فيبقى ذلك عليك؟** قال: بلى، يا بن رسول الله، قال: **فذاك الموت هو ذلك الحمّام...**»[٣].

معنى الاستعداد للموت

هل للموت استعدادٌ خاصٌّ؟ وما هذا الاستعداد؟ ومتى يبدأ؟ وكيف يكون؟

---

(١) جاء تفسير الولي بالمؤمن صريحاً في قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام لمّا سُئل: «هل يُكره المؤمن على قبض روحه؟ فقال عليه السلام: **لا والله، إنّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليّ الله! لا تجزع فوالذي بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والدٍ رحيمٍ لو حضرك، افتح عينيك فانظر**». (فروع الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص١٢٧ ح٢). إنّ ملك الموت يقول للمؤمن: يا وليّ الله لا تجزع.

(٢) تحف العقول، مصدر سابق: ص٢٤٥؛ المعجم الكبير، مصدر سابق: ج٣ ص١١٥؛ مجمع الزوائد، مصدر سابق: ج٩ ص١٩٢.

(٣) معاني الأخبار، مصدر سابق: ص٢٩٠ ح٩، باب (معنى الموت).

نعم، للموت استعدادٌ خاصٌّ، طبقاً للسيرة العقلائيّة القائمة على تهيئة الرحل والعدّة والعدد لكلّ سفرٍ طويلٍ، فكيف بهذا السفر الذي لا عودة للحياة بعده؟ إنّه سفرٌ طويلٌ وخطيرٌ، ويحتاج إلى عدّةٍ ومتاعٍ من نوعٍ خاصٍّ، يحتاج إلى التزوّد بطعامٍ استثنائيٍّ يتلاءم مع أجواء الرحلة القادمة؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ (البقرة: ١٩٧)، والتقوى في المقام هي تعبيرٌ آخر عن طهارة النفس وإصلاحها، وإصلاح النفس هو خلاصة الاستعداد الواقعيّ للموت وذروته.

ولنتأمّل في الاستعداد اليوميّ لهذا الرحيل في كلماتٍ كلّها موعظةٌ وحكمةٌ، لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، حيث كان كثيراً ما ينادي به أصحابه في مسجد الكوفة بعد صلاة العشاء: «**تجهّزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل، وأقلّوا العُرجة على الدنيا، وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد، فإنّ أمامكم عقبةً كؤوداً، ومنازل مخوفةً مهولةً، لابدّ من الورود عليها والوقوف عندها، واعلموا أنّ ملاحظ المنيّة نحوكم دانيةٌ، وكأنّكم بمخالبها وقد نشبت فيكم، وقد دهمتكم فيها مفظعات الأمور، ومعضلات المحذور، فقطّعوا علائق الدنيا، واستظهروا بزاد التقوى**»[(١)].

فما دمنا نتوقّع الموت في كلّ ساعةٍ فقد نُودي بنا بالرحيل عنها، وما دام النداء واقعٌ فعلام المكوث طويلاً والنظر مليّاً لدنيا عمّا قريبٍ مفارقون لها؟ فلنتمسّك بما نلناه من التقوى والعمل الصالح، فهذا هو الزاد الباقي معنا، فأمامنا السكرات والموت ولاشيء ينفع في العبور منها غير ذلك الزاد، فإنّ

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص١٨٣، الخطبة رقم (٣٠٤). العُرجة: بالضمّ اسمٌ من التعريج، بمعنى: حبس المطيّة على المنزل، أي: اجعلوا ركونكم إليها قليلاً. والكؤود: الصعبة المرتقى. ومَلاحظ المنيّة: منبعث نظرها. ودانية: قريبة. ونشبت: علقت بكم.

المنيّة ملتصقةٌ بنا، وكأنّها ذات مخالب وقد علقت بنا، فلا مفرّ، وما دام السفر عن الدنيا حتميّاً فمن الخطأ توطيد العلاقة بها بنحوٍ تغيب فيه الآخرة، وليكن خروجنا من الدنيا بلباسٍ طاهرٍ، وهو التقوى؛ قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ...﴾ (الأعراف: ٢٦)، وذلك الذي سيكون ثمنه الدائم: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (فاطر: ٣٣).

إذن فالاستعداد هو في كلّ يومٍ، ومادّته الأساسيّة هي التقوى والعمل الصالح، والأمل بالله تعالى وبعفوه وفضله، والتشبّث بشفاعة الطيّبين الطاهرين محمّد صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

التفكّر بالموت تفكّر بالحياة

إنّ الإعمار الحقيقيّ للحياة الدنيا هو عدم الإفساد فيها، وعدم الإفساد إنّما يكون بالإيمان وصلاح الأنفس، ولا ريب أنّ التفكّر بالموت له آثارٌ عظيمةٌ، أهمّها هو تعزيز الإيمان والإكثار من العمل الصالح، وبالتالي سوف يكون التفكّر بالموت هو تفكّراً بالحياة، وإعمار الآخرة إعماراً للدنيا بالشكل الصحيح.

إذن فالموت ليس سلبيّاً بالنحو الخاطئ الذي عليه أكثر الناس، وإنّما هو إيجابيٌّ في كلّ شيءٍ، فلا سلبيّة فيه أبداً، حتّى للعاصين والخاطئين، حيث يضع لعصيانهم حدّاً، ولولا الموت لازدادوا إثماً، وأمّا بالنسبة للمؤمن فهو خلاصٌ حقيقيٌّ من آلام الدنيا، وفراقٌ لهمّها وغمّها، فأين السلبيّة في ذلك؟

إنّ العلقة بالدنيا هي السبب المباشر في تحويل إيجابيّة الموت إلى سلبيّةٍ، بمعنى عشق الدنيا وعدم الرغبة في فراقها، هذا هو الداء العضال، وهذا

العشق والداء وليدان للتصوّرات الخاطئة عن الموت والدار الآخرة، وكلّما وجد الإنسان في قلبه ذلك العشق العليل، والارتباط غير الشرعيّ، فإنّه سائرٌ في طريقٍ مشبوهٍ ومجهولٍ، بل هو طريق الظلم للنفس بأبشع صوره، وسينتهي به إلى حيث الندامة، وليتها تنفعه بشيءٍ؛ قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ (يونس: ٥٤).

إذن فالموت هو وسيلةٌ لإعمار الحياة بالإيمان والعمل الصالح، والفارّون منه إنّما هم فارّون من الإيمان والعمل الصالح، وإلّا فالمؤمن الحقيقيّ لا ضير عليه؟

وهذه السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام يتحوّل بكاؤها على فراق رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى فرحٍ وضحكٍ بعدما أعلمها أبوها صلّى الله عليه وآله بأنّها أوّل أهله لحوقاً به.

عن ابن عبّاس قال: «لمّا نزلت: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ دعا رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم فاطمة فقال: **قد نُعيت إليّ نفسي**. فبكت، فقال: **لا تبكي فإنّك أوّل أهلي لحاقاً بي**. فضحكت، فرآها بعض أزواج النبيّ صلّى الله عليه وآله، فقلن: يا فاطمة! رأيناك بكيت ثمّ ضحكت؟ قالت: **إنّه أخبرني أنّه قد نعيت إليه نفسه فبكيت، فقال لي: لا تبكي فإنّك أوّل أهلي لاحقٌ بي فضحكت**»[1]، فكيف يضحك إنسانٌ لإبلاغه بموته لولا علمه أنّه قادمٌ

---

(١) سنن الدارمي، مصدر سابق: ج١ ص٣٧؛ المعجم الكبير، مصدر سابق: ج١١ ص٢٦١؛ الطبقات الكبرى، محمّد بن سعد: ج٢ ص١٩٣، نشر: دار صادر، بيروت؛ مجمع الزوائد، مصدر سابق: ج٩ ص٢٣؛ مصنَّف ابن أبي شيبة، مصدر سابق: ج٨ ص٣٥٣ ح٢٤٨؛ الأدب المفرد، مصدر سابق: ص٢٠٢.

على الحياة الحقيقيّة الخالدة[١].

صور لتنقية الحياة بالموت من التعطيل والكسل

لتنقية الحياة بالموت من التعطيل والكسل صورٌ كثيرةٌ، نكتفي بخمسٍ منها:

الصورة الأولى: إنّ الحركة الدؤوب في الحياة لإنجاز أكبر قدرٍ ممكنٍ من الأعمال ـ للمؤمنين وغير المؤمنين، فالجميع يؤمن بالموت وواقعيّته ـ مجاراةً للزمن وسبقاً لوقوع الموت قبل إنجازها، إنّما هو تعبيرٌ صريحٌ لتأثير الموت في إيجاد الحراك، والخروج من التعطيل بأصنافه، والكسل بأنواعه، وهذه هي الصورة الأولى من التنقية العمليّة من قبل الموت للحياة الدنيا.

الصورة الثانية: وهي صورٌ تكمن في تنقية الأرض من العجزة والعاطلين عن العمل بصورةٍ طبيعيّةٍ وإنسانيّةٍ محضةٍ، فالموت لكثيرٍ من الناس المرضى

---

(١) هاهنا خاطرةٌ جميلةٌ قرأتها في كتابٍ جميلٍ وممتعٍ للدكتور مصطفى محمود المصري، تشتمل على رؤيةٍ علميّةٍ طبيّةٍ ونظرةٍ فلسفيّةٍ، نأخذ منها مقدار الحاجة، حيث يقول فيها: «لأنّ الموت في حقيقته حياةٌ، ولأنّه لا يحتوي على مفاجأةٍ، ولأنّ الموت يحدث في داخلنا في كلّ لحظةٍ حتّى ونحن أحياء... كلّ دمعةٍ، وكلّ قطرة عرقٍ، فيها خلايا ميّتةٌ، نشيّعها إلى الخارج دون احتفالٍ! ملايين الكرات الحمر تولد وتعيش وتموت في دمنا دون أن ندري عنها شيئاً... وتدفن جثثها في الغدد أو تطرد في الإفرازات في هدوءٍ وصمتٍ، دون أن نحسّ شيئاً ما قد حدث! هذه هي حرارة الحياة، ولكنّها أيضاً احتراقٌ، الموت في صميمها، والهلاك في طبيعتها، أين المفاجأة إذن؟ وكلٌّ منّا يحمل جثّته على كتفيه في كلّ لحظةٍ؟ حتّى الأفكار تولد وتورق وتزهر في رؤوسنا ثمّ تذبل وتسقط! حتّى العواطف تشتعل وتتوهّج في قلوبنا ثمّ تبرد! حتّى الشخصية كلّها تحطّم شرنقتها مرّةً بعد أخرى، وتتحوّل من شكلٍ إلى شكلٍ! إنّنا معنويّاً نموت وأدبيّاً نموت ومادّياً نموت في كلّ لحظةٍ... وأصدق من هذا أن نقول: إنّنا نعيش، مادّياً... وأدبيّاً... ومعنويّاً...؛ لأنّه لا فرق يذكر بين الموت والحياة». (لغز الحياة، الدكتور مصطفى محمود: ص٣ـ٤، منشور في موقع القصّة السورية).

والعجزة الذين لا ينجزون أعمالهم الخاصّة بأنفسهم إنّما هو رحمةٌ لهم ورحمةٌ للقائمين عليهم، وقد يبدو هذا المعنى فيه وخزةٌ إنسانيّةٌ، ولكنّنا إذا ما تأمّلنا فيه سنجده في غاية الرحمة، بشرط أن يكون موتهم بصورةٍ طبيعيّةٍ، وليس عن طريق القتل الصناعيّ والموت السريريّ، بمنع الدواء عنهم، فتلك جريمةٌ بحقّ الإنسانيّة، وأمّا الموت الطبيعيّ لهؤلاء فإنّه يقع بصورةٍ تلقائيّةٍ ومرضيةٍ للجميع، ولولا الموت لما وصل أحدٌ منّا إلى منصبه، ولما ورث أحدٌ من أحدٍ شيئاً، ولتعاظمت الأحقاد والضغائن بين الأسرة الواحدة، طلباً للمتاع، فالحياة ـ بحسب الفرض ـ غير منتهيةٍ، ولولا الموت لما سعت الأرض لنا.

ومن طرائف ما يُذكر في المقام أنّ الربيع بن يونس ـ كان يتّصف بشيءٍ من الحكمة ـ قال له الحاكم العبّاسي أبو جعفر المنصور: ما أطيب الدنيا لولا الموت! فقال الربيع: ما طابت إلّا بالموت. قال: وكيف؟ قال: لولا الموت لم تقعد هذا المقعد[1].

الصورة الثالثة: تكمن في محرّكيّة الموت للبحث المستمرّ عن الأدوية الناجعة لمواجهة الأمراض والأوبئة الخطيرة، فالموت المحدق بهم يدفعهم للبحث والتنقيب، ولولا الموت لتقاعست العقول، وتحجّمت الجهود، وانقطع الأمل بالإصلاح، وصار وجودنا عبثاً في عبثٍ.

الصورة الرابعة: تكمن في السعي الحثيث لإصلاح النفس، وهو الغاية والمراد، فتوقُّع الموت في كلّ آنٍ يعمّق الحرص على طلب الإصلاح، وهذا ما نلمسه بقوّةٍ عند الأشخاص الذين يُصابون بأمراضٍ مستعصيةٍ، ولم يبقَ من

---

(١) سِير أعلام النبلاء، شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبي: ج٧ ص٣٣٥، رقم (١٢٠)، تحقيق: محمّد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، بإشراف: الأستاذ شعيب الأرنؤوط، نشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ، بيروت.

أعمارهم ـ بحسب التقديرات الطبيّة ـ إلّا أيّامٌ أو شهورٌ، فإنّهم يهرعون لاستغلال الوقت بشكلٍ قياسيٍّ، ويُصلحون ما يستطيعون، ولا يكاد يشغلهم شاغلٌ غير التوبة والإصلاح، ونحن علينا أن نضع أنفسنا في هذا الموضع، فلا نضيّع فرصة الإصلاح، وما لم نعمل على ذلك فلن يكون نصيبنا سوى الخسران المبين.

الصورة الخامسة: بالموت يتمّ القضاء على الطغاة والظَّلمة والقتلة والعابثين في الأرض ومقدّرات الأمّة، ولولا الموت لامتلأت الأرض بالفسقة الفجرة، والقتلة الظَّلمة، ولتعقّدت الحياة بنحوٍ أعظم بكثيرٍ ممّا هو حاصلٌ الآن.

الموت سبيل للإصلاح

ممّا تقدّم يتّضح: أنّ الموت من أعظم وسائل الإصلاح، وهو مؤثّرٌ في الإنسان، سواءٌ كان مؤمناً أم غير مؤمنٍ، فالموت حقيقةٌ تفرض نفسها بقوّةٍ، ولعلّها الحقيقة الإجماعيّة الكبرى، ولا مخالف فيها على مرّ العصور؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)، والفتنة هي الاختبار، فيخبرنا الله تعالى بأنّه يختبرنا بالشرّ والخير، وإنّما قدّم الشرّ على الخير لأنّه في عرف الناس هو الاختبار الحقيقيّ، ولكنّ الآية نبّهت إلى أنّ الله تعالى أراد أن يُصحّح هذه الفكرة، من أنّ الابتلاء يكون بالخير أيضاً، ولعلّ الابتلاء بالخير هو الأشدّ، فإنّ الصبر على الشرّ معلوم الحال، بخلاف الشكر على الخير فإنّه قليل الحصول، أو قل: إنّ ثقافة الشكر محدودةٌ، وكثيراً ما يظنّ الناس بأنّ إغداق الخير الكثير على العبد هو دليل رضا الله تعالى عليه، وهذا توهّمٌ كبيرٌ، فلعلّ الكثير من هذه الموارد تدخل في سلسلة سنّة الاستدراج، ولذلك فالخشية الكبيرة ينبغي أن تكون

من كثرة النعم، لا بمعنى العمل على ردّها، وإنّما العمل على تسخيرها في طريق الكمال الحقيقيّ.

وعلى أيّ حالٍ، فإنّ الموت لا مفرّ منه أبداً، ولا ينجو منه أحدٌ؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الأحزاب: ٦)، ولو نجا منه أحدٌ لنجا رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولنجا الأنبياء عليهم السلام والصالحون؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠)[١]، ومن ذلك سيتّخذ العاقل من الموت طريقاً وسلّماً لتحصيل

---

(١) قصّة الفارّ من الموت عاشها الإنسان منذ القدم، فهذا جلجامش البطل الأسطوريّ في حضارة وادي الرافدين، الذي كاد أن يقضي عليه الحزن والأسى على موت صديقه أنكيدو، ثمّ صار موت صديقه داعياً له للتفكير في حقيقة الموت وفلسفته، فقرّر مع نفسه أن يهزم الموت، وذلك بالبحث عن سرّ الخلود، ولكنّه يصطدم بموعظةٍ تقدّمها امرأةٌ على قارعة الطريق، فتخبره بأنّه لا يمكن الفرار من الموت أبداً، وأنّ عليه أن يعيش حياته، فقبل نصيحتها ولكنّه بقي يعيش في خلده هاجس الخلود، فقرّر بطل الملحمة أن يفتّش عن طريقٍ آخر للخلود، ثمّ وجده بعد تفكيرٍ وتأمّلٍ بأنه يكمن في الأعمال الفاضلة والشجاعة والبطولة. (انظر: ملحمة جلجامش، تعريب: الدكتور طه باقر، منشورة في مجلة التراث الشعبي البغداديّة، العدد: ٦، لعام ١٩٧٦م)؛ والملحمة منشورة في كتابٍ مستقلٍّ أيضاً.

وأمّا الحضارة المصريّة (حضارة وادي النيل) فإنّها قائمةٌ على أساس فلسفة الموت، وقد تفنّنوا في ترجمة الموت، حتّى صاروا يطلقون عليه بعالم الغرب، وصاروا يحنّطون الميّت ويبنون الأهرامات، ويدفنون الميّت فيها ليحفظ جسمه من التلف حين تعود له الحياة مرّةً أخرى. (انظر: الحوار الفلسفيّ بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، علي حسين الجابري: ص١٢٦ فما بعد، نشر: دار آفاق عربيّة، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، بغداد).

وهكذا نشأت للأمم الأخرى فلسفاتٌ أخرى تفسّر حقيقة الموت، ومعظم هذه الفلسفات كانت تعتقد بوجود حياةٍ أخرى، سواءٌ في الأرض أو في عالمٍ آخر، ما عدا أهل الجاهليّة

الكمال، فالموت قاهرٌ كلّ شيءٍ حيٍّ، والعاقل مَن يواجه ذلك القهر القسريّ، الذي لا مردّ له أبداً، بقوّة الإيمان والعمل الصالح، فلنا أن نتنعّم بالدنيا، فإنّ الدنيا إذا أقبلت فالأَولى بها هم أبرارها لا فُجّارها، كما صحّ ذلك في الخبر[1]، ولكن ليس لنا أن ننغمس في نعيم الدنيا الزائل ونغفل عن العمل للآخرة، بل ليس لنا أن نساوي بين الأمرين، بل لابدّ أن يكون ما نتمتّع به في الدنيا مصدر قوّةٍ لعمل الآخرة، فإنّ الذين قضوا أعمارهم في اللهو واللعب، أو الذين خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيّئاً ولم يتوبوا، فإنّهم جميعاً سيتمنّون ساعةً واحدةً يمتدّ بهم العمر عند حلول الموت؛ قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ (المؤمنون: ٩٩ـ١٠٠)، ولكن: ﴿**وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ (ص: ٣)، ومع هذا المنطق القرآنيّ الصحيح والصريح لا يبقى أمامنا إلّا أن يكون الموت واحداً من سُبُل الإصلاح والارتقاء، لا أن يكون عاملاً مثبّطاً. ومن سيرة الأولياء والصالحين: أنّهم كانوا يتوقّون من الموت بالتقوى والعمل الصالح، وخشيتهم من الموت إنّما هي خشية المرتقِب للقاء الله تعالى، فيخشى

الأولى، فإنّهم قد أنكروا ذلك، ولذلك فإنّ إنكار البعث والمعاد هو في الأصل تصوّرٌ جاهليّ.

(١) عن مسعدة بن صدقة قال: «دخل سفيان الثوريّ على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فرأى عليه ثيابٌ بيض كأنّها غرقئ البيض ـ شيء كزبرج ـ فقال له: إنّ هذا اللباس ليس من لباسك، فقال له: اسمع منّي وعِ ما أقول لك، فإنّه خيرٌ لك عاجلاً وآجلاً إن أنت مُتّ على السنّة والحقّ، ولم تمُت على بدعةٍ، أخبرك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان في زمانٍ مقفرٍ جدبٍ، فأمّا إذا أقبلت الدنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها، فما أنكرت يا ثوريّ؟! فوالله إنّني لمع ما ترى، ما أتى عليّ مُذ عقلت صباحٌ ولا مساءٌ ولله في مالي حقٌّ أمرني أن أضعه موضعاً إلّا وضعته». فروع الكافي، مصدر سابق: ج٥ ص٦٥ ح١.

أن لا يكون أهلاً للقبول، ولذلك فهو ماضٍ في رفع مراتب تقواه، وفي تطهير نواياه.

ضابطة تمنّي الموت في الكشف عن الإيمان والصلاح

هنالك بعض النصوص القرآنيّة جعلت الموت مورداً للتحدّي في إثبات الإيمان والعمل الصالح، من قبيل النصوص التي تحدّت اليهود في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله، كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة: ٩٤)، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (الجمعة: ٦)، وهي ضابطةٌ ليست منحصرةً باليهود، فهم مَثلٌ قرآنيٌّ، أو مصداقٌ للآية في أوان نزولها، وتبقى الآية صادقةً على كلّ مصداقٍ جديدٍ، ولا فرق بين كونهم من المسلمين أو غير المسلمين، وعليه فالضابطة شاخصةٌ أمامنا وأمام الجميع، ولاسيّما ونحن نعيش زمن فتنٍ تترى، وكلّ فرقةٍ وطائفةٍ وكتلةٍ ترى نفسها على الحقّ وترى الآخرين في الطرف المقابل، فليطبّقوا هذه الضابطة القرآنيّة عليهم، وعندئذٍ سيُعلم الصادقون من الكاذبين، وسيأتي يومٌ لا ريب فيه، تنكشف فيه هويّة كلّ إنسانٍ، وستتجلّى صورته الباطنيّة؛ قال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ (غافر: ٧٨)، ومن الواضح أنّ هذه الضابطة القرآنيّة هي الأخرى تستبطن الدعوة الجادّة للإصلاح والتغيير، فمَن وجد نفسه كارهاً للموت، فارّاً منه، فعليه أن يراجع نفسه، وبهذه المراجعة والمراقبة من قبل سنّة الموت فينا سنكون على مقربةٍ كبيرةٍ من التغيير والإصلاح، وإلّا سنكون ـ والعياذ بالله تعالى ـ من المبطلين.

الموت نعمة ونقمة ويسر وعُسر

مَن اتّخذ الموت سبيلاً في رحلة الإصلاح والبناء الأخلاقيّ القويم، والتكامل المعنويّ الرفيع، فإنّه ولا ريب سيكون الموت له نعمةً ويسراً، فهو نعمةٌ لأنّه أعانه كثيراً على الإصلاح، وهو يسرٌ لأنّه حفظ له ما وصل إليه من كمالٍ، وانتقل بواسطة الموت وهو متلبّسٌ بكماله، وأمّا بالنسبة للذين عاشوا وهم في فرارٍ كاذبٍ من الموت، حيث الانغماس في الشهوات والملذّات فإنّهم ولا ريب سيكون الموت لهم نقمةً وعسراً، فهو نقمةٌ لأنّه هدم عالم لذّاتهم، وسلبهم سلطة التصرّف بعمرانهم، وهو عسرٌ لأنّه سوف يُفضي بهم إلى ما لا تُحمد عُقباه.

فمَن شاء أن يكون له الموت نعمةً ويسراً، فقد عرف الطريق، ومن شاء أن يكون له الموت نقمةً وعسراً، فقد عرف الطريق أيضاً، وهو مختارٌ في ذلك؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان: ٣). نعم، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠)، وفي حسن الاختيار يكمن كمال العقل.

رادعيّة الموت للطغيان والتمرّد

مرّ بنا في الصورة الخامسة من صور تنقية الموت للحياة من التعطيل والكسل: أنّ الموت هو السبيل للخلاص من الظَّلَمة والقتلة والعابثين، وبعبارةٍ موجزةٍ: إنّ الموت رادعٌ للطغيان والطغاة، وهنا في هذه الفقرة نريد أن نتناول مستوىً آخر من الطغيان، يمارسه الإنسان مع نفسه، بالبطر والترف غير المعقول، فالإنسان ـ بحسب العادة ـ إذا استغنى مادّياً يصدر منه هذا النوع من الطغيان، فيسرف في كلّ شيءٍ، وربّما يصل طغيانه إلى التجاوز على حقوق الآخرين، فكثرة المال عادةً ما تولّد عشقاً للمال والدنيا،

فلا يكون همّ صاحبها إلّا جمع المال، وبأيّ طريقٍ كان! قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: ٦ـ٧)، ولن يبلغ المنتهى ولو عاش ألف عامٍ؛ لأنّه كلّما بلغ مرتبةً طمع بمراتب أخرى، وهلمّ جرّاً، ولذلك قال العقلاء أنّ القناعة كنزٌ لا يفنى، وأنّ الغنيّ مَن قنع، لأنّ الطمع يعمّق الفقريّة في الإنسان، وكما ورد في الخبرِ: أنّه لا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب[1]، وهذه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق: ٨).

إذن هنالك تمرّدٌ على النفس وطغيانٌ لابدّ من علاجه، وأقوى العلاجات الناجعة في ذلك هو تذكّر الموت، والتعاطي معه بصورةٍ جديّةٍ، ولذلك نجد القرآن الكريم في نفس سورة العلق بعد ما تعرّض للذي استغنى فطغى، نجد أنّه لم يذكر لعلاج هذا الطغيان غير التذكير بحقيقة الموت والرجوع لله تعالى سبحانه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق: ٨).

ولو رجعنا إلى كلمةٍ سابقةٍ لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام مع تتمّتها، وهي قوله عليه السلام: «**ألا فاذكروا هادم اللذّات، ومنغّص الشهوات، وقاطع الأمنيات، عند المساورة للأعمال القبيحة**»[2]، أي: عند المساورة للأعمال القبيحة، عليكم بذكر الموت، فإنّه هادم اللذّات و... إلخ.

والمساورة هي المواثبة، وهو تصويرٌ دقيقٌ، يقول الشيخ محمّد عبده:

---

(١) ورد في الصحاح والسنن والمسانيد رواية عن أنس وابن عبّاس وعن غيرهما أنّهم سمعوا النبيّ صلّى الله عليه وآله يقول: «**لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على مَن تاب**». (صحيح البخاري، مصدر سابق: ج٧ ص١٧٥؛ مصنَّف الصنعاني، مصدر سابق: ج١٠ ص٤٣٦ ح١٩٦٢٣؛ مسند أحمد، مصدر سابق: ج٣ ص٢٤٣).

(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص١٩٢، الخطبة رقم (٩٩).

«كأنّ العمل القبيح لبعده عن ملائمة الطبع الإنسانيّ بالفطرة الإلهيّة ينفّر من مقترفه كما ينفّر الوحش، فلا يصل إليه المغبون إلّا بالوثبة عليه، وهو في غائلته على مجترمه، كالضاريات من الوحوش، فهو يثب على مواثبه؛ ليهلكه، فما ألطف التعبير بالمساورة في هذا الموضع»(١).

خلفيّة توهّم الأُنس بعالم الكثرة، والوحشة من عالم الوحدة

لا يسع الإنسان الانقطاع عن واقعه الظاهريّ المتمثّل بالجسد المادّي، فهو يرى ويسمع وينطق ويشمّ ويلمس بأمورٍ ماديّةٍ حسيّةٍ، ويأكل ويشرب، ويقوم ويقعد بأعضاء حسيّةٍ، فالحسّ والمادّة مستوعبةٌ لمعظم أفعاله، ولذلك صار من الصعب عليه أن يدرك أنّ له وجوداً فوق هذا المستوى المادّي، ولو أدركه فإنّه ـ في العادة ـ يجعل كيفيّة التعاطي معه، ولو علم كيفيّة التعاطي معه فإنّ قوّة الجذب المادّي التي تمارس ضدّه، هي في الغالب تمنعه من الاستجابة.

إذن فالحراك مادّيٌّ، والتفكير عادةً يكون بأشياء ماديّةٍ محضةٍ، وحيث إنّ عالم المادّة هو عالم التزاحم والتصادم، فإنّه يجد نفسه مأنوساً كثيراً بهذا العالم، ويستوحش من العوالم الأخرى، والأكثر من ذلك فإنّه لا يجد عينيه نافذتين في العوالم الأخرى، ولا يجد سمعه يسترقّ السمع للمغيّبات، فيكون إيمانه بتلك العوالم ـ في العموم ـ أخباريّاً محضاً، فهو عصيٌّ عليه أن يدرك تلك العوالم المجرّدة، ويحسب أنّ بينه وبينها حجباً غليظةً لا يمكن اختراقها أبداً؛ لأنّه لا يملك وسيلةً غير الحسّ.

البعض من الناس لا يملك تصوّراتٍ واضحةً حول الله تعالى، فهو يعلم بأنّ الله تعالى موجودٌ، وأنّه خالق السماوات والأرض، أمّا ما هي

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص١٩٢، الخطبة رقم (٩٩).

حقيقة ذلك الموجود، وما هي صفاته، فتلك الأمور تبدو غامضةً وضبابيّةً؛ لأنّه لا يملك ـ كما قلنا ـ غير وسيلة الحسّ، ولذلك فهو يأنس بعالم الكثرة، عالم التزاحم والتصادم، لأنّ الكثرة والتزاحم والتصادم هي جزءٌ أساسيٌّ من خواصّه الماديّة، وفي الوقت ذاته يستوحش من عالم الوحدة، عالم التجرّد والتجلّي، فيكون من الطبيعيّ جدّاً أن يجد بينه وبين الله تعالى ما لا يُحصى من الحُجُب المانعة، مع أنّ الحقيقة الصاخبة هي أنّه لا تحجب الله تعالى عن خلقه حُجُبٌ سوى حجاب عدم الإدراك، وحيث إنّ المقصود من الإدراك الماحق للحجب هو الإدراك القلبيّ، فإنّه يبقى في عزلةٍ تامّةٍ عن عالم الوحدة، وعلى تماسّ مستمرٍّ مع عالم الكثرة، مع أنّ الله تعالى ـ كما هو مقرّرٌ في الفلسفة والعرفان ـ غير مختفٍ، وإنّما نحن المختفون لفرط نوره[1]، فاختفى عنّا لشدّة نوره، واختفينا بشدّة نوره، فلا حجاب مسدول، ولا غطاء مضروب بينه وبين خلقه إلّا شدّة ظهوره، وقصور بصائرنا عن اكتناه نوره، ومن الواضح أنّ المحيط الحقيقيّ لا يصير محدوداً مستوراً، فالحجاب المتوهّم بيننا وبينه مرجعه إلى أمرٍ عدميٍّ، وهو قصور الإدراك، وفي هذا المطلب الدقيق والعميق مباحث كثيرةٌ لا يسع المقام بذكرها[2].

وجاءت سكرة الموت

السكْر: حالةٌ تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما يستعمل ذلك في

---

(١) جاء في ضمن المنظومة الفلسفيّة للملّا هادي السبزواري قول: «يا مَن هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره». (ينظر: شرح المنظومة: ج٢ ص٤٤).

(٢) ومَن رامَ التوسعة والتحقيق في هذا المطلب الدقيق فعليه بمراجعة كتاب: (شرح المنظومة: ج٢ ص٤٤؛ وأيضاً: شرح تمهيد القواعد، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري).

الشراب، وقد تعتري هذه الحالة شخصاً لغضبٍ أو عشقٍ[(١)]، وقريبٌ من هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق: ١٩)، أي: جاءت غمرة الموت وشدّته بالحقّ الذي لا مردَّ له ولا مفرّ، وهذا ما كان يفرّ الإنسان منه بطبعه ويخشاه، وحين يغشاه الموت ويعيش ساعة السكرة يفقد الإرادة والحراك، ولا يفقد عقله، فهو يُبصر ويسمع ويُدرك، ولكنّه مشغولٌ بخواطر أيّامه، وما مرّ عليه في عمره من خطايا ورزايا، فتجتمع عليه مصيبتان، مصيبة السكرة، ومصيبة الحسرة، ولعلّ أروع مَن صوّر هذا المشهد الرهيب هو أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام بقوله: «**فغير موصوفٍ ما نزل بهم، اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت. ففترت لها أطرافهم، وتغيّرت لها ألوانهم. ثمّ ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنّه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه، على صحّةٍ من عقله، وبقاءٍ من لُبّه. يفكّر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره. ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها...**»[(٢)].

وهنا فليرع الخاطئون، فيتداركون ما فاتهم من الخير الكثير، وليُصيبوا فيما بقي من العمر القليل موارد الخير، ويسيروا في طريق الإصلاح، قبل أن يحلّ بهم يوم الحسرة الأكبر؛ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم: ٣٩).

---

(١) مفردات غريب القرآن، الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني: ص٢٣٦، تحقيق: صفوان عدنان الداوودي، انتشارات ذوي القربى، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ، قم المقدّسة. وفي ذلك يقول الشاعر: سكران سكر هوى وسكر مدام.

(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج١ ص٢١٢، الخطبة رقم (١٠٩).

محبوبيّة جوار الله تعالى والصالحين من خلقه

وقبل الذهاب إلى دار الوحدة والوحشة لابدّ أن يكون من أهدافنا الكبرى: بلوغ جوار الله تعالى وجوار الصالحين من خلقه في الدار الآخرة، وإنّما العبرات ينبغي أن تُسكب إذا لم ننَل ذلك المقام الشريف، وما دمنا في طريق الإعداد لذلك، مُسخّرين ما عندنا من طاقاتٍ ماديّةٍ ومعنويّةٍ، فهذه هي التجارة الرابحة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (فاطر: ٢٩)، وهنا يُسجِّل لنا القرآن الكريم تفصيلاً أكثر لهذه التجارة المربحة؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الصف: ١٠ـ١١).

ومن الجهاد في سبيل الله: جهاد النفس، المسمّى بالجهاد الأكبر، وهنا نريد أن نختم هذا الدرس بموقفٍ عظيمٍ وقفه أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام وهو عائدٌ من كفاحه وجهاده الأصغر في صفّين ليذكّر المجاهدين معه بالجهاد الأكبر، فاغتنم أوّل فرصةٍ عندما أشرف على القبور بظاهر الكوفة، وصار يخاطب قوماً عفا عليهم التراب، قائلاً: «**يا أهل الديار الموحشة، والمحالّ المقفرة، والقبور المظلمة. يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرطٌ سابقٌ، ونحن لكم تبعٌ لاحقٌ، أمّا الدور فقد سُكنت، وأمّا الأزواج فقد نُكحت، وأمّا الأموال فقد قُسّمت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ ـ ثمّ التفت إلى** أصحابه فقال: ـ **أما لو أُذن لهم في الكلام لأخبروكم: أنّ خير الزاد التقوى**»[1].

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٣٠، الخطبة رقم (١٣٠).

كلمات على الطريق

- قال تعالى: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾ (النساء: ١٠٠)، وفي ذلك موعظةٌ عظيمةٌ لَمَن قصد إصلاح نفسه، فإصلاح النفس وتهذيبها هو هجرةٌ واقعيّةٌ من عالم المعصية إلى عالم الطاعة، فمَن مضى لربّه وهو طريق هجرته فأجره على الله، وأجره من الله تعالى مغفرة ذنبه، والشمول بالرحمة، والرحمة هي الجنّة والرضوان.
- قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**كفى بالموت موعظةً، وكفى باليقين غنىً، وكفى بالعبادة شغلاً**»[1]، فالموت واليقين والعبادة قوام إصلاح النفس، فكفى وكفى وكفى.

خلاصة الدرس

- الإنسان بوجوده النوعيّ خائفٌ من الموت، ويمتلك رؤيةً ضبابيّةً عنه.
- كلّنا يعلم بأنّه سيموت، ولكنّنا نجهل الزمان والمكان والكيفيّة.
- هنالك تصوّرٌ خاطئٌ عن الموت أنّه أمرٌ عدميٌّ، مع أنّ العدم لا شيء.
- للموت صفةٌ وجوديّةٌ ضدّ الحياة الدنيويّة، والعلاقة بينه وبين الحياة هي علاقة تضادٍّ وليست علاقة تناقضٍ.
- قُرّر في الفلسفة أنّ الموت استكمالٌ وجوديّ، وليس انعداماً أو زوالاً.
- الموت يمثّل حلقةً وجوديّةً شريفةً، هي أشرف من وجودنا المادّي، بل أشرف رتبةً من الوجود المادّي بأسره.
- للخوف من الموت أسبابٌ كثيرةٌ، منها: الجهل بحقيقة الموت؛ وتوهّم

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٨٥، الحديث رقم (١).

أنّه يمثّل إعداماً للإنسان؛ وارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب.

- بين كثرة الذنوب وازدياد الخوف من الموت تناسبٌ طرديٌّ.
- إنّ التصوير الخاطئ والتوجيهات المشوشّة للنصوص أفقدانا الصلة بالموت معرفيّاً، وعمّقا عندنا درجات الخوف منه.
- الموت نهايةٌ للدنيا لا للحياة نفسها، والحياة هي أوسع من ذلك بكثير.
- حقيقة الجهل بالموت تكمن في تشخيص مصداق البقاء، فنتيجة الارتباط بالدنيا يتبادر للذهن أنّ مصداقه هو الدنيا، مع أنّها دار زوالٍ وانتقال.
- التقوى هي تعبيرٌ آخر عن طهارة النفس وإصلاحها، وإصلاح النفس هو خلاصة الاستعداد الواقعيّ للموت وذروته.
- السفر عن الدنيا حتميٌّ، فمن الخطأ توطيد العلاقة بها فتغيب الآخرة.
- الاستعداد للموت يكون في كلّ يومٍ، ومادّته الأساسيّة هي التقوى والعمل الصالح، والأمل بالله تعالى وبعفوه وفضله، والتشبّث بشفاعة الطاهرين.
- التفكّر بالموت تفكّرٌ بالحياة، وإعمار الآخرة إعمارٌ للدنيا بشكلٍ صحيحّ.
- الموت جميلٌ حتّى للعاصين، حيث يضع لعصيانهم حدّاً، ولولاه لازدادوا إثماً، وأمّا للمؤمنين فخلاصٌ من ألم الدنيا، وفراقٌ لهمّها وغمّها.
- إنّ العلقة بالدنيا هي السبب المباشر في تحويل إيجابيّة الموت إلى سلبيّةٍ.
- الموت هو وسيلةٌ لإعمار الحياة بالإيمان والعمل الصالح، والفارّون منه هم فارّون من الإيمان والعمل الصالح.
- لتنقية الحياة بالموت من التعطيل والكسل صورٌ، منها: أنّه يساعد على إيجاد الحركة الدؤوبة لإنجاز أكبر قدرٍ من العمل الصحيح والصالح.
- بالموت يتمّ القضاء على الطغاة والظَّلَمة والقتلة والعابثين في الأرض

ومقدّرات الأمّة، ولولا الموت لامتلأت الأرض بهم.

- الموت من أعظم وسائل الإصلاح، للمؤمن وغيره؛ فالموت حقيقةٌ حتميّةٌ.
- من سيرة الصالحين أنّهم كانوا يتوقّون الموت بالتقوى والعمل الصالح.
- الضابط القرآنيّ في تمنّي الموت للكشف عن الإيمان والصلاح شاملٌ للكلّ.
- مَن اتّخذ الموت سبيلاً للإصلاح والتكامل فالموت له نعمةٌ ويسرٌ، ومَن فرّ من الموت بواسطة الانغماس في الشهوات فالموت له نقمةٌ وعسرٌ.
- هنالك مستوىً آخر من الطغيان، يمارسه الإنسان مع نفسه، بالبطر والترف غير المعقول، وليس له رادعٌ غير التذكير بالموت.
- الحراك المادّي والتفكير المادّي في عالم المادّة ـ عالم التزاحم والتصادم ـ يخلق توهّماً عندنا بالأنس بعالم الكثرة والوحشة من عالم الوحدة.
- مَن يغشاه الموت سيعيش سكراتٍ تُفقده الإرادة والحراك، ويكون مشغولاً بخواطره، وقد تجتمع عليه مصيبتا السكرة والحسرة.
- لابدّ أن يكون من أهدافنا الكبرى بلوغ جوار الله تعالى وجوار الصالحين في الدار الآخرة، وعلى فوات ذلك تُسكب الحسرات تلو الحسرات.

مذاكرة

- هل الخوف من الموت نوعيٌّ أم شخصيٌّ؟
- ما هو التصوّر العامّي الخاطئ عن الموت؟ وكيف نردّ عليه؟
- ما هي طبيعة العلاقة بين الموت والحياة؟
- ما الذي قُرّر في الفلسفة بشأن الموت؟
- ما هي أسباب الخوف من الموت؟
- ما هي طبيعة التناسب بين كثرة الذنوب وازدياد الخوف من الموت؟

- ما الذي أفقدنا الصلة بالموت معرفيّاً، وعمّق درجات الخوف منه؟
- كيف تفهم أنّ الحياة أوسع من الدنيا؟ وما هي علاقة الموت بذلك؟
- أين تكمن حقيقة الجهل بالموت؟
- ماذا يعني أنّ إصلاح النفس هو خلاصة الاستعداد الواقعيّ للموت؟
- هل يوجد سنٌّ معيّنٌ للاستعداد للموت؟ وما هي مادّة الاستعداد له؟
- كيف تفهم أن التفكّر بالموت هو تفكّرٌ بالحياة؟
- كيف تثبت أنّه لا سلبيّة في الموت أبداً؟
- ما هو السبب المباشر في تحويل إيجابيّة الموت إلى سلبيّة؟
- ما هي صور تنقية الحياة بالموت من التعطيل والكسل؟
- مَن هم الذين يتوقّون الموت بالتقوى والعمل الصالح؟
- ما هي الضابطة القرآنيّة في الكشف عن الإيمان والصلاح؟
- كيف يكون الموت نعمةً ويسراً ونقمةً وعسراً؟
- كيف يردع طغيان البطر والترف غير المعقول؟
- ما هو السرّ في حصول الأُنس بعالم الكثرة والوحشة من عالم الوحدة؟
- ما الذي يفقده مَن يغشاه الموت؟ وما الذي يبقى معه؟
- ماذا نعني بمصيبة السكرة، ومصيبة الحسرة؟ وعلى مَن تجتمعان؟
- ما هو الهدف الكبير الذي ينبغي أن نعمل له؟ وماذا يعني فواته؟

خاتمة وتوصيات

- خاتمة في تهذيب النفس
- توصيات في طريق تهذيب النفس

الخاتمة

انتهينا في هذه الحلقة إلى نتائج كثيرةٍ، يمكن الإشارة إليها بما يلي:

أنّ التوبة شرطٌ في إزالة الآثار السلبيّة للذنوب وليست علّةً تامّةً في ذلك، وأنّه لا ريب بإمكانيّة التغيير، وإنّما الكلام في مساحات التغيير، فإنّ مساحات التغيير مختلفةٌ من شخصٍ لآخر، نظراً لاختلاف الاستعداد والرغبة في التغيير، وأوّل خطوةٍ في الإصلاح تكمن في الاعتراف بالخطأ والإقرار بالذنوب، وأنّ النفس ما لم تُصلح لا يمكن لها أن تنفتح على العلوم الغيبيّة، وأنّ التركيز على العلوم الحصوليّة لا يعني أن نترك فرص العمل على إصلاح النفس بإصلاح السير والسلوك وتهذيب النفس بالأخلاق الكريمة.

كما اتّضح: أنّ المعرفة الأوليّة للنفس تساعدنا كثيراً على العمل على إصلاحها، كما أنّ إصلاحها يُعمّق معرفتنا بالنفس، ومَن عرف نفسه جاهدها، وعند التحقّق من واقعيّة النفس المستغرقة في الفقر، سنفهم واقعيّة أنّ الله تعالى هو الغنيّ وحده، وأنّ من الواقعيّة والتعليميّة التي نقصدها: أن يحصل للإنسان توجّهٌ حقيقيٌّ نحو معرفة نفسه، وأنّ الحياة نعمةٌ عظيمةٌ لَمَن صلُحت نفسه، وأمّا من خبُثت نفسه وتشوّهت فطرته فهو كشخصٍ محموم لا يتذوّق شيئاً إلّا وغلبته مرارة فمه.

كما اتّضح: أنّ التفقّه في الدين لا يقتصر على الأحكام الشرعيّة، المسمّاة اصطلاحاً بفروع الدين، وإنّما يشتمل الدين على جميع مفردات المنظومة الإسلاميّة، من فكرٍ وعقيدةٍ وشريعةٍ وأخلاقٍ وسلوكٍ، وأنّ التفقّه في الدين هو السبيل الذي يُحقّق مقداراً عالياً من الاتّزان المعرفيّ.

ثمّ إنّ التوبة تحتاج إلى تواضعٍ مسبقٍ يقرّ من خلاله الإنسان بذنبه، فالتوبة

لا تقع من المتكّبر، فالكِبَر حجابٌ مانعٌ من الهداية والإذعان للحقّ سبحانه، ولا سبيل للخلاص منه إلّا بالتواضع، الذي به تنفتح أبواب الهداية والخير والرحمة.

كما أنّ وسائل إصلاح النفس تبتني على أصلٍ لابدّ من تحقيقه في رتبةٍ سابقةٍ، وهو الرغبة الصادقة في الإصلاح والتغيير، وأنّ وسائل إصلاح النفس هي: المكاشفة والمواجهة مع النفس، والمعاهدة والالتزام، والمراقبة والمتابعة، والمجاهدة والمحاربة والردع، والمحاسبة والمعاقبة، وأنّ مراقبة الله تعالى تعني أن يجعل الإنسانُ ربّه عليه رقيباً.

ثمّ اتّضح: أنّ الجهاد الأصغر يمثّل مواجهةً محدودةً مهما اتّسع ظرفها، بخلاف الجهاد الأكبر فالمعركة فيه مستمرّةٌ، والخسارة فيه لا تعوّض أبداً.

كما اتّضح أنّ مراحل إصلاح النفس هي: معرفة كون النفس ليست واحدةً، والإقرار والاعتراف بالذنب والتقصير، والمباشرة بالمعالجة وعدم التسويف، ورعاية بذور الأخلاق المكتسبة.

وأنّه ينبغي الأناة في تربية النفس، ومراعاة الضغوط التي تواجهها، فلا نحمّلها فوق طاقتها، ولا نترك الحبل على الغارب، وأنّ الأخلاق المكتسبة سريعة الزوال، فلابدّ من سقي بذورها، من خلال سماع الموعظة الحسنة، والإكثار من تلاوة القرآن، والتأمّل في الحياة.

ثمّ لكي نتحسّس القرب الإلهيّ والبُعد النفسيّ، علينا معرفة الجهة التي نلتفت إليها في ساعات فراغنا، من كونها النفس أم الحقّ سبحانه، فإن جرى ذكر الله على ألسنتنا وقلوبنا فنحن قريبون من الله تعالى، وإذا لم نسارع لمراقبة النفس ومحاسبتها سنكون نهباً لأهوائها، وكلّما ازداد الأُنس بالله تعالى قلّ الأُنس بالنفس، والعكس بالعكس تماماً.

كما اتّضح: أنّ الاستغفار الحقيقيّ الموجب لرفع المراتب إلى درجة العلّيين هو الاستغفار المسبوق بالتوبة الخالصة النصوح، وأنّ هنالك مرتبتين من الاستغفار تتوسّطهما التوبة، الأولى: هي الواقعة كمقدّمةٍ تمهيديّةٍ للاستغفار عن مطلق الذنوب، والثانية: هي ما قصده الإمام عليٌّ عليه السلام في جعل الاستغفار درجة العلّيين.

وأنّه لا خلاص من آثار الذنب الوضعيّة إلّا بالعمل، فلا يكفي استغفارٌ وتوبةٌ، ثمّ الحذر من الإملاء والاستدراج، فهو طريقٌ مستتبعٌ للهلاك المبين، وخطورته تكمن في كون المستدرج لا يلتفت لنفسه، فيظنّ نفسه على خيرٍ وهو في تيهٍ وضلالٍ.

واتّضح: أنّ من شروط التوبة: الندم والحسرة على ما وقع، والعزم على الترك، وردّ الحقوق والمظالم، وأنّه لابدّ من المسارعة في التوبة، لكي لا نقع في دائرة التسويف، وأنّه بحسب فلسفة الأخلاق الواقعيّة والتعليميّة، لابدّ أن يسعى المذنب الطالب للتغيير إلى التواجد في البيئة الطاهرة والبحث عن النموذج الصالح.

واتّضح: أنّ الدنيا سوقٌ كبيرٌ، ربح فيها قومٌ، وخسر آخرون، وبضائعنا فيه هي: الطاعات والمعاصي.

وأنّ مقامات المرابطة أربعةٌ: المشارطة، والمراقبة، والمحاسبة، والمعاتبة.

وأنّ الإفراط والتفريط دائرتان تكتنهان الانحراف والفساد، وغالباً ما يجتمع مع الإفراط تعصّبٌ وتجاوزٌ خطيرٌ على الطرف المقابل، ومَن أفرط في شيءٍ منحه خصائص ليست فيه، ومن فرّط سلبه خصائصه.

ثمّ إنّ العمل الصالح ليس منحصراً بالعبادات المخصوصة، ولا بالأعمال الخيريّة، وإنّما كلّ عملٍ نافعٍ في المجتمع هو عملٌ صالحٌ، فالمعلّم في تعليمه

يقوم بعملٍ صالحٍ عظيمٍ، وهكذا الطبيب والمربّي والعامل والفلّاح.

واتّضحت لـنا حقيقةٌ مهمّةٌ وهي: أنّ الإنسان بوجوده النوعيّ خائفٌ من الموت، ويمتلك رؤيةً ضبابيّةً عنه، وأنّ هنالك تصوّراً خاطئاً عن الموت من أنّه أمرٌ عدميٌّ، مع أنّ العدم لا شيء، مع أنّه من المقرّر في المعارف العليا: أنّ الموت استكمالٌ وجوديّ، وليس انعداماً أو زوالاً، وأنّه نهايةٌ للدنيا لا للحياة نفسها، والحياة هي أوسع من ذلك بكثيرٍ، بل اتّضح أنّ الموت هو وسيلةٌ لإعمار الحياة بالإيمان والعمل الصالح، والفارّون منه هم فارّون من الإيمان والعمل الصالح، بل هو من أعظم وسائل الإصلاح، للمؤمن وغيره؛ فالموت حقيقةٌ حتميّةٌ.

واتّضح أيضاً: أنّ الحراك المادّي والتفكير المادّي في عالم المادّة ـ عالم التزاحم والتصادم ـ يخلق توهّماً عندنا بالأُنس بعالم الكثرة، والوحشة من عالم الوحدة.

التوصيات

في تهذيب النفس من أدرانها توصياتٌ كثيرةٌ، وقد أوردها علماء وحكماء وعرفاء، سنورد شطراً منها، وهي: التقليل من خمسة أشياء لا إعدامها، وهي:

١. الاختلاط مع الناس، حيث يُكتفى منه بقدر الحاجة، ومع الاختيار لا ينبغي وقوع الاختلاط والصحبة إلّا مع الصّالحين الناصحين، وبقدر المستطاع أن تعمل على ترك من عداهم، فإنّ الاختلاط المستلزم للشبهة والحرام يكون من جملة الفسوق والعصيان.

٢. التمنّي، فهو من مواعيد الشيطان الغرور، والتي هي كذبٌ وبهتانٌ، والخلاص ثمّ الخلاص من طائر الخيال، وهو طائر أحلام اليقظة التي يتيه في غمراتها كثيرٌ من الشباب، فيبني مستقبله من خلال هذا الطائر الخرافيّ.

٣. التعلّق بغير الله عزّ وجلّ، فإنّ الأُنس بغير الله تعالى ـ كما عرفنا في دروسٍ سابقةٍ ـ لازمه انعدام الأُنس بالله تعالى، وبالتالي سوف يندر الإصلاح، ولا نقول بعدم التعلّق بغير الله تعالى مطلقاً، فذلك من العسير إن لم يكن من المحال، وإنّما نقول بتقليل هذه التعلّقات، فإنّها في الغالب تكون على حساب العلاقة مع الله سبحانه، وقد ورد أنّ القلب حَرَم الله فلا تُسكن حَرَم الله غير الله.

٤. الشبع، لاسيّما الأكل على الأكل، فالتخمة تذهب الفطنة، وتقسّي القلب، وتورث الكسل وكثرة النوم، فناسب للمهذّب نفسه أن يعمد على تقليل الطعام، وأن يأكل بقدر حاجته لا بقدر شهوته، وقد تقدّمت منّا كلمةٌ حكيمةٌ، وهي: أنّ العاقل مَن يأكل من أجل أن يعيش، لا أن يعيش

من أجل أن يأكل[(١)].

٥. المنام، فهو رديف كثرة الطعام والشراب، وكثرة النوم تورث الكسل والتقاعس، ولعلّ أكثر الكسالى هم الأشخاص النوّم، أي: كثيرو النوم، فضلاً عن كون النوم الكثير يورث النسيان، ويميت القلب عن المطالب الحِسان، بل ويُمرّض الجسد.

فهذه الأمور الخمسة مَن قلّلها فإنّه سينال مقاماً رفيعاً في رحلة إصلاح النفس، وهو مقام التذكّر. ومعنى التقليل ـ كما نبّهنا ـ: أنّه لا يفعل منها إلّا قدر الحاجة، ويترك ما زاد على ذلك، ومن الواضح: أنّ التقليل من هذه الأمور يحتاج إلى إرادةٍ وصبرٍ، وجهادٍ أكبر[(٢)].

التذكّر والتفكّر والتأمّل في الحياة

قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ (غافر: ١٣)، والإنابة هي العود والرجوع لله تعالى، وبه مُدح إبراهيم الخليل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ (هود: ٧٥)، فهو كثير العودة والرجوع لله تعالى، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه السائر في رحلة التهذيب، والتذكّر وسيلةٌ معنويّةٌ تساعدنا على العودة للفطرة السليمة، والتذكّر إنّما بأمورٍ ثلاثةٍ، وهي:

أوّلاً: الانتفاع بالعظة، فتتأثّر النفس بسماع الوعد والوعيد، لاسيّما وهو يقرأ أو يستمع لآياتٍ قرآنيّةٍ تناولت ذلك[(٣)].

---

(١) مرّت هذه الكلمة في الدرس العاشر (عناية القرآن بإصلاح النفس)، والكلمة تُنسب للحكيم اليوناني سقراط، ولكنّه كان يقول: «الحكيم يأكل من أجل أن يعيش، لا أنّه...».

(٢) انظر: شرح منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله الأنصاري: ص٧٤ـ٧٥، شرح عبد الرزاق القاساني، تحقيق: محسن بيدارفر، نشر: بيدار، الطبعة الثانية، ١٣٨١ش، قم.

(٣) كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام «يصلّي بخشوعٍ وأنينٍ وبكاءٍ، ويرتّل القرآن

ثانياً: استبصار العبرة، بمعنى طلب التبصّر بنور البصيرة، والسعي في تحقيق الأمور؛ طلباً للاعتبار، كالتحقيق في سعي مؤمن آل فرعون ـ حبيب النجّار ـ طلباً للهداية والنجاة والسعادة، والتحقيق في نكوص بلعم ـ أو بلعام ـ بن باعورا، الذي قيل بإحرازه الاسم الأعظم، فنكص وأخلد إلى الأرض.

ثالثاً: الظفر بثمرة الفكرة، بمعنى العمل بمقتضى العلم الحاصل بالفكر الصائب في الأعمال والأخلاق، والسعي لحصول المعارف والحقائق الكامنة في الاستعداد الفطريّ[(١)].

والخلاصة: لابدّ من التذكّر عند سماع الموعظة، وأن نتفكّر في أنفسنا وفي الحياة، وكيف أنّها تسير بنا ساعةً بعد ساعةٍ إلى حتفنا، ولذلك لابدّ من قصر الأمل بطول البقاء، فطول الأمل بذلك من الحرص، وهو لا يفضي إلى شيءٍ.

والعبد الصالح هو مَن يتذكّر الموت، بل يستقرب الموت، فيشغله ذلك عن الاستغراق في طلب الدنيا، وما دام متذكّراً للموت ومستقرباً له فإنّه لا يزال قصير الأمل، وذلك دليلٌ على أنّه قد اجتنى ثمرة الفكرة، ولا تكون هذه الحالة إلّا لَمَن آثر جوار الله تعالى، وزهد فيما عند المخلوقين، وأحبّ الآخرة الهنيّة، وكره الدّنيا الدنيّة، فاجتنى ثمرة الفكرة، واستبصر للعبرة، وانتفع بالعظة، واستوفى شروط مقام التذكّر، فتحقّق فيه[(٢)].

ترتيلاً، فكلّما مرّت آيةٌ فيها وعدٌ ووعيدٌ ردّدها على نفسه، ودموعه تجري على خدّه». (دلائل الإمامة، للمحدّث محمّد بن جرير الطبري: ص٣١٩، تحقيق ونشر: مؤسّسة البعثة، قسم الدراسات الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، قم المقدّسة).

(١) انظر: شرح منازل السائرين، مصدر سابق: ص٧٠ـ٧١.

(٢) المصدر السابق: ص٧٤.

البشارة بالعفو الإلهي وسماحته

من الخطأ أن نكون متشائمين، فالتشاؤم لا يزيد صاحبه إلّا ألماً وتعاسةً، بخلاف ما لو كنّا متفائلين، فالتفاؤل محطّة انطلاقةٍ نحو وضعٍ أفضل، ومن التشاؤم أن يستحضر الإنسان صور العذاب الأخرويّ ويغفل عن النعيم والرحمة، ولذلك لابدّ أن نعيش التفاؤل بنيل القبول من الله تعالى والرضوان فنحن مهما كنّا سوف نُقبِل على ربٍّ رحيمٍ كريمٍ، يغفر الذنوب ويتجاوز عن الأخطاء، فالله تعالى هو ربّ الكرم والجود، وقد ورد في الخبر عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام في توصيف الكريم: «**الكريم إذا قدر صفح، وإذا ملك سمح، وإذا سئل أنجح**»[(١)].

ويروى أنّ أعرابيّاً قال يوماً لرسول الله صلّى الله عليه وآله: يا رسول الله! مَن يحاسب الخلق يوم القيامة؟

قال صلّى الله عليه وآله: **الله.**

قال الأعرابيّ: الله؟

قال صلّى الله عليه وآله: **الله.**

قال الأعرابي: نجونا وربّ الكعبة.

قال صلّى الله عليه وآله: **وكيف؟**

قال الأعرابي: لأنّ الكريم إذا قدر عفا[(٢)].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق: ص٥٥.

(٢) انظر: حسن الظنّ بالله، لابن أبي الدنيا: ص٣٩ ح٢٥، حقّقه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: مخلص محمّد، نشر: دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، الرياض؛ كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقّي بن حسام الدين الهندي: ج١٤ ص٦٢٨ ح٣٩٧٤٩، نشر: مؤسّسة الرسالة، ١٣٩٩هـ، بيروت؛ كشف الخفاء، مصدر سابق: ج٢ ص١١٠ ح١٩٢٥.

وفي روايةٍ أخرى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: **صدق الأعرابيّ، ألا لا كريم أكرم من الله تعالى، هو أكرم الأكرمين،** ثمّ قال: **فقه الأعرابيّ**[١].

وختاماً

ورد في خبرٍ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في بعض أزواج النبيّ صلّى الله عليه وآله، أنّها قالت: يا رسول الله! إن أدركت ليلة القدر، فما أقول؟ قال: «**قولي: اللّهُمَّ إنّك عفوٌّ، تحبّ العفوّ فاعفُ عنّي**»[٢].

والحمد لله من قبلُ ومن بعدُ، و﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الصافّات: ١٨٠ـ١٨٢).

---

(١) إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٤ ص١٤٩؛ قوت القلوب، مصدر سابق: ص٣٠١.

(٢) مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ج٧ ص٤٦١ ح١٧؛ مسند أحمد، مصدر سابق: ج٦ ص١٧١؛ سنن ابن ماجة، للحافظ أبي عبد الله محمّد بن يزيد القزويني: ج٢ ص١٢٦٥ ح٣٨٥٠، تحقيق وتعليق: الأُستاذ محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت؛ سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٥ ص١٩٥ ح٣٥٨٠. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. الاحتجاج، أحمد بن عليّ الطبرسي، تحقيق: محمّد باقر الخرسان، نشر: دار النعمان، ١٩٦٦م، النجف الأشرف.
٣. إحياء علوم الدين، محمّد بن محمّد الغزالي، صحّحه محمّد بن مسعود الأحمدي، مؤسّسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦هـ، بيروت.
٤. أخلاقنا، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، العراق.
٥. الأدب المفرد، للإمام الحافظ محمّد بن إسماعيل البخاري، الناشر: مؤسّسة الكتب الثقافيّة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٦. أربع رسائل، للشيخ أبي على ابن سينا، بتحقيق الأهواني، الطبعة الأولى، مصر، ١٣٧١هـ.
٧. أُسد الغابة في معرفة الصحابة؛ لابن الأثير عز الدين علي بن محمّد الجزري، انتشارات إسماعيليان، طهران.
٨. الأصفى في تفسير القرآن، محمّد حسين الفيض الكاشاني، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلاميّة، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٩. الأصول من الكافي، للشيخ أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م، قم المقدّسة.

١٠. أعلام الدين في صفات المؤمنين، للشيخ الحسن بن أبي الحسن الديلمي، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.

١١. إقبال الأعمال، للسيد رضيّ الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني، تحقيق: جواد القيّومي الأصفهاني، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ، قم المقدّسة.

١٢. الأمالي، لشيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، نشر: دار الثقافة، الطبعة الأُولى، قم المقدّسة.

١٣. أوائل المقالات، للشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي، الناشر: دار المفيد، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، بيروت.

١٤. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، للعلّامة الشيخ محمّد باقر المجلسي، نشر: مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، بيروت.

١٥. بداية الحكمة، للسيد العلّامة محمّد حسين الطباطبائي، صحّحه وعلّق عليه الشيخ عبّاس الزارعي السبزواري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، الطبعة السادسة عشر، ١٤١٩هـ، قم.

١٦. البداية والنهاية، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأُولى، ١٤٠٨هـ، بيروت.

١٧. بصائر الدرجات الكبرى، محمّد بن الحسن الصفّار، تحقيق: ميرزا محسن باغي، الناشر: مؤسّسة الأعلمي، ١٤١٤هـ، طهران.

١٨. تاريخ بغداد، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلميّة، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ، بيروت.

١٩. تاريخ مدينة دمشق، للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة

والنشر والتوزيع، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ، بيروت.
٢٠. التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدسة.
٢١. تحف العقول عن آل الرسول، للشيخ الثقة أبي محمّد الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي لجماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، قم.
٢٢. تفسير الجلالين، لجلال الدين محمّد بن أحمد المحلّي وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، نشر: دار المعرفة، بيروت.
٢٣. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطّار، نشر: دار الفكر، ١٤١٥هـ، بيروت.
٢٤. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تقديم: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشي، الناشر: دار المعرفة، ١٤١٢هـ، بيروت.
٢٥. تفسير القرآن، عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: مصطفى مسلم، الناشر: مكتبة الرشيد، السعوديّة.
٢٦. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمّد بن أحمد القرطبي، نشر: مؤسّسة التاريخ العربي، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٢٧. تفسير القمّي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمّي، تصحيح: السيّد طيّب الجزائري، مؤسّسة دار الكتاب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، قم.
٢٨. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين محمّد الرازي، منشورات محمّد علي بيضون، الكتب العلميّة، ط١، ١٤٢١هـ، بيروت.

٢٩. التفقّه في الدين، حوار مع سماحة المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، مؤسّسة الهدى للطباعة والنشر، الطبعة الجديدة، ١٤٣٤هـ، بيروت.
٣٠. تلبيس إبليس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: الدكتور السيّد الجميلي، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٣١. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام)، للورّام بن أبي فراس المالكي، نشر: مكتبة الفقيه، قم.
٣٢. تهذيب الأحكام، لشيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق: السيّد حسن الخرسان، نشر: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٥م، قم.
٣٣. التواضع والخمول، للحافظ عبد الله بن محمّد بن عبيد بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، تحقيق: محمّد عبد القادر، الناشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، لبنان.
٣٤. التوحيد، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه، تحقيق: السيّد هاشم الحسيني، نشر: جماعة المدرّسين، قم.
٣٥. التوقيف على مهمّات التعاريف، محمّد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمّد رضوان الداية، نشر: دار الفكر المعاصر، بيروت.
٣٦. جامع الأخبار، للشيخ محمّد بن محمّد السبزواري؛ تحقيق: علاء آل جعفر.
٣٧. جامع السعادات، محمّد مهدي النراقي، تحقيق وتعليق: السيّد محمّد كلانتر، تقديم الشيخ محمّد رضا المظفّر، منشورات مطبعة النعمان، النجف الأشرف.

٣٨. الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأُولى، ١٤٠١هـ، بيروت.
٣٩. الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) لأبي زيد عبد الرحمن بن محمّد الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح أبو سنة وعلي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، بيروت.
٤٠. حسن الظنّ بالله، لابن أبي الدنيا، حقّقه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: مخلص محمّد، الناشر: دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، الرياض.
٤١. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، الناشر: دار الكتب العلميّة، بيروت.
٤٢. الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، علي حسين الجابري، الناشر: دار آفاق عربيّة، ط١، ١٩٨٥م، بغداد.
٤٣. الخصال، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة.
٤٤. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، نشر: دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ، بيروت.
٤٥. الدعوات، قطب الدين الراوندي، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، قم المقدّسة.
٤٦. دلائل الإمامة، للمحدّث محمّد بن جرير الطبري، تحقيق ونشر: مؤسّسة البعثة، قسم الدراسات الإسلاميّة، الطبعة الأُولى، ١٤١٣هـ، قم المقدّسة.

٤٧. رسائل الشهيد الثاني، للشهيد السعيد الفقيه زين الدين علي الجبعي العاملي، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلاميّة، نشر: مؤسّسة بوستان كتاب، الطبعة الأُولى، ١٤٢٢هـ، قم المقدّسة.
٤٨. الرسائل العشر، للشيخ ابن فهد الحلّي، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة، مطبعة سيّد الشهداء عليه السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم.
٤٩. رسائل فقهيّة، للشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري، تحقيق: لجنة التحقيق في الأمانة العامّة للمؤتمر المئوي، الناشر: مؤسّسة الكلام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، قم.
٥٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي الحسيني البغدادي، المقابلة والتعليق: محمّد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، نشر: إحياء التراث العربي، الطبعة الأُولى، ١٤٢١هـ، بيروت.
٥١. الروضة من الكافي، للشيخ محمّد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، قم المقدّسة.
٥٢. سبل السلام (شرح بلوغ المرام)، السيّد محمّد بن إسماعيل الكحلاني (ت:١١٨٢هـ)، مراجعة وتعليق: محمّد عبد العزيز الخولي، طبع ونشر: مكتبة مصطفى الحلبي، الطبعة الرابعة، ١٩٦٠م، القاهرة.
٥٣. سنن ابن ماجة، للحافظ أبي عبد الله محمّد بن يزيد القزويني، تحقيق وتعليق: الأستاذ محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٥٤. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق

وتعليق: سعيد محمّد اللحّام، نشر: دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م، بيروت.

٥٥. سنن الترمذي، محمّد بن عيسى الترمذي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر: دار الفكر، ١٤٠٣هـ، بيروت.

٥٦. سنن الدارمي، للإمام أبي محمّد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، نشر: مطبعة الاعتدال، دمشق.

٥٧. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري وسيّد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، بيروت.

٥٨. السنن الكبرى، للمحدّث الحافظ أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، نشر: دار الفكر، بيروت.

٥٩. سنن النبيّ صلّى الله عليه وآله للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، تحقيق وإلحاق: حجّة السلام والمسلمين الحاجّ الشيخ محمّد هادي الفقهي، طبع ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٦هـ، قم المشرّفة.

٦٠. السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة، أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الحرّاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٦١. سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبي، تحقيق: محمّد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، بإشراف: الأستاذ شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ، بيروت.

٦٢. شرح أصول الكافي، محمّد صالح المازندراني، تعليق: أبي الحسن الشعراني، نشر: مؤسّسة التاريخ العربي، الطبعة الثانية المصحّحة، ١٤٢٩هـ، بيروت.

٦٣. شرح تمهيد القواعد، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري.

٦٤. شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، للشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، طبع ونشر وتصحيح وتعليق: جلال الدين الحسيني الآرموي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة.

٦٥. شرح منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله الأنصاري، شرح: عبد الرزاق القاساني، تحقيق: محسن بيدار فر، الناشر: بيدار، الطبعة الثانية، ١٣٨١ش، قم.

٦٦. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، نشر: دار إحياء الكتب العربيّة، بيروت.

٦٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيّة، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق أحمد بن عبد الغفور عطّار، نشر: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ، الطبعة الرابعة، بيروت.

٦٨. صحيح ابن حبّان، محمّد بن حبّان، ترتيب: الأمير علاء الدين عليّ بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، بيروت.

٦٩. صحيح البخاري، محمّد بن إسماعيل البخاري، الناشر: دار الفكر، ١٤٠١هـ، بيروت.

٧٠. صحيح مسلم، مسلم بن الحجّاج بن مسلم النيسابوري، نشر: دار الفكر، بيروت.

٧١. الصحيفة السجّاديّة، للإمام عليّ زين العابدين عليه السلام، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، إشراف: محمّد علي الأبطحي، الطبعة الأُولى، ١٤١١هـ، قم.

٧٢. الطبقات الكبرى، محمّد بن سعد، نشر: دار صادر، بيروت.

٧٣. عدّة الداعي ونجاح الساعي، للشيخ أحمد بن فهد الحلّي، تحقيق: أحمد الموحّدي القمّي، الناشر: مكتبة الوجداني، قم.
٧٤. عوالي اللآلئ، لابن أبي جمهور الأحسائي، تحقيق: البحّاثة الشيخ مجتبى العراقي، نشر: مطبعة سيّد الشهداء، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، قم المقدّسة.
٧٥. عيون الحكم والمواعظ، عليّ بن محمّد الليثي الواسطي، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، نشر: دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، قم المقدّسة.
٧٦. عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون، للشيخ حسن حسن زاده آملي، مؤسّسة انتشارات أمير كبير، طهران.
٧٧. غرر الحكم ودرر الكلم، جمع عبد الواحد الآمدي، تحقيق: السيّد جلال الدين الآرموري، نشر: جامعة طهران، الطبعة الثالثة.
٧٨. فتح القدير (الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير)، محمّد بن علي بن محمّد الشوكاني، الناشر: عالم الكتب، بيروت.
٧٩. الفروع من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، قم المقدّسة.
٨٠. الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، تحقيق وإشراف: محمّد بن محمّد الحسين القائيني، الناشر: مؤسّسة المعارف الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، إيران.
٨١. فقه العقيدة (بحوث في أصول الإيمان وفروعه)، من أبحاث سماحة المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والعقيدة، الطبعة

الأولى، ١٤٣٦هـ، العراق، الكاظميّة.
٨٢. قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب محمّد بن علي بن عطيّة المكّي، منشور في موقع الورّاق، وفي المكتبة الشاملة.
٨٣. كتاب التوّابين، عبد الله بن قدامه المقدسي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار الكتب العلميّة، طبعة ١٤٠٣هـ، بيروت.
٨٤. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، انتشارات هجرت، ١٤١٠هـ، الطبعة الثانية، قم المقدّسة.
٨٥. كشف الخفاء، للشيخ إسماعيل بن محمّد العجلوني، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، بيروت.
٨٦. كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتّقي بن حسام الدين الهندي، نشر: مؤسّسة الرسالة، ١٣٩٩هـ، بيروت.
٨٧. كنز الفوائد، للمحدّث العلّامة أبي الفتح محمّد بن علي الكراجكي (ت: ٤٤٩هـ)، الناشر: مكتبة المصطفوي، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، قم.
٨٨. لسان العرب، لابن منظور الإفريقي المصري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأُولى، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٨٩. لسان الميزان، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، ١٩٧١م، بيروت.
٩٠. لغز الحياة، الدكتور مصطفى محمود، منشور في موقع القصّة السوريّة.
٩١. مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي الفضل بن الحسن الطبرسي، نشر: مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، بيروت.
٩٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، نشر: دار الكتب العلميّة، ١٩٨٨م، بيروت.

٩٣. محاسبة النفس، للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي (ت: ٩٠٥هـ)، تحقيق: الشيخ فارس الحسّون، نشر: مؤسّسة قائم آل محمّد عليه السلام، الطبعة الأُولى، ١٤١٣هـ، قم المقدّسة.
٩٤. المحاسن، تأليف الشيخ أبي جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقي، تصحيح وتعليق: السيّد جلال الدين الحسيني، نشر: مؤسّسة الأعلمي، ١٤٢٩هـ، طهران.
٩٥. المدرسة القرآنيّة، للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قدّس سرّه، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، نشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر قدّس سرّه، الطبعة الثانية المحقّقة، ١٤٢٤هـ، قم.
٩٦. مستدرك الوسائل، للميرزا حسين النوري الطبرسي، نشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٩٧. مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل، نشر: دار صادر، بيروت.
٩٨. مصباح الشريعة، المنسوب للإمام جعفر الصادق عليه السلام، نشر: مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، بيروت.
٩٩. مصباح المتهجّد، للشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، الناشر: مؤسّسة فقه الشيعة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، بيروت.
١٠٠. المصنَّف، عبد الرزاق الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي، بيروت.
١٠١. المصنَّف، لابن أبي شيبة الكوفي، ضبطه وعلّق عليه: الأستاذ سعيد محمّد اللحّام، نشر: دار الفكر، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩هـ، بيروت.
١٠٢. معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوّة، علي محمّد محمّد الصلابي، مقدّمة الكتاب.

١٠٣. معاني الأخبار، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، صحّحه: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ، قم المقدّسة.
١٠٤. المعجم الأوسط، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.
١٠٥. معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ، بيروت.
١٠٦. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيّوب اللخمي الطبراني، تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، طبع دار إحياء التراث العربي، نشر: مكتبة ابن تيميّة، الطبعة الثانية، القاهرة.
١٠٧. معرفة الله، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: فراقد، الطبعة الثانية، قم المقدّسة.
١٠٨. مفردات غريب القرآن، الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداوودي، انتشارات ذوي القربى، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ، قم المقدّسة.
١٠٩. مقدّمة في علم الأخلاق، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، نشر: دار فراقد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، قم المقدّسة.
١١٠. مكارم الأخلاق، للحافظ ابن أبي الدنيا، تحقيق وتعليق: مجدي السيّد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.
١١١. مكارم الأخلاق، للشيخ الجليل رضيّ الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة، ١٩٧٢م، قم المقدّسة.
١١٢. المكتبة الشاملة.

١١٣. ملحمة جلجامش، تعريب: الدكتور طه باقر، منشورة في مجلة التراث الشعبي البغداديّة: العدد: ٦، لعام ١٩٧٦م، بغداد.
١١٤. مَن لا يحضره الفقيه، للشيخ الأقدم الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر جماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، قم المقدّسة.
١١٥. منطق فهم القرآن (الأُسس المنهجيّة للتفسير والتأويل في ضوء آية الكرسي)، من أبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، نشر: دار فراقد، الطبعة الأُولى، ١٤٣٣هـ، قم المقدّسة.
١١٦. الموطأ، للإمام مالك بن أنس، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، بيروت.
١١٧. موقع الورّاق الإلكتروني.
١١٨. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين أبو عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي محمّد البجاوي، نشر: دار المعرفة، الطبعة الأُولى، ١٣٨٢هـ، بيروت.
١١٩. الميزان في تفسير القرآن، السيّد محمّد حسين الطباطبائي، نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة.
١٢٠. نهج البلاغة، خُطب الإمام عليّ عليه السلام، جمع الشريف الرضي، تحقيق وتعليق: الشيخ محمّد عبده، نشر: دار المعرفة، بيروت.
١٢١. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للشيخ الفقيه المحدّث محمّد بن الحسن الحرّ العاملي (ت: ١١٠٤هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة.

الفهرس